جامع السعادات

تأليف العلامة النراقي

الجزء الأول

ترجمة المؤلف ـ بقلم الشيخ محمد رضا المظفر

مقدمة المؤلف

الباب الأول في المقدمات

انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار

تجرد النفس وبقاؤها

تلذذ النفس وتألمها

فضائل الأخلاق ورذائلها

الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف

العمل نفس الجزاء

تأثير المزاج على الأخلاق

تأثير التربية على الأخلاق

شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته

النفس وأسماؤها وقواها الأربع

ائتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة

الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً

غاية السعادة التشبيه بالمبدأ

بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم

ايقاظ فيه موعظة ونصيحة

الباب الثاني في أقسام الأخلاق

أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

آداب التعلم والتعليم

العلم الإلهي وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم

أصول العقائد المجمع عليها

أنواع الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة هي خمسة أنواع

الجهل المركب

الشك

اليقين

علامات صاحب اليقين

مراتب اليقين

الشرك

التوحيد في الفعل

ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى

مناجات السر لارباب القلوب

الخواطر النفسانية

أقسام الخواطر، ومنها الإلهام

المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس

تسويلات الشيطان ووساوسه

العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة

علاج الوساوس

ما يتم به علاج الوسواس

ما يتوقف عليه قطع الوسواس

حديث النفس لا مؤاخذة عليه

الخاطر المحمود والتفكر

صغر النفس

كبر النفس

الثبات أخص من كبر النفس

دناءة الهمة

عدم الغيرة والحمية

الغيرة والحمية

الغيرة على الدين والحريم والأولاد

العجلة

الأناة والتوقف والسكينة والوقار

سوء الظن بالخالق والمخلوق

حسن الظن

الغضب

الإفراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب

الغضب

امكان إزالة الغضب وطرق علاجه

فضيلة الحلم وكظم الغيظ

الانتقام

العفو

العنف

فضيلة الرفق

المداراة

سوء الظن بالمعنى الأخص

طرق اكتساب حسن الخلق

الحقد

العداوة الظاهرة

الضرب والفحش واللعن والطعن

العجب

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل
دفع الاشكال في تقسيم الحكمة
تحقيق الوسط والأطراف
أجناس الرذائل وأنواعها
الفرق بين الفضيلة والرذيلة
العدالة أشرف الفضائل
ثم العدالة على أقسام ثلاثة:
ايقاظ
دفع اشكال في دخول المتفضل في العدالة وهي المساواة
اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وعدالة السلطان
لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة
التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي
الباب الثالث في الأخلاق المحمودة
الطريق لحفظ اعتدال الفضائل
المعالجات الكلية لمرض النفس
المعالجات الخاصة لمرض النفس
المقام الأول في القوة العاقلة
الجربزة طرف الأطراف
الجهل البسيط طرف التفريط
شرف العلم والحكمة وهو الحد الوسط في القوة العاقلة
مجاري التفكر في المخلوقات
تذنيب
نصيحة
المكر والحيلة
المقام الثاني فيما يتعلق بالقوى الغضبية
الإفراط في قوة الغضب: التهور
التفريط في قوة الغضب: الجبن
الوسط في قوة الغضب: الشجاعة
أنواع الرذائل ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية
الخوف
الخوف المذموم وأقسامه
الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته
بم يتحقق الخوف
الخوف من الله الفضائل
الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً
طرق تحصيل الخوف الممدوح
خوف سوء الخاتمة وأسبابه
الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله
التلازم بين الخوف والرجاء
مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر
العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف
مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف أمراضهم
ذم العجب
آفات العجب
علاج العجب اجمالا وتفصيلا
انكسار النفس
الكبر
ذم الكبر
التكبر على الله وعلى الناس
درجات الكبر
علاج الكبر علما وعملا
اشكال وحل
العلاج العملي للكبر
التواضع ومدحه
الذلة
الافتخار
البغي
تزكية النفس
العصبية
كتمان الحق
الانصاف والاستقامة على الحق
القساوة

حياة المؤلف
مولده ووفاته
نشأته العلمية وأساتذته
عصره
شخصية المترجم له وأخلاقه
مؤلفاته
في أصول الفقه
في الحكمة والكلام
في الأخلاق والمواعظ
جامع السعادات وعلم ا لأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف

١١٢٨ـ ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة. ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين.

وهو عصامى لا يُعرف عن والده (أبي ذر) إلا أنه كان موظفاً في الدولة الإيرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق)، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيات التاريخ كملايين البشر من أمثاله، ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي أخوه، ولكن له ولد نابه الذكر، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه، وصاحب التأليفات الثمينة، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر. وكفاه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١.

ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته، لما وطيء عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف. كما حذا حذوه في تأليفاته. فان الأب المكرم ألف في

الفقه (معتمد الشيعة). والابن الجليل ألف مستندها. وذاك ألف في الأخلاق (جامع السعادات) ـ هذا الكتاب الذي نقدمه ـ وهذا ألف (معراج السعادة) في الفارسية. وذاك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخزائن)... وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج.

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له ـ رحمه الله تعالى ـ في (نراق) كعراق١[1]، وهي قرية من قرى كاشان بإيران، تبعد عنها عشرة فراسخ. وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر. ولم يذكر التأريخ سنة ولادته، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التاريخية، فانه تلمذ ـ في أول نشأته على ما يظهر ـ على الشيخ المحقق الحكيم المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، مع العلم أن استاذه هذا توفي عام ١١٧٣، فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير، إذا فرضنا أنه لازمه إلى حين وفاته: ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاماً، وعليه فتكون ولادته عام ١١٢٨، أو قبل ذلك.

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف، ودفن فيها، فيكون قد بقي بعد وفاة استاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة، ويكون عمره ٨١ عاماً على الأقل.

وفي (رياض الجنة) المخطوط، تأليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له ـ حسب نقل الأستاذ حسن النراقي ـ: ان عمره كان ٦٤ سنة، فتكون ولادته سنة ١١٤٦هـ. وهذا لا يتفق أبداً مع ما هو معروف في تأريخه: انه تلمذ على المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة استاذه ٢٧ سنة فقط.

نشأته العلمية وأساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم: خامل الذكر، فقير الحال منزوياً في مدرسته، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر، ولا يتصل به إلا أقرانه

---

١ [1] وفي أعيان الشيعة ــ ج١٠ ص٢٥٠ ــ: انها بفتح النون.

في دروسه، الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب، يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاب العلم، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس.

وبطبيعة الحال لا يسجل له التأريخ شيئاً في هذه النشأة، وكذلك كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع إليه الطلاب في التدريس، أو الناس في تقليد، أو تكون له مؤلفات تشتهر. ومن هنا تبتدىء معرفة حياة الرجل العالم، وتظهر آثاره ويلمع اسمه.

ومع ذلك، فانا نعرف عن شيخنا: ان أسبق أساتذته وأكثرهم حضوراً عنده هو المولى إسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر؟ وهذا الأستاذ كان مقره في أصفهان، وفيها توفي ودفن، والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في الكارثة التأريخية المفجعة التي أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدّث التأريخ عن مثلها، وذلك سنة ١١٣٤. فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلمية في مبدأ تحصيله في أصفهان على هذا الشيخ الجليل. والظاهر أنه عليه قرأ الفلسفة، لأن هذا الشيخ من أساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر إلى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار. وكفى ان من تلاميذه المولى محراب، الإلهي المعروف، الذي طورد لقوله بوحدة الوجود، ولما جاء إلى إحدى العتبات المقدسة متخفياً. وجد في الحرم شيخاً ناسكاً يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب، ولما سأله عن السبب في لعنهما قال: لأنهما يقولان (بوحدة واجب الوجود)، فقال له ساخراً: إنهما حقاً يستحقان منك اللعن!

ودرس أيضاً شيخنا المترجم له ـ والظاهر أن ذلك في أصفهان أيضاً ـ على العالمين الكبيرين: الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان، والشيخ محمد مهدي الهرندي. وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر.

ولاشك أنه انتقل إلى كربلا والنجف، فدرس على الأعلام الثلاثة: وحيد البهبهاني الآتي ذكره ـ وهو آخر أساتذته وأعظمهم، وتخريجه كان على يديه ـ والفقيه العالم صاحب الحدائق

الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣.

فجملة أساتذته سبعة، سماهم ولده في بعض إجازاته على ما نقل عنه بـ (الكواكب السبعة). وهم خيرة علماء ذلك العصر، وعلى رأسهم الآقا الوحيد أستاذ الأساتذة.

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا، رجع إلى بلاده واستقام في كاشان. وهناك أسس له مركزاً علمياً تشد إليه الرحال، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء، واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز العلم في إيران، وليس لدينا ما يشير إلى تأريخ انتقاله إلى كاشان.

ورجع إلى العراق، وتوفى في النجف الأشرف ودفن فيها. والظاهر ان مجيئه هذا كان ـ وكان معه ولده ـ بعد استاذه الوحيد، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفى، أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ، كبحر العلوم، وكاشف الغطاء.

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق، بل على أكثر المدن الشيعية في إيران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية ـ كاصفهان وشيراز وخراسان ـ وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني: الأولى: النزعة الصوفية التي جرّت إلى مغالاة فرقة الكشفية. والثانية: النزعة الأخبارية.

وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي، وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها، حتى أن الطالب الديني في مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالي، فلا يحمل مؤلفات العلماء الاصوليين إلا بمنديل، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف، وكربلا يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية.

وفي الحقيقة ان هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة إلى حد بعيد، حتى أنه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠، لم تجد واحداً من الفقهاء

الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الأولى، أو تكون له الرئاسة العامة، إلا من ظهر في أواخر القرن كالشيخ الفتوني الجليل في النجف المتوفي ١١٨٣، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلا المتوفى ١٢٠٨، الذي تم على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق.

وهذا الفتور العلمي، وطغيان نزعة التصوف من جهة، ونزعة الأخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص، مما يدعو إلى التفكير والعجب، وليس بأيدينا من المصادر ما يكفى للجزم بأسباب ذلك. وأغلب الظن أن أهم الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت إليهما البلاد الإسلامية في ذلك القرن، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد، والحروب الطاحنة بين الامراء والدول لا سيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية، وبين الإيرانية والأفغانية، تلك الحروب التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية. وهذا كله مما يسبب البلبلة في الأفكار والاتجاهات، وضعف الروح العامة المعنوية.

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية، والسلطات الزمنية. ويدعو ذلك عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة، واليأس من الإصلاح. فتنشأ هنا نزعة التصوف، وتتخذ يومئذ صرحاً علمياً على انقاض الفلسفة الإشرافية الإسلامية المطاردة المكبوتة، التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠، واضرابه وأتباعه، مع المغالاة في أفكارها. وساند طريقة التصوف مبدئياً أن السلطة الزمنية في إيران ـ وهي (سلطة الصفويين) ـ قامت على أساس الدعوة إلى التصوف. وظلت تؤيدها وتمدها سراً.

ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو، فينكر على الناس أن يركنوا إلى العقل وتفكيره، ويلتجأ إلى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء والجمود على ظواهرها. ثم يدعو الغلو بهؤلاء إلى ادعاء أن كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف. ثم يشتد بهم الغلو.

فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده، من دون الرجوع إلى الأخبار الواردة. ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند إلى الأخبار، والعقل أبداً لا يجوز الركون إليه في كل شيء، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد.

وهكذا تنشأ فكرة الأخبارية الحديثة التي أول من دعا إليها أو غالى في الدعوة إليها المولى أمين الدين الاسترابادي المتوفى ١٠٣٣. ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره. وهذا الثاني ـ وإن كان أكثر اعتدالا من الأول واضرابه ـ كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا إلى اعتناق فكرة الاخبارية هذه.

وعندما وصلت هذه الفكرة الأخبارية إلى أوجها، ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني، الذي قيل عنه بحق: مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة. فان هذا العالم الجليل كان لبقاًً مفوهاً ومجاهداً خبيراً، فقد شن على الأخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلفاته، وبمحاجاته الشفوية الحادة مع علمائها. وقد نقل في بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها ـ وبدروسه القيمة التي يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الأصول الحديث، وخروجه عن جموده الذي ألفه عدة قرون، واتجه التفكير العلمي إلى ناحية جديدة غير مألوفة.

فانكمشت في عصره النزعة الأخبارية على نفسها، ولم تستطع أن تثبت امام قوة حجته. وتخرّج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الأمة، كبحر العلوم، وكاشف الغطاء، والمحقق القمي، والشيخ النراقي ـ المترجم له ـ وأشباههم.

فيبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الأخبارية والأصولية، وساحتها كربلا، وفي عنفوان معركة الدعوة إلى التصوف، وساحتها أصفهان على الأكثر، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه، وساعده على ذلك انه ـ رحمه الله ـ كان متفنناً في دراسة العلوم، ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدماتهما، فقد شارك العلوم الرياضية، كالهندسة والحساب والهيئة، وله مؤلفات فيها

سيأتي ذكرها. كما درس الفلسفة، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات)، لا سيما في الباب الأول، وفي تقسيمه لأبواب الكتاب وفصوله على أساس علمي متقن برّز فيه على كتب الأخلاق السابقة عليه من الناحية. سيأتي بيان ذلك.

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين:

(الأول) طغيان التصوف من جهة، وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة من جهة أخرى، وأنهما هما اللذان ألجآه إلى أن يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية، فانه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادىء الفلسفة الاشراقية، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف، وجعل آراءه ودعوته إلى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت (ع) فهو في وقت واحد هادم وبان، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (إحياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفية، وهي غايته المثلى.

و(الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة، فانه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية ـ بعد خرّيت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفي ٤٢١، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ ـ إلى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبنى على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا.

شخصية المترجم له وأخلاقه

إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس. وما كلمة الحظ في هذا الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة. وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها، بل على الأكثر هي كذلك فيندفع العبقري إلى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعاً لا شعورياً، وان أعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره.

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم، ثم عزة نفسه، وإن كانت هذه الفاظاً عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع، إلا أن للدرجة الخاصة من الصبر والإرادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخوصها إلا بهذه الألفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الأمور في ثلاث حوادث منقولة عنه:

(الأولى) ـ فيما ينقل انه كان في أيام التحصيل في غاية الفقر والفاقة ـ والفقر دائماً شيمة العلماء، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي ـ فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن أن يكون من زيت أو شمع، فيدعوه حرصه على العلم إلى الدخول في بيوت في مراحيض المدرسة، ليطالع على سراجها، ولكنه تأبى عزته أن يدع غيره يشعر بما هو فيه، فيوهم الداخلين ـ بالتنحنح ـ انه جالس للحاجة الخاصة. وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الأفذاذ.

(الحادثة الثانية) ـ أن أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي، ان هذا الكاسب المؤمن لا حظ على هذا الطالب انه رث الثياب. وكان معجباً به، إذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب، فرأى أن يكسيه تقرباً إلى الله فهيأ له ملبوساً يليق بشأنه، وقدمه له عندما اجتاز عليه، فقبله بالحاح. ولكن هذا الطالب الأبي في اليوم الثاني رجع إلى رفيقه الكاسب وارجع له هذا الملبوس قائلاً: اني لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أطيقها، لا سيما حينما اجتاز عليك، فلم أجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم، والقاه عليه ومضى معتزاً بكرامته.

(الحادثة الثالثة) ـ فيما ينقل عنه أيضاً ـ وهي أهم من الأولى والثانية ـ انه كان لا يفض الكتب الواردة اليه، بل يطرحها تحت فراشه مختومة، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم. والصبر على هذا الأمر يتطلب قوة إرادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر. ويتفق

أن يقتل والده (أبو ذر) المقيم في نراق وطنه الأصلي، وهو يومئذ في أصفهان، يحضر على استاذه الجليل المولى إسماعيل الخاجوئي، فكتبوا إليه من هناك بالنبأ ليحضر إلى نراق، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون اخرى، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب، ولم يعلم بكل ما جرى. ولما طالت المدة على من في نراق، كتبوا له مرة أخرى، ولكن لم يجبهم أيضاً. ولما يئسوا منه كتبوا بالواقعة إلى استاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء. والأستاذ في دوره ـ على عادة الناس ـ خشى أن يفاجئه بالنبأ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له ـ تمهيداً لاخباره ـ الحزن والكآبة، ثم ذكر له: ان والده مجروح، ورجح له الذهاب إلى بلاده ولكن هذا الولد الصلب القوى الشكيمة لم تلن قناته، ولم يزد أن دعا بالعافية، طالباً من استاذه أن يعفيه من الذهاب. وعندئذ اضطر الأستاذ إلى أن يصرح له بالواقع، ولكن الولد أيضاً لم يعبأ بالأمر، وأصر على البقاء لتحصيل العلم. إلا أن الأستاذ هذه المرة لم يجد بداً من أن يفرض عليه السفر، فسافر امتثالا لأمره المطاع، ولم يمكث في نراق أكثر من ثلاثه أيام، على بعد الشقة وزيادة المشقة، ثم رجع إلى دار هجرته. وهذه الحادثة هو لها مغزاها العميق في فهم نفسية هذا العالم الإلهي، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم.

مؤلفاته

لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة، تدلّ على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبع، وعلى علم غزير. ونحن نعدّ منها ما وصل بحثنا إليه، وأكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة:

(في الفقه):

١ـ (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام): وهو كتاب استدلالي مبسوط، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلدين يقرب من (٣٠) الف بيت.

٢ـ (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة): وهو أتم استدلالاً واخصر تعبيراً من كتاب اللوامع السالف الذكر، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء. قال في الروضات عن الكتابين: " ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيراً ".

٣ـ (التحفة الرضوية في المسائل الدينية): في الطهارة والصلاة، فارسي، يقرب من (١٠) آلاف بيت.

٤ـ (أنيس التجار): في المعاملات، فارسى، يقرب من (٨) آلاف بيت.

٥ـ (انيس الحجاج): في مسائل الحج والزيارات، فارسي، يقرب من (٤) آلاف بيت.

٦ـ (المناسك المكية): في مسائل الحج أيضاً، يقرب من ألف بيت.

٧ـ (رسالة صلاة الجمعة): ذكرها وما قبلها حفيده (الاستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا.

(في أصول الفقه):

٨ ـ (تجريد الأصول): مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره، يقرب من (٣) آلاف بيت. قال عنه في الروضات: " شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمة ".

٩ـ (أنيس المجتهدين): توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الأشرف (برقم ٤٠٨ ـ سجل المخطوطات)، تقع في ٤١١ صفحة، بخط محمد حسين بن علي نقي البزاز فرغ منها بتأريخ ٣صفر من سنة ١١٨١. وفي تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت.

١٠ـ (جامعة الأصول): يقرب من (٥) آلاف بيت.

١١ـ (رسالة في الاجماع): يقرب من (٣) آلاف بيت.

(في الحكمة والكلام):

١٢ـ (جامع الأفكار): في الإلهيات، يقرب من (٣٠) الف بيت قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣، وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة)، وستجد

راموزاً للصحفتين الأولى والأخيرة منه بخط المؤلف، منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي). والذي يجلب الانتباه في الصفحة الأخيرة ماذكره من الحوادث المروعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة.

١٣ـ (قرة العيون): في أحكام الوجود والماهية، يقرب من (٥) آلاف بيت،

١٤ـ (اللمعات العرشية): في حكمة الإشراق، يقرب من (٢٥) الف بيت.

١٥ـ (اللمعة): وهو مختصر اللمعات، يقرب من الفي بيت.

١٦ـ (الكلمات الوجيزة): وهو مختصر اللمعة، يقرب من ثمانمائة بيت.

١٧ـ (أنيس الحكماء): في المعقول، وهو من أواخر تأليفاته، لم يتم. احتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيات، يقرب من (٤) آلاف بيت.

١٨ـ (أنيس الموحدين): في أصول الدين، فارسي، يقرب من (٤) آلاف بيت.

١٩ـ (شرح الشفا): في الإلهيات، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الاستاذ حسن النراقي).

٢٠ـ (الشهاب الثاقب): في الإمامة، في رد رسالة الفاضل البخاري، يقرب من (٥) آلاف بيت.

٢١ـ (المستقصى): في علوم الهيئة، خرج منه مجلدان إلى مبحث اسناد الحركات. يقرب من (٤٠) ألف بيت، قال عنه في رياض الجنة: " لم يعمل أبسط وأدق منه في علم الهيئة، ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية، لم يتم ".

٢٢ـ (المحصل): كتاب مختصر في علم الهيئة، يقرب من (٥) آلاف بيت.

٢٣ـ (توضيح الأشكال): في شرح تحرير اقليدس الصوري في الهندسة، وقد شرحه إلى المقالة السابعة، فارسي، يقرب من (١٦) ألف بيت.

٢٤ـ (شرح تحرير اكرثاذوسنيوس): يقرب من (٣) آلاف بيت.

٢٥ـ (رسالة في علم عقود الأنامل): فارسية، تقرب من الف بيت.

٢٦ـ (رسالة في الحساب): ذكرها في روضات الجنات.

(في الأخلاق والمواعظ):

٢٧ـ (جامع السعادات): هذا المطبوع بثلاثة أجزاء ـ حسب تقسيمنا له ـ قال عنه في رياض الجنة: " يقرب من (٢٥) الف بيت ". وقد طبع في إيران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين، وسيأتي وصفه، وقد تقدم شيء من وصفه. وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الأشرف.

٢٨ـ (جامع المواعظ): في الوعظ، يقرب من (٤٠) الف بيت لم يتم.

(في المتفرقات):

٢٩ـ (محرق القلوب): في مصائب آل البيت، فارسي، يقرب من (١٨) الف بيت، قال عنه في روضات الجنات: " طريف الاسلوب ".

٣٠ـ (مشكلات العلوم): في المسائل المشكلة من علوم شتى، مطبوع على الحجر بإيران، يشبه بعض الشيء كشكول البهائي. وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بإيران.

٣١ـ (رسالة نخبة البيان): ذكرها حفيده (الأستاذ حسن النراقي).

٣٢ـ (معراج السماء): ذكره أيضاً حفيده المذكور.

جامع السعادات وعلم الأخلاق

لا شك ان القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم، وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف.

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس في حياته، ومن اعظم الحظوظ للإنسانية، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور الأجيال. ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظاً للإنسانية.

وإذا أردنا أن نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها، فانما في فترات منقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح أن نضعها في الرف الأعلى ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس، فتمكث في الأرض، وتفرض نفسها للخلود والبقاء إذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة. ومن سوء الحظ ان الفراغ لا يزال كثيراً في هذا الرف الأعلى.

ومن بين الفترات لابد أن تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه. وحظها ان تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيء انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الأعلى. وهذه غير العثاء الذي يذهب جفاء، ومن حقه أن يلقى في سلة المهملات وما أكثر هذا النوع الرخيص، لا سيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الاسفاف.

ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا النراقي فنضعها في الرف الأعلى، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه، هو بالخصوص من الآثار الخالدة، وإن لم يكن موضعه هذا الرف الأعلى كسائر الكتب الأخلاقية في الدورة الإسلامية. ولا ندري السر في ذلك، لأن الفترة بعد لم تنته لعلم الأخلاق بخصوصه كيما يظهر الأثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الأعلى، أم لأن هذا العلم ليس له تلك الفترات، بل كله في فترة مستديمة ليأس العلماء الأخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف؟!

وهذا الثاني هو الأقرب إلى الواقع. والحق مع الأخلاقيين في يأسهم فان الأخلاق لا تكتسب بالعلم وقراءة الكتب، وإنما هي صفات وملكات لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة، لا سيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل أن يفرض في الإنسان أن يكون أهلاً للقراءة، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تنميتها لكانت كتب الأخلاق من أثمن ما خلق الله، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الأخلاق

الفاضلة، بل لا كتفينا بالقرآن الكريم وحده، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه ان تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة لتخرجهم ابريزاً صافياً كصاحبها، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل أن تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جموداً على مساوئها.

وليس هذا الرأي عن الكتب الأخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما اعتقد، إلا إني مع ذلك لا اظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وأرباب القلوب الحية، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الأخلاقية الموجهة إليهم ممن يعول على قوله، ويتبعون باخلاص مجهودات المؤلفين في الأخلاق، ليترسموا خطاهم فيهذبوا أنفسهم.

ومن هنا نجد السبيل إلى انصاف الأخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير، لنعتقد انهم لم يعملوا عملاً باطلاً لا نفع فيه، بل الحق أن له قيمته العظيمة، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة. وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لا توازن بشيء في الدنيا، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئياً على هذا التأثر، وإن كان محدوداً. وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل في أمة في بعض الفترات من الزمن إلا تنيجة من نتائج هذا التأثر المحدود.

ومع ذلك، فان تأثير الدعوة الأخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الأخلاقية المجردة. بل لروحية المؤلف أعظم الأثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام إلى الخير. ومن هنا اشترطوا في الواعظ أن يكون متعظا.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المباديء العلمية - في نظر أرباب القلوب - تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلق عليها. ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثره هو بأقواله، وما كانت شهرة (مجموعة ورام)، وما كانت أهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق، ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي (الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الأشتري)، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضي بهذا الاهتمام. ومن العجيب أن قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهراً على قلمه في مؤلفاته، فتلمسه في ثنايا كلماته. وبالعكس ذلك الذي لا

قلب له، فانك لا تقرأ منه إلا كلاماً جافاً لا روح فيه، مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية.

وفي نظري ان قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية. وإني لأتحدى قاريء هذا الكتاب إذا كان مستعداً للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته، وهذا هو السر في إقبال الناس عليه وفي شهرته، على انه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية. والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف، وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق.

وإني لأؤمن إيمانا لا يقبل الشك: ان انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أمتنا نحو الخير، بعد ان نفدت طبعته الأولى وعزت نسخته، ولاسيما ان خطباء المنابر ـ فيما اعتقد ـ ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثر به ونقل تأثرهم إلى سواد الامة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة.

وهذا ما دفعني ـ والله هو الشاهد علي ـ إلى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه، ليخرج بهذه الحلة، وإن كانت ظروفي الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له، لولا اني توكلت على الله ووطنت نفسي على تجاهلها وإهمال كثير مما يجب العناية به، والحمد لله على توفيقه.

النواحي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا، اعتماده على المراسيل في الأحاديث، وتسجيل كل ما يرى أمامه من المنقولات: غثها وسمينها، من دون اشارة إلى التمييز ولا إلى المصادر، حتى نقل كثير من احياء العلوم. وتعمد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة، اللذين يشهد اسلوبهما على وضع أكثر ما فيهما. وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها، وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياماً، كما قد يذهب البحث سدى. وما كان يهمنا من الرجوع إلى المصادر إلا تصحيح المنقولات

لا إثبات مصادرها، فلذلك لا نشير في الحاشية إلى المصدر إلا إذا وجدنا اختلافاً في نصه في النسخ، فنقول: صححناه على كذا مصدر. وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل، فنذكر الأستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما أعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات.

والذي يهوّن الخطب في هذه المؤاخذة ـ على أن لها قيمتها الفنية ـ انها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلامية، بل هذا ديدنها، وكأن همّ أصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة فإذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحاً مقبولا في عرف أهل الحديث، فإذا قال المحدث: " قال النبي والإمام كذا "، يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به وإلا فيقول " روى عنه كذا " أو ما يشبه ذلك أما الأخلاق فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأي طريق كان.

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولاً في مذهبهم على ما قدمنا، لو لم تكن فيه إساءة إلى أمانة النقل في أهم تراث اسلامي ديني، في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث، على أن في الثابت الصحيح عن آل البيت (ع) ما فيه الكفاية للالمام بنواحي الأخلاق المطلوبة، وما في (الكافي) كاف وحده في هذا الباب. وكنا نتمنى ـ أثناء التصحيح ـ على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الأخلاقيين، فيزيد على فائدته الأخلاقية فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة.

اما اسلوب الكتاب الأدبي، فهو يمثل إلى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة إلى حد كبير، بالرغم على أن الفسلاسفة الاشراقيين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الاسلوب، لا سيما في العصر السابق على عصر المؤلف، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره، حتى كان يسمى الأول: أمير البيان، ولعل الثاني أحق بهذا اللقب. غير ان صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم. على أنه كان يقتبس كثيراً نص عبارات غيره استراحة إليها. وهذه سنة

مستساغة عند المؤلفين الأخلاقيين، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع، أو لأن همهم أداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الأحاديث.

وبهذه المناسبة نقول: إنا وجدنا أثناء تصحيح الكتاب كثيراً من الألفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغاً من اللغة العربية، ككلمة (القادسة) و(الهلاكة، ففضلنا أن نبقيها على ما وجدناها، حرصاً على أمانة النقل، وأهملنا التنبيه عليها، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين إشارة إلى زيادتها منا.

وإذا كانت أمانة النقل هي العذر لنا في ذلك، فهي التي تقضي علينا ان نصرح أن عناوين الكتاب على الأكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف.

وأما اسلوبه العلمي، فقد بناه مؤلفه من أوله إلى آخره على نظرية الوسط والأطراف في الأخلاق، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية وقد بحث عنها المؤلف في (الجزء الأوّل ص٥٩). وليس من حقنا أن نناقشها، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده، فان شأنه في الاعتماد على هذه النظرية الأساسية شأن ساير كتب الأخلاق الإسلامية العلمية.

ولكن الذي امتاز به كتابنا ـ بعد أن بحث مؤلفه بحثاً فلسفياً متوسطاً عن النفس وقواها، والخير والسعادة، والفضائل والرذائل، في البابين الأول والثاني، كم صنع أسلافه ـ أن جعل أساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث: العاقلة والشهوية والغضبية، معللا ذلك بأن " جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث " (٦٦/١). وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من أجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة إلى الأخرى ثم ذكر أنواعها، واستقصى ذكر الأنواع، مطبقاً على كل نوع نظرية الوسط والأطراف، فجاء في استقصائه وإلحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بها، بما لم يجيء به غيره ولم يسبقه إليه أحد فيما نعلم، وهو نفسه ادعى ذلك فقال: " ان إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وإدخال البعض في البعض، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق " (٧١/١).

وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة، لو اتفق لغيره أن يترسم خطاه، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق، لتقدم على يديه علم الأخلاق كبيراً. وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه، فلم يجعلها جنساً مقابلاً لأجناس الفضائل الثلاث الأخرى، وهي الحكمة والعفة والشجاعة، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها، لا انها في مقابلها، وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني، ولا أظن أحداً يقره عليه، ولا يثبت أمام النقد. ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الأخلاقية الأخرى. وقصدنا أن هذا التقسيم من المؤلف، وارجاع الفضائل والرذائل إلى أسبابها، وجعل مواضيع الأبحاث تلك القوى، وإحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها، وكل ذلك مستجد وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب.

تصحيح الكتاب ومراجعه

وعدت الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد كلانتر، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحاً وتعليقاً ـ جزاه الله خير ما يجزي العاملون ـ: على الاشتراك معه واعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه أيضاً عند الطبع، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه، وذلك قبل سنتين. وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية، فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفني الأمر.

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره، باعتباره أحد الكتب التي يجب احياؤها في هذا العصر، وهذا منه أحد شواهدي على تأثر الفتيان الكرام الابرار بهذا السفر الأخلاقي، وقد شاهدت صبره لأول مرة في إيران في صيف العام الماضي، لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة، في تصحيح قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ إلى حد ص١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع، فأودعا في التعليقة آراءهما القيمة في تحقيقه وتصحيحه. ولئن عدنا في

التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع، فانا اعتمدنا كثيراً على تلك التحقيقات القيمة الماضية.

ولا ننسى أن نذكر أن للنسخة المطبوعة في إيران على الحجر، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان إليها، ويشوه المقصود والمعنى. ومن الغريب أن يجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وتشويه الإملاء والتبويب، فهذه أمور حدث عنها ولا حرج. ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا، لتعرف أي مجهود بذل للتصحيح والإخراج، وتجد العناية على كل سطر منه، بل كل كلمة.

ومن سوء الحظ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظاً في الصحة من أختها المطبوعة. وهذا ما دعانا إلى أن نرجع إلى كتب أخرى تمت بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب، كالكتب الأخلاقية وكتب الحديث. وأكثر ما كان يعنينا تصحيح الأحاديث الشريفة بالرجوع إلى مصادرها الذي جشمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق أكثر أوقاتنا، وقد نذكر أحياناً في التعليقة المصدر المرجوع إليه، وعلى الأكثر لا نذكر المرجع إلا عند ما يكون مخالفاً لنسخ الكتاب. ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب، وهي:

مقدمة المؤلف
الباب الأول في المقدمات
انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار
في تجرد النفس وبقائها
في بيان تلذذ النفس وتألمها
في فضائل الأخلاق ورذائلها
الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وجعله أفضل أنواع الأكوان، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الامكان، أظهر فيه عجائب قدرته القاهرة، وأبرز فيه غرائب عظمته الباهرة، ربط به الناسوت باللاهوت، وأودع فيه حقائق الملك والملكوت، خمر طينته من الظلمات والنور، وركب فيه دواعي الخير والشرور، عجنه من المواد المتخالفة، وجمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل، والصلاة على نبينا الذي أوتى جوامع الحكم، وبعث لتتميم محاسن الأخلاق والشيم، وعلى آله مصابيح الظلم، ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم.

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن أبي ذر النراقي) بصره الله بعيوب نفسه، وجعل يومه خيراً من أمسه: إنه لا ريب في أن الغاية من وضع النواميس والأديان، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسان، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين، وايصالهم إلى روضات العليين، وردعهم عن مشاركة إسراء ذل الناسوت، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت، ومرافقة قطان قدس الجبروت، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق ورذائلها، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها، فيجب على كل عاقل أن يأخذ اهبته، ويبذل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعة وأرجاسها، وتغسيل نفسه عن أقذار الجسمية وأنجاسها قبل أن يتيه في بيداء

الشقاق، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة ما دام الاختيار بيده، إذ لا تنفعه الندامة والحسرة في غده.

ثم لا ريب في ان التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها، والعلم بأسبابها ومعالجاتها، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله أهلها، ولم يرخص لأحد جهلها، وهي الموجبة للحياة الحقيقية، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات، وربما أحرقته نيران الشهوات.

وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها. وجمعها وتبيينها، على ما أدت إليه قوة أنظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم. ولما جاءت الشريعة النبوية " على صادعها الف صلاة وتحية " حثت على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والأديان، إلا انه لما كان ما ورد منها منتشراً في موارد مختلفة، ومتفرقاً في مواضع متعددة، تعسر ان يحيط به الجل فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقر به أعين الطالبين، وتسر به أفئدة الراغبين.

ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب ثم نشير إلى أقسام الأخلاق، ومبادئها من القوى ونضبطها بأجناسها وأنواعها ونتائجها وثمراتها ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الأخلاق والجزئية لكل خلق مذموم، مما له اسم مشهور؛ وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة، وفي تلوه نذكر ضده المحمود، وما يدل على فضله عقلاً ونقلاً، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لإزالة ضده، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور، ثم ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث، لأن ذلك أدخل في ضبط الأخلاق، ومعرفة أضدادها، والعلم بمبادئها وأجناسها، وهو من أهم الامور لطالبي هذا الفن.

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن، لأن غرضنا في هذا الكتاب إنما هو مجرد اصلاح النفس، وتهذيب الأخلاق، وسميته " بجامع السعادات " ورتبته على ثلاثة أبواب.

الباب الأول

في المقدمات

انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار ـ تجرد النفس وبقاؤها ـ التذاذ النفس وتألمها ـ فضائل الأخلاق ورذائلها ـ الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف ـ حصول الملكات بتضاعف الأعمال ـ العمل نفس الجزاء ـ القول بتجسد الأعمال والملكات ـ المضادة بين الدنيا والآخرة ـ للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها ـ حقيقة الخلق وماهية الملائكة ـ الأقوال في تبدل الأخلاق والملكات ـ شرف علم الأخلاق ـ تعريف النفس واساميها باختلاف الاعتبارات ـ في الاشارة إلى اعتبار مدافعة القوى الأربع ـ انقهار النفس بتسخير القوة العالية ـ اختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس ـ ائتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة ـ حقيقة الخير والسعادة ـ والجمع بين الأقوال المختلفة فيها ـ شرائط حصول السعادة ـ غاية ما يمكن الوصول إليه من السعادة ـ تقسيم اللذات والآلام ـ اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية ـ ايقاظ فيه موعظة ونصيحة ـ التنبيه على أن الفائت لا يتدارك.

فصل

(انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الإنسان منقسم إلى سر وعلن، وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات، وآلام ولذات، ومهلكات ومنجيات.

ومنافيات البدن وآلامه هي الأمراض الجسمانية. وملائماته هي الصحة واللذات الجسمانية. والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الأمراض ومعالجاتها هو علم الطب. ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الأخلاق التي تهلكه وتشقيه، وصحته رجوعه إلى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه. والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق).

ثم ان البدن مادي فانٍ، والروح مجرد باقٍ، فان اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبداً، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلداً، ولابد لنا من الاشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعي في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية.

فصل

(في تجرد النفس وبقائها)

لاريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن. أما الأول (والمراد به عدم كونها جسماً وجسمانية) فيدل عليه وجوه:

(ومنها) ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون أن تزول الأولى بورود الأخرى، بل كلما قبلت صورة ازدادت قوتها على قبول الأخرى، ولذلك تزيد القوة على ادراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر، فثبت عدم كونها جسماً.

و(منها) ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بأن يصير طويلا عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بأن يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك، وأيضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء.

و(منها) ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الامور الإلهية والمعارف الحقيقية، ولا تميل إلى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية، بل تحن أبداً إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما، إذ لا ريب في أن ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شواتب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية، وبالمناجاة والعبادة والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدناً فكأنها منخلعة عنه، فهذا يدل

على أنها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة.

و(منها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلاً لها، ولا ريب في ان المادي لا يكون محلا للمجرد إذ كل مادي ذو وضع قابل للإنقسام، وكون المحل ذا وضع قابل للإنقسام يستلزم أن يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله، والمجرد لا يمكن أن يكون كذلك وإلا خرج عن حقيقته، فالنفس لا تكون مادية وإذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة.

و(منها) ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة إذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني وضروري. والنفس قد تدرك ما لا طريق لشيء من الحواس إلى إدراكه كالأمور المجردة والمعاني البسيطة الكلية، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات، والضرورة العقلية قاضية بأنه لا مدخلية لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك.

وأيضاً تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادىء حسية إذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً، فمثله مأخوذ من المبادىء الشريفة العالية التي تبني عليها القياسات الصحيحة.

وأيضاً هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخِّطئه في أفعاله وتردّ عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس، وفيما يراه مستديراً وهو مربع، أو مكسوراً وهو صحيح، أو معوجاً وهو مستقيم، أو منكوساً وهو منتصب، أو مختلفاً في وضعه الواقعي، وفي رؤيته للأشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى، وللذوق في ادراكه الحلو مراً ومثله، كذا الحال في الشم واللمس، ولا ريب في أن تخطئة النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع إنما يكون مسبوقاً بالعلم الذي لا يكون مأخوذاً من الحس، لأن الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط الحكم مأخوذاً عنه.

ومما يؤكد ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها. ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادىء أخر.

و(منها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان في أفعالهما وآثارهما، والنفس تقوى في ادراكاتها وصفاتها، كما في سن الكهولة، أو يكونان قويين في الأفعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب، فلو كانت جسماً أو جسمانياً لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة.

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافي ذلك.

(قلنا) الضعف أو الاختلال إنما يحدث في الإدراك والأفعال المتعلقة بالقوى الجسمية، وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها فلا يحصل فيه اختلال وضعف، بل يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى.

وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لا يتطرق إليه الفساد لأنه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره، ووجهه ظاهر.

فصل

(في بيان تلذذ النفس وتألمها)

إذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبداً، فاعلم أنها ملتذة متنعمة دائماً أو معذبة متألمة كذلك. والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها، ولما كانت لها قوتان: النظرية والعملية، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بادراك كلياتها. والترقي منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان. وهذا الكمال هو الحكمة النظرية.

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقي منه إلى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه. وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها.

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة، فلا يتم أحدهما بدون الآخر، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود.

فصل

(في فضائل الأخلاق ورذائلها)

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة إلى السعادة الأبدية، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات. والوصول إلى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات، فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي

هي الأوساط١[١] المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف، ولو

قصّر أدركته الهلاكة الأبدية، إذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى الدنيا سوياً سميعاً بصيراً ناطقاً كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى عالم الأخرة كذلك.

" ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً "٢[٢].

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية، كما ان المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة، والثوب ما لم ينُقّ عن الأوساخ لم يقبل لوناً من الألوان، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء، وطلب الرياسة

والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع اهمال البواطن.

ومثلُ من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش٣[٣] ظاهرها جص وبا

نتن، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت، فان الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة، أو كمريض به جرب وقد أمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن.

ثم إذا تخلت عن مساوىء الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العلمي استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هي عليها، على سبيل الكلية أي بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث

الجزئية، لعدم تناهيها، وان علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها، وحينئذ يصير٤[٤]

موجوداً تاماً أبدي الوجود سرمدي البقاء، فائزاً بالرتبة العليا، والسعادة القصوى، قابلا للخلافة الإلهية والرئاسة المعنوية، فيصل إلى اللذات الحقيقية، والإبتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الأعيان، ولم تتصورها عوالي الإذهان.

فصل

(الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية، والنفحات القدسية إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحاً، كيف والقلوب كالأواني فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه، وإلى ذلك أشار النبي (ص) بقوله: **"لولا ان الشياطين يحرمون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت**

السماوات والأرض" فبقدر ما تتطهر القلوب هن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول[٥] [redacted]

فيها حقائقه كما أشار إليه (ص): **"ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها"** فان التعرض

لها إنما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية٦[٦] فكل اقبال على طاع

واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني، ولذا قال سبحانه:

"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"٧[٧].

وقال النبي (ص): **"من عمل بما علم ورثه الله ما لم يعلم"** فالقلب إذ صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والإفاضات الرحمانية ما لا يمكن لاعاظم العلماء كما قال سيد الرسل: **"إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل"**.

وكل سالك إلى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدّق بوجودهما ولا نعرف حقيقتهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء.

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك، بل الإحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك.

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والإنجاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية، وهو المراد بقوله عليه السلام: **"إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء"** وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **"ان من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه"** (إلى أن قال): **"قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع**

غماره٨[٨]، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء

الشمس" وفي كلام آخر له عليه السلام "قد أحيى قلبه وأمات نفسه حتى دُقَّ جليله٩[٩] ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب

السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه".

وقال عليه السلام في وصف الراسخين من العلماء: **"هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى"**.

وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات، كيف وفيضان أنوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب"** فإذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشرك، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **"بني الدين على النظافة"** يتناول زوال النجاستين، وما ورد من **"أن الطهور نصف الأيمان"** المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات.

وبما ذكر ظهر ان العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية، من دون تصقيل لجوهر النفس، لا يخلو عن الكدرة والظلمة، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقة اليقين في معرفة الله

سبحانه خلاف الواقع، لأن اليقين الحقيقي يلزمه ((روح)) ١٠[١٠] ونور وبهجة وسرور، وعد

الإلتفات إلى ما سوى الله، والاستغراق في أبحر عظمة الله، وليس شيء من ذلك حاصلا لهم، فما ظنوه يقيناً إما تصديق مشوب بالشبهة، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات.

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه، فكلما تزداد النفس تجرداً تزداد ايماناً ويقيناً، ولا ريب في أنه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه:

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "[١١][١١].

العمل نفس الجزاء
تأثير المزاج على الأخلاق
تأثير التربية على الأخلاق
شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته

فصل

(ان العمل نفس الجزاء)

كل نفس في بدء الخلقه خالية عن الملكات بأسرها، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الأفاعيل والأثار الخاصة به[1] [١] بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده في الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لأن الدنيا دار التجدد والزوال، ولكنه يحصل منه أثر في النفس، فإذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة، مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة أولا وإذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادئ للآثار المختصة بها، فالنفوس الإنسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لأضدادها، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها.

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار، وان كانت ردية كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار، وإنما الخلاف في كيفية ايجابها للثواب أو العذاب، فمن قال ان الجزاء مغاير

---

[1] [1] هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والأصح ((بها)) وإن كانت الكلمة غير موجودة في نسخة خطية اخرى.

للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة.

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال: ان الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها، إذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة، فان العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النوم يظهر بصورة اللبن فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء، ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم ما يسوءك في عالم آخر، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم.

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الاعمال. واسم الشيطان إن كانت من أضدادها وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالها، وعلى الثانية اسم الحيّات والعقارب وأشباههما، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى، وانما الاختلاف في الاسم.

وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرّحة أو صورة موحشة معذبة، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة: منها ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: يا قيس **"إن مع العز ذلاً، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً، وإن لكل أجل كتاباً، وانه لابد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فان كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً ألأمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فانه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك "**. ومنها: ما استفاض من قولهم عليهم السلام: **" ان من فعل كذا خلق الله تعالى ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة "**. ومنها: ما ورد **" ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله "**. ومنها ما روي **" ان الكافر خلق من ذنب المؤمن"**. ومنها قولهم **" المرء مرهون بعمله "**. ومنها قوله صلى الله عليه

وآله وسلم: **" الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجري في بطنه نار جهنم"**. ويدل عليه قوله سبحانه.

" وإن جهنم لمحيطة بالكافرين "٢**[٢]**

وربما كان في قوله تعالى:

" ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون "٣**[٣]** وقوله تعالى: **" إنما تجزون ما كنتم تعملون "**٤**[٤]**.

اشارة إليه حيث قال عز وجل **"ما كنتم"** ولم يقل بما كنتم.

وقال فيثاغورس الحكيم: " ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك٥**[٥]** وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية، فان كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدى به في أخراك إلى جوار الله وكرامته" انتهى.

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الأشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيّات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصورة روحانية وجودها وجود إدراكي، والإنسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته إلى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة. فوقع بصره على وجه ذاته والتفت إلى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه:

---

٢ [2] التوبة الآية: ٤٩.

٣ [3] يس الآية: ٥٤.

٤ [4] الطور الآية: ١٦.

٥ [5] هكذا وجدنا العبارة في النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال.

" وإذا الصحف نشرت "٦[٦]. وقوله تعالى: **" فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد "٧[٧]**. صار ادراكه فعلاً وعلمه عيناً وسره عياناً، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله، ويرى نتائج انظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته، ويدرك حقيقة قوله سبحانه:

" وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً "٨[٨].

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعاً لساعات يومه وأمسه يقول:

" ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً "٩[٩].

" يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً "١٠[١٠].

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر موجبة للبهجة والالتذاذ والتوحش والتألم، بأنه لو لم تكن تلك الملكات والنيات باقية أبداً لم يكن للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح، إذ لو كان المقتضى للثواب أو للعذاب نفس العمل والقول، وهما زائلان لزم بقاء

---

٦ [6] التكوير الآية: ١٠.

٧ [7] ق الآية: ٢٢.

٨ [8] الاسراء الآية: ١٣ ــ ١٤.

٩ [9] الكهف الآية: ٤٩.

١٠ [10] آل عمران الآية: ٣٠.

المسبب مع زوال السبب وهو باطل، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير، فإذاً منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات. ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً كما قال سبحانه:

" في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ بأيدي سفرةٍ "١١[١١].

والسر فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس إلى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف.

ثم الظاهر ان هذا المذهب ـ عند من قال به من أهل الشرائع ـ بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين " إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد في الشريعة المقدسة من امور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين،

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان، وكل ما يقرب العبد إلى احداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد إلى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور، وبالعكس، فأسوأ الناس حالاً من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل إليه من فائدته، كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا، ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة إلى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل، ولا جزاء فعل، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون من الخير الدائم، واللذات المخالفة لهذه اللذات

---

١١ [11] عبس الآية: ١٣ – ١٥.

الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم، فإذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلاً:

" يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله "١٢[١٢].

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة.

فصل

(تأثير المزاج على الأخلاق)

للمزاج مدخلية تامة في الصفات: فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق، وبعضها مقتض لخلافه، فانا نقطع بأن بعض الأشخاص بحسب جبلته، ولو خلى عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب، ويضحك بأدنى تعجب، وبعضهم بخلاف ذلك.

وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الإنسان كامل العقل، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة، كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام. وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردي الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة، كما في بعض الناس.

إلا أن الحق ـ كما يأتي ـ امكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق، فيجب السعي في إزالة نقائضها وتحصيل فضائلها. وعجباً لأقوام يبالغون في اعادة الصحة الجسمانية الفانية، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية، يطيعون قول الطبيب المجوسي في شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة، لأجل صحة زائلة، ولا يطيعون أمر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة.

---

١٢ [12] الزمر الآية: ٥٦.

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها إلى طلب المقصود لملابسة العوائق والموانع، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبه، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة، أو لضعف القوة العاقلة، فان لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله، إلى ان تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية، نعوذ بالله من ذلك، وإن أدركته الرحمة الأزلية، فيصرف همه في ازالة النقائص، واكتساب الفضائل، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال إلى فوقها، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال، ويتشرف بجوار الرب المتعال ويصل إلى السرور الحقيقي، الذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وإلى قرة الأعين التي يشير إليها في قوله سبحانه:

"فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعينٍ"١٣[١٣].

فصل

(تأثير التربية على الأخلاق)

الخلق عبارة عن "ملكة للنفس مقضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية"١٤[١٤]. والملكة: كيفية نفسانية بطيئة الزوال. وبالقيد الأخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر، أو العادة بأن يفعل فعلاً بالروية، أو التكلف ويصبر عليه إلى أن يصير ملكة له ويصدر عنه بسهولة وان كال مخالفاً لمقتضى المزاج.

واختلف الأوائل في امكان ازالة الأخلاق وعدمه، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله. ورجح المتأخرون الأول وقالوا: ليس شيء من الأخلاق طبيعياً ولا مخالفاً للطبيعة. بل النفس بالنظر إلى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من

---

١٣ [13] السجدة الآية: ١٧.

١٤ [14] ما بين القوسين في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.

طرفي التضاد، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج، أو بعسر إن كان مخالفاً له، فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لأسباب خارجة.

(حجة القول الأول) أن كل خُلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعياً فينتج لا شيء من الخُلق بطبيعي والكبرى بديهية، والصغرى وجدانية، فانا نجد أن الشرير يصير بمصاحبته الخيّر خيراً، والخيّر بمجالسة الشرير شريراً. ونرى أن التأديب " في السياسات١٥[١٥] " فيه أثر عظيم في زوال الأخلاق، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرايع والديانات، ولما قال الله سبحانه: **" قد أفلح من زكاها "**١٦[١٦]. ولما قال النبي صلى الله عليه وآله: **" حسنوا أخلاقكم "** ولما قال: **"بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"**.

وردّ: بمنع كلية الصغرى فانا نشاهد أن بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية، كالحدس والتحفظ، وجودة الذهن، وحسن التعقل، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة، فانه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة.

وما قيل: من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود: بأن هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الأخلاق قابلا للتغيير، وأما مع قبول بعضها أو أكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق التغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب، مع انا نعلم بديهة أن بعض الأمراض لا يقبل العلاج.

(وحجة القول الثاني) ان الأخلاق بأسرها تابعة للمزاج، والمزاج لا يتبدل، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنه لا ينافي ذلك، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج، وأيّد ذلك بقوله صلى الله عليه وآله:

---

١٥ [15] ما بين القوسين في الموضعين غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.

١٦ [16] الشمس الآية: ٩.

" الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم الاسلام " وبقوله صلى الله عليه وآله: **" إذا سمعتم أن جبلا زال عن مكانه فصدقوه، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه، فانه سيعود إلى ما جُبِل عليه "**

و (الجواب) ان توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها، لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الإنسانية متفقة في الحقيقة، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولائي. ثم ما يحصل لها منهما أما من مقتضيات الاختيار والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية للأربعة والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه. والثاني مع عدم ثبوته عندنا يدل على خلاف مطلوبهم، لأن قوله: "سيعود إلى ما جبل عليه" يفيد امكان ازالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب، فلو دام على حفظ الأسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا.

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة إلى الأكثر التبديل للحس والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولا مكان تغير خلق البهائم، إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى الانس والفرس من الجماح إلى الانقياد والكلب من الهراشة إلى التأدب، فكيف لا يمكن في حق الإنسان، وعدم قبول بعضها بالنسبة إلى البعض له، للمشاهدة والتجربة، وهذا البعض مما لايكون التعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها. والتصفح يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة، ولهذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة. ويشير إلى ذلك قوله (ص): **" اعملوا فكل ميسر لما خلق له "**.

وقال ارسطاطاليس: "يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب إلا أن هذا ليس كلياً. فانه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلاً ".

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلاً واماطتهما بالكلية فان ذلك محال لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط إلى الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور والاتصاف بحس الحمية، وهو أن يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلاُ، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك. وكذا الحال في صفة الشهوة.

ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال إلى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية، لوجود قوة النخلية فيه، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد، فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة، لوجود قوة التعديل فيهما، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية، كما لا يمكن لنا اعدام شيء من الموجودات ولا ايجاد شيء من المعدومات.

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأخلاق، ولذا نرى أن التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب، فيمكن أن لا يرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب، ويرتفع بمرتبة منه فوقها، والأسهل قبولا لكل خلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل، وارتكاب الفضائل، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهي، والثاني أولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحقة، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً.

فصل

(شرف علم الأخلاق بشرف موضوعه وغايته)

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للإنسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة، تعرف انها أشرف العلوم وأنفعها لأن شرف كل علم إنما بشرف موضوعه أو غايته، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان واصلاحه على جلود البهائم، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان ولبّه، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية، وغايته اكمال وإيصاله من أول افق الإنسان إلى آخره، ولكونه ذا عرض عريض متصلاً، أوله بأفق البهائم، وآخره بأفق الملائكة لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي بين أشخاص هذا النوع في أفراد سائر الأنواع، فان فيه أخس الموجودات ومنه أشرف الكائنات كما قيل:

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت　　　لدى المجد حتى عد الف بواحد

وبالفارسية:

أي نقد أصل وفرع ندانم چه گوهري　　　كز آسمان بلندتر واز خاك كمتري

وإلى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل (ص): **" إني وزنتُ بأمتي فرجحت بهم "**، ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها.

وهذا العلم هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتبهما، وبه تتم الإنسانية ويعرج من حضيض البهيمية إلى ذرى الرتب الملكية، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات إلى أشرفها، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه، ويسمونه بالإكسير الأعظم، وكان أول تعاليمهم، ويبالغون في تدوينه وتعليمه، والبحث عن اجماله وتفصيله، ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم.

وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شراً، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً. ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالا من العوام مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام، إما لشدة حرصهم على جمع المال، غافلين عن حقيقة المآل، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب، ظناً منهم انه ترويج للدين والمذهب، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة

لكثرة الشك والشبهة، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أندية الرجال، اظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال أو لاطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعاظم الحكماء، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة، ظناً منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال. ولم يتفطنوا قول نبيهم (ص): **" قصم ظهري رجلان، عالم متهتك، وجاهل متنسك "** ولم يتذكروا قوله (ص): **" البلاهة أدنى إلى الاخلاص من فطانة بترآء "**، وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الأمتثال لقوله سبحانه:

" وأتوا البيوت من أبوابها "١٧[١٧].

---

١٧ [17] البقرة الآية: ١٢٩.

النفس وأسماؤها وقواها الأربع
ائتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة
الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها
لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً
غاية السعادة التشبيه بالمبدأ
بازاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم
ايقاظ فيه موعظة ونصيحة

فصل

(النفس وأسماؤها وقواها الأربع)

ما عرفت من تجرد النفس إنما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا إلى الجسم والآلة، فحدها: أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته، وهو حقيقة الإنسان وذاته، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات، فيسمى (روحاً) لتوقف حياة البدن عليه و(عقلا) لادراكه المعقولات و(قلباً) لتقلبه في الخواطر، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن.

وله قوى أربع: قوة عقلية ملكية، وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية. و(الأولى) شأنها إدراك حقائق الأمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة. و(الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بأنواع الأذى. و(الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن، والحرص على الجماع والأكل. و(الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع.

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية، ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات. واصرارهما عليهما، لأنهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة.

ولذ قال أفلاطون في صفة السبعية والبهيمية: " أما هذه أي السبعية فهي بنمزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع " وقال أيضاً: " ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلا، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة، والحمية حتى يقهرهما " فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله، فان سبل الخيرات مفتوحة، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة.

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "[١][١].

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة.

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى للثلاث الأول، وشأن الأولى ادراك المعاني الجزئية، وشأن الثانية إدراك الصور، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع، أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الأمر أيضاً، وإما من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضية الغضب والشهوة، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالاً، وإن كان وجودها على الثاني شراً وفساداً. والحال في جميع القوى كذلك.

هذا وقيل: ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء، اشارة إلى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية.

والحق أنها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت "مطمئنة"،

---

١ [1] العنكبوت الآية: ٦٩.

لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي، وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت "لوامة" لأنه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنما هي الآمرة بالسوء.

ثم مثل اجتماع هذه القوى في الإنسان كمثل اجتماع ملك، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربوط واحد، وكان بينها منازعة، وأيها صار غالباً كان الحكم له، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته فكان إهاب الإنسان وعاء اجتمع فيه هذه الأربع، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة، والكلب هو القوة الغضبية، فان الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية أعني الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح، والقوة الغضبية موجبة لذلك، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة، وان اطلق عليه اسم الإنسان مجازاً، والخنزير هو القوة الشهوية، والشيطان هو القوة الوهمية، والتقريب فيهما كما ذكر، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب احداها، فالغضبية تدعوه إلى الظلم والإيذاء، والعداوة والبغضاء، والبهيمية تدعوه إلى المنكر والفواحش، والحرص على المآكل والمناكح، والشيطانية تهيّج غضب السبعية وشهوة البهيمية، وتزيد٢[٢] فعلهما، وتغري احداهما بالأخرى والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة، ونورانيته الباهرة، فان غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا باشارته جرى الكل على المنهج الوسط، وظهر العدل في مملكة البدن، وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء، والخنزير في المنكر والفحشاء، والشيطان في استنباط الحيل، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع، ليرضي الكلب ويشبع الخنزير، فلا يزال في عبادة كلب عقور أو خنزير هلوع أو

---

٢ [2] وفي نسختنا الخطية هكذا "تزين".

شيطان عنود، فتدركه الهلاكة الأبدية، والشقاوة السرمدية، أن لم تغثه العناية الإلهية، والرحمة الأزلية.

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الإنسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق، فالراكب هو العقل، والبهيمة هي الشهوة، والكلب هو الغضب، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد، واقتحامه في موارد الهلكات، وان كان الكل تحت نهي العين وأمره، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم إلى أيدي السارقين.

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل، وصار الجميع كالواحد لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلاً منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية، فتصلح النفس وقواها.

" قد أفلح من زكاها "٣[٣].

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى، ويتزايد ذلك إلى أن يؤدي إلى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها،

" وقد خاب من دساها "٤[٤].

(تتميم) لما تبين أن للنفس اربع قوى متخالفة، ولها قوى أخر أيضاًً كما تبين في العلم الطبيعي. فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم، والاختلاف في النفوس

---

٣ [3] الشمس الآية: ٩.

٤ [4] الشمس الآية: ١٠.

إنما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة. إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات، وليس لها فعلية، بل هي محض القوة، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق، وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوم بها، وتصل إلى ما خلقت لأجله.

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب احداها لم تدخل النفس في عالمه٥[٥] الذي يخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة إلى أن يغلب إحداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة, والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من أفق السباع، والشهوية من عالم البهائم، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه وآثاره، وانتظمت أحوالها، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويحتل معاشها ومعادها.

ثم المنشأ للتنازع والتجاذب والبقاء في نفس الإنسانية إنما هو قوتها العقلية لأن التدافع إنما بينها وبين سائر القوى، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وإن اختلفت في غلبة ما فيها من القوى، فان الغلبة في الشياطين للواهمة، وفي السباع للغضب، وفي البهائم للشهوة، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع. فالجامع لعوالم الكل هو الإنسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية، وقابلاً للخلافة الربانية، وقائماً بعمارة عالمي الصورة والمعنى.

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية، وتوابعها من اللذات العقلية، إلا أنه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها. والأجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة، والكيفيات المتباينة، وليس لها سير في المدارج المتخالفة، والمراتب المتفاوتة، ولا تقلب في أطوار النقص والكمال، ولا تحول في جميع

---

٥ [5] في نسختنا الخطية هكذا " في علله التي تخصها ".

التقاليب والأحوال، بخلاف الإنسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية، وله الترقي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت، والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق قال أمير المؤمنين (ع): **"إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب، وخص الحيوانات بهما دونه وشرف الإنسان باعطاء الجميع فان اتقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم ".**

فصل

ائتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة

قد ظهر بما ذكر أن الإنسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام، فالبجزء الجسماني أقيم في هذه العالم الحسي مدة قصيرة، وبالجزء الروحاني ينتقل إلى العالم العلوي، ويقيم فيه أبداً في مصاحبة الأرواح القدسية، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني، وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات. وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة، ويستنير بالنور الإلهي ويزيد ذلك بحسب رفع العلائق الجسمية، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها، وازيلت عنه استار العوائق الهيولانية برمتها، خلى عن جميع الآلام والحسرات، وكان أبداً مسروراً بذاته، مغتبطاً بحاله، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأول، ولا يسر إلا بتلك اللذات، ولا يغتبط إلا بها، ولا يهش إلا باظهار الحكمة الحقة بين أهلها، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالاً وكلاً عليه إلا ما هو ضروري يحتاج إليه بدنه الذي يفتقر إليه في تحصيل كماله، ويحن أبداً إلى مصاحبة الذوات النورية، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه، ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة، ولا

يلتفت إلى شيء يعوقه عن سعادته، ولا يحزن على فقد محبوب، ولا فوت مطلوب وإذا صفى من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية، والخواطر الشيطانية بأسرها، وفنى عنه إرادته المتعلقة بالأمور. وحينئذ يمتلي من المعارف الإلهية، والشوق الإلهي والبهجة الإلهية، والشعار الإلهي، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه بل يكون علمه بها أشد إشراقاً وظهوراً من علمه بها. وإذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول إلى المرتبة القصوى، ومجاورة الملأ الأعلى، فيصل إلى ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويفوز بما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله:

" فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين "٦[٦].

فصل

(الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها)

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة. والسلف من الحكماء قالوا: إن (الخير) على قسمين مطلق ومضاف، والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات، والمضاف ما يتوصل به إلى المطلق. و(السعادة) هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية إلى كماله الكامن في جبلته وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص، والسعادة تختلف بالقياس اليهم.

ثم الظاهر من كلام أرسطا طاليس أن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معداً لتحصيلها كالتعلم والصحة، أو نافعاً فيه كالمكنة والثروة.

وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة إلى النفوس فقط، وقالوا ليس للبدن فيها حظ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الإنسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها، فلا يكون ما يعد كمالاً له سعادة للانسان. وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة إلى

---

٦ [6] السجدة الآية: ١٧.

الشخص حيث التركيب، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار، وكثرة الأعوان والأنصار، والبخت المسعود، وغير ذلك مما لا يرجع إلى النفس، ولذا قسموا السعادة إلى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج وإلى ما يتوصل به إلى إفشاء العوارف ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان، وإلى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة، وإلى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل، وإلى ما يرجع إلى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية. وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة، وبقدر النقصان فيها تنقص. قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب، والاشراقات العلمية، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر.

ثم الأقدمون لذهابهم إلى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن، وملوثة بالكدورات الطبيعية، والشواغل المادية، بل حصولها موقوف عنها، لأن السعادة المطلقة لا تحصل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية، ومضيئة بالأنوار الإلهية، بحيث يطلق عليها اسم العقل التام، وذلك موقوف على تخليصها التام عن الظلمة الهيولانية، والقصورات المادية.

وأما المعلم الأول واتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها، واشتغل بتكميل غيره. وما أقبح: أن يقال مثله ناقص وإذا مات يصير تاماً، فالسعادة لها مراتب، ويحصل للنفس الترقي في مدارجها بالمجاهدة إلى أن تصل إلى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة، وتكون باقية بعدها أيضاً،

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الإسلام قالوا ان السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن، وأدناها أن تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل، إلا أن الشوق إلى الثانية، والحرص على اكتسابها يكون أغلب، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر، إلا أنه قد يقع الالتفات إلى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض.

وأما في الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لا ستغنائهم عن الامور البدنية، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة، والعلوم الحقة اليقينية، والوصول إلى مشاهدة جمال الأبد، ومعاينة جلال السرمد. وقالوا إن الأولى لشوبها بالزخارف الحسية، والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالأنوار الإلهية، مستضيئاً بالأضواء العقلية، مستهتراً٧[٧] بذكر الله وانسه مستغرقاً في بحر عظمته وقدسه، وليس له التفات إلى ما سوى ذلك، ولا يتصور له تحسر على فقد لذة أو محبوب، ولا شوق إلى طلب شيء مرغوب، ولا رغبة إلى أمر من الأمور، ولا رهبة من وقوع محذور، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلي مقصوراً همه على الامور الإلهية من دون التفات إلى غيرها.

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الأول من حيث اثبات سعادة للبدن ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن. وهو (الحق المختار) عندنا، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة إلى العادة المطلقة سعادة اضافية. ومعلوم أن غرض القائل بكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة انها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية والحطام الدنيوي سعادة، ولو جعلت وسيلة إلى اكتساب سخط الله وعقابه وحاجبة عن الوصول إلى دار كرامته وثوابه. وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافاً تاماً، ولا تصل إلى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية. ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف.

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحقة، والأخلاق الطيبة، والأمر وإن كان كذلك من حيث ان حقيقتهما ما يكون مطلوباً لذاته، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك، إلا انه لا ريب في ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه، والابتهاجات العقلائية، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الإعتبار، وان لم ينفك عنهما ومطلوبيته لذاته أشد وأقوى،

---

٧ [7] مستهتراً به على بناء اسم المفعول أي مولع به.

فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى وإن كان الجميع خيراً وسعادة. وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال، وأصحاب الكشف والحال، وإخوان الظاهر من أهل المقال، حيث ذهبت (الفرقة الأولى) إلى أن حقيقة السعادة هو العقل والعلم، و(الثانية) إلى انها العشق، و(الثالثة) إلى أنها الزهد، وترك الدنيا.

فصل

(لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً)

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض، ووقتاً دون وقت. كما ان الصحة الجسمية، وتدبير المنزل، وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والأزمان، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن، ولا شكره بورود النوائب والمحن، ولا يقينه بكثرة الشبهات، ولا رضاه بأعظم النكبات، ولا احسانه بالاساءة، ولا صداقته بالعداوة. وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله، ولو ورد عليه ما ورد على أيوب النبي (ع) أو على برناس الحكيم، لشهامة ذاته، ورسوخ أخلاقه وصفاته. وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة، بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها. أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الأقتدار على التصرف في مواد الكائنات، ولو في الافلاك وما فيها، كما حصل لفخر الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر ورد الشمس.

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية، ويضطرب من الكدورات الطبيعية، ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعداء وترحم الأحباء، خارج عن زمرة السعداء، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته، وعدم نيله بعد إلى الابتهاجات التي تدفع عن النفس أمثال ذلك.

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان في الباطن متألماً مضطرباً، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهراً وباطناً. بلغنا الله وجميع الطالبين إلى هذا المقام الشريف.

فصل

(غاية السعادة التشبه بالمبدأ)

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الإنسان في صفاته بالمبدأ: بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً، لا لغرض آخر من جلب منفعة، أو دفع مضرة، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيراً محضاً، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية، والأقذار الحيوانية، ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية والخواطر النفسانية، ويمتلئ من الأنوار الإلهية، والمعارف الحقيقية، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية، ويصير عقلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية، بل يصير ظهورها أشد، وانكشافها أتم، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه، في صدور الأفعال وتصير إلهية أي شبيهة بأفعال الله سبحانه في أن لصرافة حسنه يقتضي الحسن، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي، فتكون ذاته غاية فعله، وفعله غرضه بعينه، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فانما يصدر لأجل ذاته وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض. قالوا وإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية، واللذة الحقيقية الذاتية، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم انها لذة ذاتية، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع ألم.

وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل.

فصل

(بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم)

لما عرفت أن القوى في الإنسان اربع: قوة نظرية عقلية، وقوة وهمية خيالية، وقوة سبعية غضبية، وقوة بهيمية شهوية ـ فاعلم انه بازاء كل واحدة منها لذة وألم، لأن اللذة ادراك الملائم، والألم ادرك غير الملائم، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لأجله، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه:

(فغريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الأمور، فلذتها في المعرفة والعلم، وألمها في الجهل، و(غريزة الغضب) لما خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها، و(غريزة الشهوة) لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن، فلذتها في نيل الغذاء، وألمها في عدم نيله، وهكذا في غيرها، فاللذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام: العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية.

فاللذة العقلية كالانبساط٨[٨] الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل، واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة، والألم الخيالي كاراك غير الملائمة منها. واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية. واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها. وهذه اللذات والآلام تصل إلى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلاً منها يصل إليها بواسطة القوة التي تتعلق بها. والفرق بين الكل ظاهر.

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل.

---

٨ [8] وفي النسخة المخطوطة عندنا " الابتهاج ".

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس، ففي هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية ثم تتاثر النفس.

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما إلى النفس من دون توسط القوة الغضبية.

ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا في الخارج، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما.

ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية، وتتضعف بضعفها إلى أن تنتفى بالمرة، ويظهر قبحها عند العقل، وأما العقلية فهي في البداية منتفية، لأن ادراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها، وتتزايد بتزايد القوة العقلية إلى أن ينتهي إلى أقصى المراتب، ولا يكون نقص ولا زوال.

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الإنسان وسعادته القصوى. والمتشرعون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها، وجعلوا الوصول إلى الأولى والخلاص عن الثانية غاية في زهدهم وعبادتهم وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأجراء والعبيد تركوا قليل المشتهيات ليصلوا إلى كثيرها. وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه! ولا أدري أن الباكي خوفاً من النار وشوقاً إلى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب إلى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية، ولا لذة

المعرفة بالله وحبه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين٩[٩] (ص) **" إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك ".**

وبالجملة لا ريب في أن الإنسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس والديدان والهمج من الحيوان، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة.

والعجب من هؤلاء الجماعة١٠[١٠] مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة اليه، ويذعنون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية، وقد اتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول.

والسر فيه أنهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة، وإن كانت ضعيفة، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالا، ويحكم بنورانيتها الذاتية، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة، فيضطرهم إلى إكرام أهل التنزه عن الشهوات، والاستهانة بالمكبين عليها.

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع، مع أن الجميل على الاطلاق يحسن إذاعته، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به، هذا مع أن البديهة

---

٩ [9] المعنى به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام.

١٠ [10] المراد هم الذين حصروا اللذات في الحسية والكلام كله في هذا الرأي.

حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية، بل هي دفع آلام حادثة للبدن[11] فان ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المني ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالاً وخيراً، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالاً وخيراُ أبداً.

ايقاظ

(فيه موعظة ونصيحة)

لما عرفت أن الإنسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية، يشارك السباع والبهائم والشياطين ـ فاعلم أن من غلبت عليه إحدا اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب إليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو.

فانظر يا حبيبي أين تضع نفسك، فان الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك إلى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية، كنت واحداً من البهائم. وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جل ميلك إلى المناصب والرياسات الردية، وايذاء الناس بالضرب والشتم، وباقي الحركات السبعية، نزلت منزلة السباع، وإن كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول إلى مقتضيات قوتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة. وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدك

---

[11] [11] الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الاشباع، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لإشباع غريزة حب الاستطلاع، إلا أن طلب العلم لايصل إلى حد الإشباع أبداً، ولذا قال (ص): " منهومان لا يشبعان طالب علم، وطالب مال " وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالهما فانها تصل إلى حد الإشباع فتكتفي.

مقصوراً على " أخذ "١٢[١٢] المعارف الإلهية واقتفاء١٣[١٣] الفضائل الخلقية عرجت إلى أفق الملائكة القادسة، فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جل همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه، وليقتصر على الأمور الشهوانية، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة، بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته ولا يكون قصده منه الالتذاذ، بل سد الضرورة ودفع الألم، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك، فان تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته، ولا يوجب مهانته وذلته، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة، ويدفع الحر والبرد، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي إلى حقارته، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه " ويبقى نسله، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوتي الشهوة والغضب، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية. فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان ادركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك وبادروا إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة، والعادات المفسدة، فان إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر، والغلبة على النفس الامارة بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال، إلا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة، فانه خير من التمادي في الباطل، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته.

١٢ [12] لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة.

١٣ [13] في نسختنا الخطية هكذا "واقتناء ".

ولقد قال الشيخ١٤[١٤] الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، وهو الاستاذ في علم الأخلاق، واقدم الاسلاميين في تدوينه: " إني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات، وجاهدت جهاداً عظيما حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأس أحد من رحمة الله، فان النجاة لكل طالب مرجوة، وأبواب الافاضة أبداً مفتوحة " فبادروا إخوانى إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤساً، والعقل مقهوراً، فيفسد جوهركم، وتمسخ حقيقتكم، ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن افق الإنسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها حتى تصير كلساً١٥[١٥] لا منفعة فيها.

---

١٤ [14] هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الأكبر " أبو علي أحمد بن محمد " بن يعقوب ابن مسكوبه الخازن "الرازي" الأصل والاصفهاني المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبي علي بن سينا، صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه وكان من خاصته إلى أن أتصل بصحبة "عضد الدولة" البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه ثم اختص بالوزير " ان العميد " وابنه " أبي الفتح " له مؤلفات كثيرة بعضها في الحكمة ومنه كتاب " الفوز الأكبر " وكتاب " الفوز الأصغر " " وجاويدان خرد " بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في التاريخ ومنه " تجارب الامم " وبعضها في الأخلاق ومنه كتاب " الطهارة " المشهور وهو الذي قصده " المصنف ره " هنا لأنه أول كتاب صنف في علم الأخلاق، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة " نصير الدين الطوسي " قدس سره بأبيات. وكان (ره) من علمائنا الإمامية قدس الله أسرارهم وقبره (باصفهان) على باب (درب جناد) وقد أشتهر ان السيد (الداماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا).

١٥ [15]الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها.

[تتميم] ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة معصية من المعاصي يمكن تداركه، فان ذلك محال، إذ غاية الامر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها, وتعيد النفس إلى ما كانت عليه قبل تلك المعصية، فلا تزداد بتلك الحسنة إشراقاً وسعادة، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته، وحصلت له درجة في الجنة، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب إلى ما كان عليه قبلها، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ومثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث، إلا أنه لا تزيد به جلاء وصفاء، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا، فان التصقيل يزيدها صفاء وجلاء، وإلى ماذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: **" من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً "**.

الباب الثاني في أقسام الأخلاق
أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة
العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري
العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل
دفع الاشكال في تقسيم الحكمة
تحقيق الوسط والأطراف

الباب الثاني

في بيان أقسام الأخلاق وتفصيل القول فيها

" وفيه فصول "

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة ـ حقيقة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري ولوازم الأقوال في العدالة ـ العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل ـ دفع اشكال في تقسيم الحكمة ـ تحقيق الوسط والأطراف ـ أجناس الرذائل وانواعها ـ الفرق بين الفضيلة والرذيلة ـ العدالة اشرف الفضائل ـ اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان ـ لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة ـ التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي.

فصل

(أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة)

قد تبين في العلم الطبيعي أن للنفس الناطقة قوتين: " أولاهما ": قوة الادراك و "ثانيتهما": قوة التحريك، ولكل منهما شعبتان: (الشعبة الأولى) للاولى العقل النظرى، وهو مبدأ التأثر عن المبادئ العالية بقبول الصور العلمية، و (الشعبة الثانية) لها العقل العملي، وهو مبدأ

تحريك البدن في الأعمال الجزئية بالروية١[١] وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبدأ "لحدوث"٢[٢] بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية. ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق وقبح الكذب، ونظائرهما. (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة، و (الشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم.

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال، وانتظمت أمور النشأة الإنسانية، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها، فتهذب كل واحد منها، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة، فيحصل، من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة، ومن تهذيب العاملة العدالة، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة. وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية.

(بطريق آخر)

قيل: إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية والغضبية، فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال، وكانت الثلاث الاخيرة مطيعة للاولى، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها، حصلت اولاً فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الاربع، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي

---

١ [1] إذا كان العقل العملي مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة ادراك وفي الحقيقة أن غرضهم من العقل العملي هو ادراك ما ينبغي ان يعمل.

٢ [2] وفي النسخة المخطوطة عندنا "الحصول".

كمال القوى الأربع وتمامها، وهي العدالة. وعلى هذا لا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية فقط، بل تكون كمالاً للقوى بأسرها:

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعاً: " الحكمة " وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه، والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا وأختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية. " والعفة " هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية، وتتخلص عن اسر عبودية الهوى. " والشجاعة " وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً، وصبرها محموداً. وتفسير هذه الفضائل الثلاث لايتفاوت بالنظر إلى الطريقين.

وأما " العدالة " فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته، أو سياسة قوتي الغضب والشهوة، وحملها على مقتضى الحكمة، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه. وإلى هذا يرجع تعريف الغزالي " إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة، ويحملهما على مقتضى الحكمة، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها " إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية.

وتفسيرها على الطريق الثاني هو ائتلاف جميع القوى، واتفاقها على امتثالها للعاقلة، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به. ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط.

اللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة.

ثم العدالة على الطرق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزمة للملكات الثلاث أعنى الحكمة والعفة والشجاعة، وعلى الثاني تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخلقي بمنزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة، وقد برهن في أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة.

وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى، بحيث كانت الجميع منقادة له، واستعمل كلا منها على ما يقتضيه رأيه، فان جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة، أو نفس تدبير التصرف في البدن وامور المنزل والبلد، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في إعداد الفضائل، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها، وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئاً على حدة ونوعاً مركباً.

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا انه على الطريق الأول تكون العدالة علة، والملكات الثلاث معلولة، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها.

تكملة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الاول المذكور في الطريق الأول، أعني انقياد العقل العملى للقوة العاقلة، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملى على قوتي الغضب والشهوة، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري، وأمثال ذلك، وعلى هذه التفاسير اللازمة للاول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فرداً لها.

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل، وسياسته إياهما، واستعلائه عليهما. وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها. فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة، بل عن العاقلة أيضاً إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها، إلا أن ذلك لايوجب كونها كمالاً له حتى يعد من فضائله، ووجهه ظاهر، ولا كون الظبط المذكور عدالة.

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه، والفضائل الصادرة عن القوى الاخرى بتوسط العقل العملي إنما تندرج تحت لازم العدالة، لاعينها، فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره إلى اعتبار ما يلزمها، ومن لم يدرجه تحتها نظره إلى عدم اعتباره. وعلى هذا لابأس بأن يقال إن للعدالة اطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم.

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع انواعاً، فكما ادرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضاً انواعاً كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها.

وأنت ـ بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتي الغضب والشهوة ـ تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضى استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها إليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى. وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة إليها. ومعلوم أنه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلا، إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية، أو بقوتي الغضب والشهوة بتوسط العاملة، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى. مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من

الفضائل إليها لزم أن تستند إليها جميع الفضائل، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة. وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر.

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص، فالفضائل التي جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من انواع الشجاعة أو لوازمها، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع. فنحن لا نتابع القوم، ونجرى على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملى، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغي من دون إدخال شيء منها تحت العدالة وضدها.

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال، إما متعلقة بمجرد احدى القوى الثلاث، أو باثنتين منها، أو بالثلاث. ومثال المتعلق باحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية وأما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث، فاما أن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب: فانه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم، كان من رذائل قوة الغضب. وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به إلى شهوة البطن والفرج، كان من رذائل قوة الشهوة، وكذا الحسد أعني تمنى زوال النعمة عن الغير: إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية. وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة إليه كان من رذائل القوة الشهوية. أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه، كالحسد الذي باعثه العداوة، وتوقع وصول النعمة إليه معاً، وكالغرور وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وتمييل النفس إليه بخدعة من الشيطان، فان النفس إن كانت مائلة بالطبع إلى شيء من مقتضيات الشهوة، واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوه، وان كانت مائلة إلى شيء من مقتضيات قوة الغضب. واعتقدت جهلا كونه خيراً

لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب، وإن كانت مائلة إلى شيء من مقتضياتهما معاً مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً.

ثم مرادنا من تعلق صفة القوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وايجادها، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في ايجاده وإحداثه، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور. فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثة، أي كانت باعثة لقوة اخرى على ايجاد هذه الصفة وإحداثها، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم يكن متعلقة بها، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لاحداثها وايجادها، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج، وان كان باعثه قوة الشهوة إلا انه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثه وايجاده، بل الاحداث إنما هو من القوة الغضبية، ومدخلية الشهوية انما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للاحداث والايجاد، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور اكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها " أو فضائلها "٣[٣]

وإذا عرفت ذلك فاعلم انا نذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منهما، ثم مايتعلق بالشهوية منهما ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث.

فصل

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل

اعلم أن كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من وجه، أما "الأول" فمن حيث إن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول اليه، وأما

---

٣ [3] لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

"الثاني" فمن حيث إن السعادة القصوى وغاية الغايات أعني التحلي بحقائق الموجودات مستندة اليه، وايضا ادراك ماهو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته.

وقيل إن ادراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملي، كما صرح به الشيخ في الشفاء بقوله: " إن كمال العقل العملي استنباط الآرء الكلية في الفضائل والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية ".

والحق ان مطلق الادراك والارشاد إنما هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح، والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضى لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة.

دفع الاشكال

في تقسيم الحكمة

ان قيل: إن القوم قسموا الحكمة أولاً إلى النظرية والعملية، ثم قسموا العملية إلى ثلاث أقسام: واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي احداها الحكمة، فيلزم أن تكون الحكمة قسما من نفسها.

قلنا: الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات، سواء كانت الموجودات إلهية أي واقعة بقدرة الباري سبحانه، أو موجودات انسانية أي واقعة بقدرتنا واختيارنا، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثاني، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق، فان غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعاً لمسألة هي جزؤها بان يجعل عنواناً فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة، أو طريق اكتسابها كذا.

وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة، ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه أيضا من الموجودات كما انه في العلم الأعلى الذي

يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءاً لنفسه. وايضاً نقول كما ان الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور.

وقيل: في الجواب إن المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصلح، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له. وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر، مع أن العدالة أيضاً إحدى الفضائل الأربع.

(تنبيه) قد صرح علماء الأخلاق بان صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها إلى الغير، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منافقاً ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصراً.

والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح، فان من تعدى أثره يرجى نفعه، ويخاف ضره، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع، أو دفعاً للضرر، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وان بلغ في الكمال مابلغ.

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لاريب في أنه بازاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها، ولما عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فاجناس الرذائل أيضاً في بادى النظر أربعة: الجهل، وهو ضد الحكمة، والجبن، هو ضد الشجاعة، والشره وهو ضد العفة، والجور، وهو ضد العدالة. وعند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حداً معيناً، والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدي إلى الرذيلة، فالفضائل بمنزلة

الأوساط، والرذائل بمثابة الأطراف، والوسط واحد معين لايقبل التعدد، والأطراف غير متناهية عدداً. فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط، فان المركز نقطة معينة، مع كونه ابعد النقاط من المحيط، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف اليه.

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية، لأن الوسط محدود معين، والأطراف غير محدودة، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل، ويكون كل منها اقرب إلى النهاية٤[٤]، ومجرد الانحراف عن الفضيلة من أي طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة. والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم، وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين، وهو لا يكون إلا واحداً، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير.

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب، لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال، وهذا معنى قول الحكماء " اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها، ولزوم الصوب٥[٥] بعد ذلك حتى لا يخطيها أعسر " ولذلك لما امر فخر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى:

" فاستقم كما امرت "٦[٦]

---

٤ [4] أي ان كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة إلى النهاية.

٥ [5] الصواب: يقال فلان مستقيم الصوب إذا لم يزغ عن قصده يميناً وشمالا.

٦ [6] هود الآية: ١١٢.

قال شيبتني سورة هود عليه السلام، إذ وجد ان الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل، والثبات عليه بعد الوجدان اشكل.

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة: " إن ماورد في اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر، وأحد من السيف اشارة إلى هذا المعنى " وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة، وهتك لأستار السنة الكريمة، والواجب الأذعان بظاهر ماورد من أمور الآخرة نعم يمكن أن يقال كما مر: إن الأمور الاخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به، إلا انها صور للاخلاق، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبى بحسب المرتبة، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت فمواد ما يؤذى ويريح من الصور في موطن المعاد انما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة. وهذا المذهب مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان، وذكرنا الظواهر الدالة علية من الآيات والأخبار، واشرنا إلى حقيقة الحال فيه. وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق، والجحيم صورة لأطرافها، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التي وعدها الله المتقين، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي احاطت بالكافرين.

ثم الوسط أما حقيقي وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذي انكر الاطباء وجوده، أو اضافي وهو اقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص إلى الحقيقي، ويتحقق به كمالهما " اللائق بحالهما "[٧][٧] وان لم يصل اليه، فالتسمية بالوسط انما هو بالنسبة إلى الأطراف التي هي أبعد من الحقيقي بالاضافة اليه، وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الاطباء، فان المراد منها

---

[٧] [7] غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

الاعتدالات التي يمكن تحققها للأنواع والأشخاص، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه، وان لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوي الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية إلى الحقيقي بالنسبة إلى سائر الاطراف سمى اضافياً.

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والاحوال والازمان، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافي فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أو وقت، ورذيلة بالنسبة إلى غيره.

وتوضيح الكلام انه لاريب في ان الوسط الحقيقي في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة " هي الوسط الحقيقي، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة "٨[٨] قريبة إليه ولا يمكن وجود الأقرب منها إليه له، يحكم بكونها وسطاً اضافياً لأقربيتها إليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الاضافي له عرض، وسطه الاعتدال الحقيقي، وطرفاه طرفا الافراط والتفريط، إلا انه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً اضافياً، وكلما كان اقرب إلى الحقيقي كان أكمل وأقوى، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة.

لا يقال: على هذا ينبغي أن يكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضا كذلك أي له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي حتى انه كلما قرب إلى الحقيقي صار الطبي اقوى واكمل مع انه ليس الأمر كذلك، إذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي، أو ضعفه لقربه إلى الحقيقي.

" بيان ذلك " ان الاعتدال الحقيقي في المزاج ان تكون اجزاء العناصر متكافئة القوة، والاعتدال الطبي في نوع الإنسان أو شخص من اشخاصه ان تكون الاجزاء الحارة مثلا من عشرة إلى اثنى عشرة، والباردة من ثمانية إلى تسعة، واليابسة من سبعة إلى ثمانية، والرطبه من ستة إلى سبعة، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة، والباردة خمسة، واليابسة

---

٨ [8] هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا الخطية.

اربعة، والرطبة ثلاث كانت خارجة عن الاعتدال الطبي، مع صيرورته اقرب إلى الحقيقي، بل إذا فرضت تكافؤ اجزاء العناصر الاربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضاًً عنه، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى انه كلما يصير إليه اقرب يكون اقوى واكمل.

لانا نقول نحن لا ندعى ان الحقيقي وسط الطبي بل هو امر مغاير له، والحقيقي في طرفه الخارج، فان له طرفين: " احدهما " ان تصير الاجزاء اقرب في التساوي مما كان للطبي إلى أن يبلغ إلى الحقيقي، " والثاني " أن يصير ابعد فيه مما كان له إلى غير النهاية، إلا ان بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل.

فان قيل: ان الوسط المعتبر هنا إن كان اضافياً، لكان له عرض كعرض المزاج، فلايناسب وصفه بالحدة والدقة، قلنا. كما في عرض المزاج مرتبة هي افضل المراتب واقربها إلى الاعتدال الحقيقي، كذلك في عرض الوسط للملكات مرتبة هي افضل المراتب واقربها إلى الحقيقي، وهي المطلوبة بالذات ولاريب في ان خصوص هذه ليس لها عرض واسعة، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة، واما سائر المراتب المعدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الافراط والتفريط، إلا انه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقياً على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل، كما ان غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال لكون النوع أو الشخص معه باقياً محفوظاً بحيث لا يظهر خلل بين في افعاله وان لم يخل عن الانحراف، ولو وصف هذه المراتب أيضاًً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه ان وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضاً من صعوبة.

أجناس الرذائل وأنواعها
الفرق بين الفضيلة والرذيلة

فصل

(اجناس الرذائل وانواعها)

قد ظهر مما ذكر انه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الافراط والتفريط، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها، لان وظيفته بيان الاصول والقوانين الكلية لا احصاء الاعداد الجزئية.

والقانون اللازم بيانه هو ان الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الافراط أو إلى طرف التفريط، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة ولما كانت اجناس الفضائل أربعة فتكون اجناس الرذائل ثمانية (أثنان) بازاء الحكمة " الجربزة والبله ": و(الاول) في طرف الافراط وهو استعمال الفكر في مالا ينبغي أو الزائد عما ينبغي و(الثاني) في طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها في ما ينبغي أو في اقل منه، والأولى ان يعبر عنهما (بالسفسطة) اي الحكمة المموهة، و(الجهل) اي البسيط منه، لان حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الاشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الافراط وإذا حصلت لها بلادة لاينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة " التهور والجبن ": (الاول) في طرف الافراط وهو الاقدام على ما ينبغي الحذر عنه، و(الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقدام عليه.

(واثنان) بازاء العفة وهما: " الشره والخمود " و(الاول) في طرف الافراط وهو الانهماك في اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلاُ، (والثاني) في طرف سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن و(اثنان) بازاء العدالة وهما: " الظلم والانظلام ": و(الاول) في طرف الافراط وهو

التصرف في حقوق الناس واموالهم بدون حق، (الثاني) في طرف تفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة، هكذا قيل.

والحق ان العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنهما من لازمها، لها طرف واحد يسمى جوراً وظلماً، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات، ولايختص بالتصرف في حقوق الناس واموالهم بدون جهة شرعية، لان العدالة بهذا المعنى ـ كما عرفت ـ عبارة عن ضبط العقل العملي جميع القوى تحت اشارة العقل النظري، فهو جامع للكمالات بأسرها، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها، إذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والافعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلماً، على ان من مكن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة، فقد ظلم نفسه والظلم على النفس أيضاًً من اقسام الظلم. هذا هو بيان الطرفين لكل من الاجناس الاربعة للفضيلة.

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الأخلاق والافعال ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم، وقد ذكروا للعدالة أيضاًً انواعاً وقد عرفت فيما تقدم ان تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه له، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث، اعني العاقلة والغضبية والشهوية، وإن كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقلة فقط، وبعضها بالقوة الغضبية فقط، وبعضها بالشهوية فقط، وبعضها بالاثنين منها أو الثلاث معاً، فنحن نذكر ذلك في مقامات اربعة.

ولمزيد الاحاطة نشير هنا اجمالا إلى اسماء الاجناس والانواع واللوازم التي لكل جنس، ونذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة، ثم مايتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها، ونذكر اولا الرذيلة، ثم نشير إلى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الاجناس والانواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة، ونذكر اولا جنسي الرذيلة لكل قوة، ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها، ثم نذكر الانواع والنتائج على

النحو المذكور، أي نذكر اولا الرذيلة باحكامها " ومعالجاتها "١[١]، ثم نشير إلى ضدها، وما ورد في مدحه ترغيباً للطالبين على اخذه والاجتناب عن ضده، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة.

ثم بيان الانواع واللوازم على ما ذكر اكثره القوم لايخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير، أو في الفرق والتمييز، أو في الادخال تحت ماجعلوه نوعاً له، أو غير ذلك من وجوه الاختلال، فنحن لانتبعهم في ذلك ونبينها ادخالا وتمييزاً وتعريفاً ما يقتضيه النظر الصحيح، فنقول:

اما جنسا الرذيلة للقوة العقلية، " فاولهما " (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الافراط، و" ثانيهما " (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة)، وأما الانواع واللوازم المترتبة عليهما، فمنها (الجهل المركب) وهو من باب رداءة الكيفية. ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ما قيل، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين. وبذلك يظهر ان اليقين ضد لكل منهما، لانه اعتقاد جازم مطابق للواقع، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضداً للحيرة، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل المركب، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الاستدلال، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن، أو حصول الخطأ في الاستدلال أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية، أو تقليد أو امثال ذلك، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته، أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب، أو عدم الاحاطة بمقدماته، ومنها (الشرك) وضده التوحيد. ومنها " الوساوس " النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية، وهذا أيضاًً من باب رداءة الكيفية، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة، إذ الغالب انها لاتنفك عن الاختلال فيهما، إلاّ أنك قد عرفت العذر في ذلك، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته. ومنها (استنباط المكر والحيلة) الموصول إلى مقتضيات الشهوة والغضب، وهو من طرف الافراط.

---

١ [1] هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية فقط.

واما جنسا الرذائل للقوة الغضبية، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة). وأما الانواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة، أو من الله وعظمته، والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الامن والطمأنينة، والممدوح من فضائلها لكونه مقتضى العقل وضده الأمن من مكر الله، وهو ـ اي الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء وضده اليأس. ومنها (صغر النفس) اي ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن، وضده كبر النفس اي ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان. ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الاهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (الثبات) فهو اخص من كبر النفس، وضده الاضطراب في الاهوال والشدائد. ومن جملة الثبات الثبات في الايمان، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الامور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم كبر النفس وشجاعتها، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الامور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها. ومن افراد علو الهمة الشهامة، ويأتي تفسيرها. ومنها (عدم الغيرة والحمية) اي الاهمال في محافظة ما يلزم حفظه، وهو أيضاًً من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر. ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب٢[٢] في القلب الباعث على الاقدام على الامر بأول خاطر من دون توقف فيه، وهو أيضاًً من نتائج صغر النفس وضعفها، وضدها الاناءة والتأني، و(التعسف) قريب من العجلة، وضده أعني (التوقف) قريب من الاناءة، ويأتي الفرق بينهما، (والوقار) يتناول التأني والتوقف، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والافعال في الابتداء (والاثناء)، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها. ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس، وربما كان من باب رداءة الكيفية، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس. ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط، وضده الحلم. منها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب، وضده العفو. ومنها (العنف) وهو

---

٢ [2] الراتب: عيش راتب: اي دائم ثابت.

أيضاً من نتائج الغضب، وضده الرفق. ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الاخص وهو أيضاً من نتائجه، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الاخص. ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة اي ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم، وهو أيضاً من ثمرات الغضب ومنها (العداوة) الظاهرة، وضده (النصيحة) اي ارادة الخير والصلاح ودفع الشر والفساد عن كل مسلم. ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن. ومنها (العجب) وهو استعظام النفس، وضده انكسارها واستحقارها٣[٣]. ومنها (الكبر) وهو التعظم الموجب لرؤية النفس فوق الغير، وضده (التواضع) وهو ان لايرى لنفسه مزية على الغير ومنها (الافتخار) وهو المباهات بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر. ومنها (البغي) وهو عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد وهو أيضا من شعب الكبر وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد إليه واطاعته، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة٤[٤] ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها. ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب إليه بالباطل والخروج عن الحق. ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق. ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع، وضده الرحمة.

واما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة)، واما الانواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا). ومنها (حب المال) وضدهما الزهد. ومنها (الغنى) وضده الفقر. ومنها (الحرص) وضده القناعة. ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس. ومنها (البخل) وضده السخاء، وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها. ومنها (طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص. ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة. ومنها (انواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وامثالها. ومنها

---

٣ [3] من كلمة (منها) إلى قوله و(استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى.

٤ [4] من كلمة (منها) إلى قوله و(الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى.

(الخوض في الباطل). ومنها (التكلم بما لايعني وبالفضول) وضدهما الترك والصمت، أو بالتكلم بما يعني بقدر الضرورة.

واما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث، أو باثنتين منها فمنها (الحسد) وضده النصيحة. ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الاذى والاكرام والتعظيم، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الاخص أو اعم منه، وضد الظلم بالمعنى الاخص العدالة بالمعنى الاخص. ومنها (إخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدهما إزالة الخوف والكرب عنه. ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم. ومنها (المداهنة) في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضده السعي فيهما. ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور. ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة. ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر اليهما. ومنها (تجسس العيوب) وضده الستر. ومنها (إفشاء السر) وضده الكتمان. ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح بينهم. ومنها (الشماتة بمسلم) ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام. ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما المزاح. ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم ومنها (الكذب) وضده الصدق، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت. ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول. ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما (الريا) وضده الاخلاص. ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية. ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد. ومنها (طول الامل) وضده قصره. ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الاعم. ومنها (الوقاحة) وضده الحياء. ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة. واقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها للاصرار. ومنها (الغفلة) وضدها النية والارادة. ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق. ومنها (الكراهة) وضده الحب. ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب. ومنها (البعد) وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة. ومنها (السخط) وضده الرضا، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً، بل هو فوق الرضا كما يأتي. ومنها (الحزن) وضده السرور. ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل. ومنها (الكفران) وضده الشكر. ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر. ومنها (الفسق) وهو الخروج

عن طاعة الله وعبادته، وضده الطاعة والعبادة، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع)٥[٥] من الطهارة، والصلاة والذكر وتلاوة القرآن، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات. ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الانفاق، وما سواهما في العبادات.

(تنبيه) اعلم ان إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وادخال البعض في البعض، والاشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق، بل انما تعرضوا لبعضها، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال.

والسر فيه ان كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا اليه، فالاختلاف في الادخال لاجل اختلاف الاعتبار للجهات " وقد عرفت ان ماله جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله، ولا نخصه بواحدة منها ". ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل، وببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء، فان الحب ان كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل، وإن كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل، والخوف إن كان مما لايخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب، وان كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل وان كان في موقعه كان من الفضائل، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة.

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد عرفت اجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة، لها آثار معلومة، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل، وليست بها فلا بد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضل ويضل، فنقول:

---

٥ [5] هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية.

قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هي عليه، وهو لاينفك عن اليقين والطمأنينة، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة، والآخذ بمثله ليس حكيماً، إذ حقيقة الحكمة لاتنفك عن الاذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه، فمثله كمثل الاطفال في التشبه بالرجال، أو بعض الحيوانات في محاكاة ما للانسان من الاقوال والافعال.

وأما فضيلة العفة، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل، حتى يكون تصرفها مقصوراً على امره ونهيه، فيقدم على مافيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه، وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها، لاشيء آخر من دفع ضر، أو جلب نفع، أو اضطرار وإلجاء، فالاعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الازيد من جنسها ليس عفة، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها، أو للحذر من حدوث الأمراض والاسقام، أو اطلاع الناس وتوبيخهم، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي.. إلى غير ذلك.

وأما فضيلة الشجاعة، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة، فالاقدام على الامور الهائلة، والخوض في الحروب العظيمة، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال، أو الظفر بامرأة ذات جمال، أو للحذر من السلطان ومثله، أو للشهوة بين ابناء جنسه، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن، كما هو شأن عساكر الجائرين، وقاطعي الطرق والسارقين، فمن كان اكثر خوضاً في الاهوال، وأشد جرأة على الابطال للوصول إلى شيء من تلك الاغراض، فهو اكثر جبناً وحرصاً، لا اكثر شجاعة ونجدة. وقس على ذلك الوقوع في المهالك والاهوال، تعصباً عن الاقارب والاتباع، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة، فاغتر بذلك ولم يبال بالاقدام اتكالا على العادة الجارية. ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته، بل لعجز الطفل. ومن

هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والاقدام، فانه ليس صادراً من ملكة الشجاعة، بل عن طبيعة القوة والغلبة.

وبالجملة: الشجاع الواقعي ما كانت افعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة، فربما كان الحذر عن بعض الاهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة، وربما لم يكن الخوض في بعض الاخطار من موجباته فينافيها، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة، وايقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية، أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من امارات القحة والحماقة.

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة اكثر من خوفه من الموت والهلاك، فمن لا يبالي بذهاب شرفه، وفضيحة اهله وحرمه، فهو من أهل الجنون والحماقة، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة احسن من الحياة بدونها، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة. على ان الشجاعة في المبادىء ربما كانت موذية، وانما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما إذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة، والذب عن العقائد الحقة، فان الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأي الصحيح إذا علم أن عمره في معرض الزوال والدثور، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني، فيحامي عن دينه وشريعته، ولا يبالي بما يحذر عنه غيره من ابناء طبيعته، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين، ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياماً معدودة، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لاصحابه: **" أيها الناس انكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن ابي طالب بيده لالف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش "**.

وبالجملة: كل فعل يصدر عن الشجاع في أي وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً في موقعه، وله قوة التحمل على المصائب، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب، ولا يضطرب من شدائد الامور، ويستخف بما يستعظمه الجمهور، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل، وكان

انتقامه مقصوراً على ما يستحسن عقلا وشرعاً، ولا يتعدى إلى مالا ينبغي. وليس مطلق الانتقام مذموماً، فربما كان في بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس ذلولا لا يرتفع إلا بالانتقام، وربما أدى هذا الذبول إلى بعض الرذائل المهلكة.

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب، ولا يغلب بعضها على بعض، ولا يقدم على شيء غير ما تسقط له العاقلة. وانما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لاجلها جميع الافعال على نهج الاعتدال بسهولة، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا، فمن يتكلف اعمال العدول رياء وسمعة أو لجلب القلوب، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا.

وقس على ذلك جميع انواع الفضائل المندرجة تحت الاجناس المذكورة فانه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها، فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها ويجتنب عنها، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا، دون الأغراض الاخر، فبذل المال لتحصيل الازيد، أو لدفع الضرر، أو نيل الجاه، أو للوصول إلى شيء من اللذات الحيوانية ليس سخاء. وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه. فان المبذر جاهل بعظم قدر المال. والاحتياج إليه في مواقع لولاه لادى إلى تضييع الاهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الاعمال، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان، ومع الفقر نائم)٦[٦]. وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه، وهذا يكون في الاغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لا يحتاج إلى كد وعمل، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه، إذ المكاسب الطيبة قليلة جداً، وارتكابها للاحرار مشكل، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم،

---

٦ [6] كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها.

واضدادهم على خلاف ذلك، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان. وقد قال بعض الحكماء: " إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر إلى قلة الجبل وانفاقه كاطلاقه ".

العدالة أشرف الفضائل
ثم العدالة على أقسام ثلاثة
ايقاظ
دفع اشكال في دخول المتفضل في العدالة وهي المساواة
اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وعدالة السلطان
لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة
التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي

فصل

العدالة اشرف الفضائل

العدالة اشرف الفضائل وافضلها، إذ قد عرفت انها كل الفضائل أو ما يلزمها، كما ان الجور كل الرذائل أو ما يوجبها، لانها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والافعال، ورد الزائد والناقص إلى الوسط، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضى حصول فعل متوسط بين افعالها المتخالفة، وذلك كما تحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين افعالها المتخالفة، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة، ولذا قال افلاطون الالهي: (العدالة إذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ويستضىء بعضها من بعض، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على افضل ما يكون، فيحصل لها غاية القرب إلى مبدعها سبحانه).

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها اقرب الصفات إلى الوحدة، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات، والتأليف بين المتباينات، والتسوية بين المختلفات، ورد الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة إلى التوسط الذي هو الوحدة، فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة، ولا ريب في ان الوحدة اشرف من الكثرة، وكلما كان الشيء اقرب إليها يكون افضل واكمل وابقى وادوم ومن تطرق البطلان والفساد ابعد، فالمتخالفات إذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت

اكمل مما كان، ولذا قيل: كمال كل صفة ان يقارب ضدها، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة، وجذب الصور الجميلة للنفوس، انما هو لوحدة التناسب، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى أو غيرها اشرف النسب لقربها إلى الوحدة وغيرها من النسب يرجع إليها.

وبالجملة: اختلاف الاشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد الكل ومبدؤه، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية، فهو ظل من وحدته الحقة، وكلما كان اقرب إليها يكون اشرف وجوداً، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود، لأن تولد المواليد من العناصر الاربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال، وتعلق النفس الربانية بالبدن انما هو لحصول نسبة الاعتدال، ولذا يزول تعلقها به بزوالها بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة اينما وجدت.

والتحقيق انها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها، فهي في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي، وفي الاعضاء حسن ظاهري، وفي الكلام فصاحة، وفي الملكات النفسية عدالة، وفي الحركات غنج ودلال، وفي المنغمات ابعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى في اي مظهر ظهر، وبأي صورة تجلى، وبأي لباس تلبس.

فاني أحب الحسن حيث وجدته ... وللحسن في وجه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الاشياء إذا لم تكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق، ويتعطر منها مشام اصحاب التأله والذوق، فتعرض لها إن كنت اهلا لذلك.

واذا عرفت شرف العدالة وايجابها للعمل بالمساواة، ورد كل ناقص وزائد إلى الوسط. فاعلم: أنها إما متعلقة بالأخلاق والافعال. أو بالكرامات وقسمة الاموال. أو بالمعاملات

والمعاوضات. أو بالاحكام والسياسات. والعادل في كل واحد من هذه الامور ما يحدث التساوي فيه برد الافراط والتفريط إلى الوسط. ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط. حتى يمكن رد الطرفين اليه. وهذا العلم في غاية الصعوبة. ولا يتيسر إلا بالرجوع إلى ميزان معرف للأوساط في جميع الاشياء. وما هو إلا ميزان الشريعة الالهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية. فانها هي المعرفة للاوساط في جميع الاشياء على ما ينبغي. والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة العملية. فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيما عالماً بالنواميس الالهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة.

وقد ذكر علماء الأخلاق ان العدول ثلاثة: "الاول" العادل الاكبر وهو الشريعة الالهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة. " الثاني " العادل الاوسط. وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الالهية والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة. "الثالث" العادل الصامت وهو الدينار لانه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات.

بيان ذلك: ان الإنسان مدني بالطبع فيحتاج بعض افراده إلى بعض آخر. ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون. فيحتاج الزارع إلى عمل التاجر وبالعكس والنجار إلى عمل الصباغ وبالعكس. وهكذا فتقع بينهم معاوضات. فلابد من حفظ المساواة بينها دفعاً للتنازع والتشاجر. ولا يمكن حفظها بالاعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك. وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير كنظر المهندس. وتدبير صاحب الجيش. فان نظرهما في لحظة واحدة ربما ساوى عملا كثيراً لمن يعمل ويحارب. فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الاعمال والأشياء المختلفة، ليحصل الاعتدال والاستواء، ويتبين وجه الأخذ والاعطاء، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطاً ولا تفريطاً قيل: وقد أشير إلى العدول الثلاثة في الكتاب الالهي بقوله سبحانه:

وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس[1] [1].

فان الكتاب اشارة إلى الشريعة، والميزان إلى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط.

هذا والمقابل للعادل ـ اعني الجائر المبطل للتساوي أيضاًً ـ اما جائر أعظم ـ وهو الخارج عن حكم الشريعة ـ ويسمى كافراً ـ أو جائر اوسط ـ وهو من لايطيع عدول الحكام في الاحكام ـ ويسمى طاغياً وباغياً ـ أو جائر اصغر ـ وهو من لا يقوم على حكم الدينار، فيأخذ لنفسه اكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه ـ ويسمى سارقاً وخائناً ـ.

ثم العدالة على اقسام ثلاثة:

" أحدها " ما يجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج إليه كل حي من الارزاق والاقوات، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور مالا عين رأت، ولا اذن سمعت، وما من يوم إلا ويصل الينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعده، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة، إذ من اعطى خيراً ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر.

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الاشخاص، فان ما يؤدى به حق احسان السلطان غير ما يؤدى به حق احسان غيره، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن،ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك. والواجب سبحانه غنى عن معونتنا ومساعينا. ولايحتاج إلى شيء من اعمالنا وأفعالنا، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة، كمعرفته ومحبته،

---

[1] [1] الحديد الآية: ٢٥.

وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة، والسعي إلى المواقف الشريفة وغير ذلك، وان كان التوفيق لادراك ذلك كله من جملة نعمائه، إلا أن العبد إذا أدى ماله فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات، وترك ما تقتضى الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق، وإن كان أصل تمكنه واختياره، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه.

" الثاني " ما يجري بين الناس بعضهم لبعض: من اداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء، فهذا القسم من العدالة يقضي ان يرضى بحقه، ولا يظلم أحداً، ويقيم كل واحد من ابناء نوعه على حقه بقدر الامكان، لئلا يجور بعضهم بعضاً، ويؤدي حقوق اخوانه المؤمنين بحسب استطاعته. وقد ورد في الحديث النبوي: **" إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقا لابراءة له منها إلا بالأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم غربته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافيء صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر انعامه، ويصدق أقسامه، ويواليه ولا يعاديه، وينصره ظالماً أو مظلوماً فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على من ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على اخذ حقه، ولا يسأمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ".**

" الثالث " ما يجري بين الاحياء وذوى حقوقهم من الاموات: من أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء. وقد أشار خاتم الرسالة (ص) إلى أقسام العدالة بقوله (ص): **" التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله "**، وبقوله (ص) في خبر آخر: **" الدين النصحية، قيل لمن؟ قال: لله ولرسوله ولعامة المؤمنين ".**

ايقاظ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وافعاله الباطنة والظاهرة، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الاشياء المتخالفة، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة. فكن يا حبيبي جامعاً للكمالات، متوسطاً بين مراتب السعادات، ومركزاً لدائرة نيل الافاضات. فكن أولا متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان ولا تكتف بأحدهما حتى لاتكون واحداً من الرجلين القاصمين٢[٢] لظهر فخر الثقلين (ص). وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك نقياً، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدليسات، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات، بل ينبغي ان يكون ظاهرك مرآة لباطنك، حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة. وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة متوسطاً بين الافراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب، ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية، فلا تكن من الذين قصروا انظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم إلى الالحاد والزندقة، ولامن الذين صرفوا اعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الانبياء إلى الجهل والبطالة. ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة، فلا تكن متكلماً صرف لا تعرف سوى الجدل، ولا مشائيا محضا اضاع الدين واهمل ولا متصوفا استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان. وكن في العلوم الشرعية

---

٢ [2] اشارة إلى قوله (ص): (قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك).

متوسطاً بين الاصول والفروع، فلا تكن اخباريا تاركا للقواعد القطعية، ولا اصوليا عاملا بقياسات عامية. وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة، وأعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد، ويوفقك لا كتساب زاد المعاد.

[دفع اشكال]

إن قيل: قد تلخص مما ذكر: أن الفضيلة في جميع الأخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان، مع انه قد ثبت ان للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة (قلنا): التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد فان الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى الاسراف احسن من النقصان عنه، واشبه بالمحافظة على شرائطه، فالتفضل انما يصدر عن فضيلة العدالة، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها، إذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه، وهذه الزيادة ليست مذمومة، بل هي العدالة مع الاحتياط فيها، ولذا قيل: "إن المتفضل أفضل من العادل"، والمذموم ان يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين، لأنه انفق فيما لاينبغي أو على مالا ينبغي، وصاحبه لايسمى متفضلا بل مضيعاً، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه إلاّ العدل المحض ولم يجز له التفضيل.

تتميم

(اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان)

قد تلخص ان حقيقة العدالة أولازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلا منها فيما يقتضي رأيه، فلا يفسد نظام العالم الإنساني، فان الواجب سبحانه لما ركب الإنسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر، وجذبه

كل واحدة منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه، كما هو الشأن في كل مركب. وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع ويشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها. فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم.

ثم كل شخص مالم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد، إذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره، فان السراج الذي لايضيء قريبه كيف يضيء بعيده، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الافراط والتفريط واستقر على جادة الوسط، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه، وهو خليفة الله في أرضه، وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره لتنورت البلاد بأهلها، وصلحت امور العباد بأسرها، وزاد الحرث والنسل ودامت بركات السماء والأرض.

وغير خفي أن اشرف وجوه العدالات واهمها وأفضل صنوف السياسات واعمها هو عدالة السلطان، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة، وافواج المحن متراكمة، وعوائق الزمان متزاحمة، وبوائق٣[٣] الحدثان متصادمة، وطالبوا الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون إلى مناله سبيلا ولا إلى جداوله مرشداً ودليلا، وعرصات العلم والعمل دارسة الآثار، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار، فلا يوجد ماهو الملاك في تحصيل السعادات، اعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الإنسان. ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه، بل لا تجد ديناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله، ولا طالباً إلا

---

٣ [3] البائقة: الداهية والشر. يقال: رفعت عنك بائقة فلان أي غائلته وشره جمعه بوائق.

وهو لعدم المكنة باق على جهله، ولعمري إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه: **" لايبقى من الاسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه ".**

وبالجملة: المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات، هو عدالة السلطان، واعتناؤه باعلاء الكلمة، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة، ولذا ورد في الآثار: (إن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية، وإن كان جائراً كان سهيما في معاصيهم). وقال سيد الرسل (ص): **"اقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وابعدهم عنه الملك الظالم"**. وورد عنه (ص): **"عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة"**. والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل إلى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار، وقال بعض الأكابر: لو علمت انه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه.

تنوير

(لاحاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة)

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى سلسلة العدالة، فان أهل الوداد والمحبة في مقام الايثار ولو كان بهم خصاصة، فكيف يجور بعضهم على بعض. والسر ان رابطة المحبة أتم واقوى من رابطة العدالة لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية، والعدالة وحدة قهرية قسرية. على انها لا تنتظم بدون المحبة، لكونها باعثة للايجاد، كما اشير إليه في

الحديث القدسي " **كنت كنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف** ". فالمحبة هو السلطان المطلق، والعدالة نائبها وخليفتها٤[٤].

فصل

(التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي)

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لايتعدى عنه. وبيان ذلك: ان مبادىء الحركات المؤدية إلى الكمالات: إما طبيعية كحركة النطفة في الاطوار المختلفة إلى بلوغ كمال الحيوانية، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات إلى بلوغ كمال السريرية. ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها إلى المبادئ العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة إلى الإنسان، ولما كان كمال الثواني ان تتشبه بالاوائل، فينبغي ان تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية إلى كمالها بالطبيعية.

وإذا ثبت ذلك فاعلم: إن تهذيب الأخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم ان يقتفى في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها، فنقول: لاريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر٥[٥]، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية. ونهاية هذه القوة وكمالها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الامور الشهوية، وينبعث منه الميل إلى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاع. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره. وغاية كمال هذه القوة حصول

---

٤ [4] ولذلك ان الشريعة الاسلامية أول مادعت فيما دعت إلى الاخوة والتآلف بين الناس، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر.

٥ [5] يريد بها المرضعة.

التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل إلى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات. ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد إلى ان يتمكن من تعقل الكليات.

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعي، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقي على هذه الحالة ولم يبلغ إلى الكمال الحقيقي الذي خلق الإنسان لأجله، لأنه لم يخلق احد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من ايد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس اكثر استعداداً لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر، فلا بد لجل الانام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر: ان الطبيعة تولد أولا قوة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعي، فيهذب أولا القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمي كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن ان تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب بالنسبة إلى تحصيله بالترتيب فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه. فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول إلى ما هو المقصد والمطلب.

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وابقائها، وان لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بازالة الضد، ولذا كان فن الأخلاق على قسمين: (احدهما) راجع إلى حفظ الفضائل، (وثانيهما) نافع في دفع الرذائل، فيكون شبيهاً بعلم الطب، من حيث انقسامه إلى قسمين: (أحدهما) في حفظ الصحة، (وثانيهما) في دفع المرض، ولذا يسمى طباً روحانياً، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانياً. ومن هنا كتب جالينوس إلى روح الله عليه السلام: "من طبيب الابدان إلى طبيب النفوس". فكما ان لكل من حفظ

الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة، كما نذكره ان شاء الله تعالى.

الباب الثالث في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها
الطريق لحفظ اعتدال الفضائل
قانون العلاج في الطب الروحاني
طريق معرفة الأمراض النفسانية
أسباب الأمراض النفسانية
المعالجات الكلية لمرض النفس
المعالجات الخاصة لمرض النفس
في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة
الجربزة
الجهل البسيط
شرف العلم والحكمة

الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها

بازالة نقائضها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل ــ قانون العلاج في الطب الروحاني ــ طريقة معرفة الأمراض النفسية ــ المعالجات الكلية لامراض النفس ــ المعالجات الخاصة لامراض النفس. وله اربعة مقامات:

(الاول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل.

(الثاني) مايتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.

(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.

(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها.

وفيه فصول١[١]

فصل

(الطريق لحفظ اعتدال الفضائل)

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بايراد المثل وملائم المزاج فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل أيضاً بذلك. وايراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور:

(منها) اختيار مصاحبة الأخيار، والمعاشرة مع اولى الفضائل الخلقية واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيئة، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الافعال ومزخرفاتهم، فان المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه، فان الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر. والسر: أن النفس الانساينة ذات قوى بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والرذائل، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال إليه وغلب على صاحبه إلى الخير، ولكون دواعي الشر من القوى اكثر من بواعث الخير منها، يكون الميل إلى الشر اسرع وأسهل بالنسبة إلى الميل إلى الخير، ولذا قيل: إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الاعالي وكسب الرذائل بمثابة النزول منها، وإلى ذلك يشير قوله (ص): " **حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات** ".

و(منها) إعمال القوى في شرائف الصفات، والمواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملكات، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها إلى الامساك، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام في الاخطار والاهوال بشرط اشارة العقل، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها وهكذا الحال في سائر الصفات. وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية.

(ومنها) ان يقدم التروي على كل ما يفعله، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة. ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها, فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده، ويشق عليها عقوبة، بعد تعييرها وتوبيخها، كما إذا اكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم، وإذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدبها بايقاعها في مثلها مع الصبر عليها، أوفي معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك. وينبغي ألا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية لأن التعطيل يؤدى إلى الكسالة وهي إلى انقطاع فيوضات عالم القدس، فتنسلخ الصورة الإنسانية وتحصل الهلاكة الأبدية، والسعي يوجب

ازدياد تجرد النفس وصفائها والانس بالحق والالف بالصدق٢[٢]، فيتنفر عن الكذب والباطل،

ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات، حتى تتكشف له الاسرار الالهية والغوامض الربانية، ويتشبه بالروحانيات القادسة وينخرط في سلك الملائكة المقدسة. ويجب ان يكون سعيه في امور الدنيا بقدر الضرورة، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد، لانه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخزف الفاني الظلماني الذي يفوت عنه وينتقل إلى اعدائه من الوراث وغيرهم.

(ومنها) أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعاً وتخيلا، ومن هيجهما كمن هيج كلباً عقوراً أو فرساً شموساً، ثم يضطر إلى تدبير الخلاص عنه. وإذا تحركتا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة, وهو القدر الذي جوزه العقل والشريعة.

(ومنها) أن يستقصى في طلب خفايا عيوب نفسه, وإذا عثر عى شىء منها اجتهد في إزالته. ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها, فكثيراً ما يخفى عليها بعض عيوبها، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض اصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه، وإذا أخبره بشىء منها فليفرح وليبادر إلى ازالته حتى يثق صديقه بقوله، ويعلم أن اهداء شىء من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه، وربما كان العدو في هذا الباب انفع من الصديق، لان الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره، والعدو مصر على اظهاره. بل ربما يتجاوز إلى البهتان، فإذا أظهر الاعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر إلى رفعها وقمعها.

ومما ينفع في المقام ان يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح، فليجتهد في إزالته. وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة، ويتفحص عن جميع ما صدر من الافعال فيهما فان لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله.

قانون العلاج في الطب الروحاني

(تنبيه) قد تبين أن للطب الروحاني أسوة بالطب الجسماني. والقانون في معالجة الأمراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولا، ثم الأسباب والعلامات، ثم يبين كيفية العلاج. والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الأمراض، أو جزئي يختص بمرض دون مرض، فكذلك الحال في الطب الروحاني. ونحن نشير إلى ذلك في فصول:

فصل

(طريق معرفة الأمراض النفسانية)

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال. وطريق معرفتها: أنك قد عرفت ان القوى الإنسانية محصورة في انواع ثلاثة: (احداها) قوة التمييز، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب. وانحراف كل منها إما في الكمية

اوفي الكيفية، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه، والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها. فامراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط، أو بحسب رداءة الكيفية.

فالافراط في قوة التمييز: كالجربزة والدهاء، والتجاوز عن حد النظر، والمبالغة في التنقير[٣]، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية، والحكم على المجردات بقوة الوهم، وإعمال الذهن في

ادراك مالا يمكن دركه، والتفريط فيه كالبلاهة، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب، كاجراء أحكام المحسوسات على المجردات. والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد، والميل إلى العلوم الغير اليقينية ــ كعلم الجدل والخلاف ــ أزيد مما يميل إلى اليقينيات واستعمالهما في مقام اليقينيات، والشوق إلى علم الكهانة والشعبذة وامثالهما للوصول إلى الشهوات الخسيسة.

وأما الافراط في قوة الدفع: كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع. وأما التفريط: كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات. وأما الرداءة فيها: كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام.

واما الافراط في قوة الجذب: فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة. والتفريط فيه: فكالفتور على تحصيل الاقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل. أما الرداءة فيها: كشهوة البطن والميل إلى مقاربة الذكور.

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة، فاجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للاخر، وبحسب الكيفية أربعة، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لايعد كثرة، كما عرفت اكثرها.

فصل

(أسباب الأمراض النفسانية)

إعلم أن اسباب الانحراف في الأخلاق، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها، أو حادثة من مزاولتها للاعمال الردية. أو جسمية ــ وهي الأمراض الموجبة لبعض الملكات الردية ــ والسر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر، وكل كيفية تحدث في احدهما تسرى في الآخر، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه، وتأثر البدن بالأمراض، (لا) سيما إذا حدثت في الاعضاء الرئيسية يوجب النقص في ادراك النفس وفساد تخيلها وكثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن، ومن بعضها التهور، ويحصل من اكثر الأمراض سوء الخلق.

فصل

(المعالجات الكلية لمرض النفس)

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر إلى ازالته بالمعالجات الطبية، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني. والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولا بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعاً، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار، فان لم ينفع فبالدواء وإن لم ينجع فبالسمومات، وإن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع، وهو آخر العلاج. فالقانون الكلي في المعالجة هنا أيضاً كذلك، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده، والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض، فكما ان حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه فكذا كل فضيلة

تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها. فان لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكراً أو قولا أو عملا، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال: أيتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار. فان لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة، بشرط محافظة التعديل، فصاحب الجبن مثلا يعمل اعمال المتهورين، فيخوض في المخاوف والأهوال، ويلقي نفسه في موارد الحذر والأخطار. وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف، وهذا بمنزلة المداواة بالسم. فان لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة، وهذا بمثابة الكى والقطع، وهو آخر العلاج.

المعالجات الخاصة لمرض النفس

(تنبيه) لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وانواعها وأصنافها، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه. وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور، فهنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على ازالة ما يضادها من الرذيلة. وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منها، فنحن نشير

إلى ذلك، ونشير أيضاً في تلو كل رذيلة وفضيلة إلى ما يتولد منهما، من أفعال الجوارح مع معالجته ــ إن كان له ذلك ــ ونراعى الترتيب المذكور في مقام الاجمال: فنذكر أولا مايتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وانواعهما، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها، فهنا أربعة مقامات:

المقام الاول

(في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة)

الجربزة وعلاجها ــ الجهل البسيط وعلاجه ــ شرف العلم والحكمة ــ آداب التعلم والتعليم ــ العلم الالهي والأخلاق والفقه أشرف العلوم ــ اصول العقائد المجمع عليها ــ الجهل المركب والشك ــ واليقين ــ علامات صاحبه ــ مراتب اليقين ــ الشرك ــ التوحيد ــ التوكل على الله ــ حق التوكل بماذا يحصل ــ مناجاة السر لأرباب القلوب ــ الخواطر النفسانية والوساوس ــ أقسام الخواطر ومنها الالهام ــ المطاردة بين جندى الملائكة والشياطين في معركة النفس ــ العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة ــ علاج الوساوس ــ مايتم به علاج الوساوس ــ ما يتوقف قطع

الوساوس عليه ــ حديث النفس لا مؤاخذة عليه ــ الخاطر المحمود والتفكر ــ مجارى التفكر في العوالم والمخلوقات اما جنسا رذائلها٤[٤] [فأولهما]:

الجريزة

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شيء بل لايزال يستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه، وربما أدى في العقليات إلى

الالحاد وفساد الاعتقاد، بل إلى نفي حقائق الأشياء رأساً كما للسوفسطائية، وفي الشرعيات إلى الوسواس. (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وايجابه للهلاك، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند اولى الأفهام المستقيمة، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط. وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك.

[وثانيهما]:

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة. وهي في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها. وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة. والطريق في ازالته امور: (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس انساناً بالحقيقة، وانما يطلق عليه الإنسان مجازاً، إذ فضل الإنسان عن سائر الحيوانات انما هو ادراك الكلي المعبر عنه بالعلم، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك، فلولا علمه بحقائق الاشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم. وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الإنسانية والدخول في حد البهيمية. (الثاني) أن يتذكر ما ورد في

الشريعة من الذم عليه مثل قوله ــ (ص) ــ:" **ستة يدخلون في النار قبل الحساب لستة** " وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة. (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة، ويصرف في ازالته الهمة ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه، ويصرف فيه أيامه ولياليه.

فصل

(شرف العلم والحكمة)

قد علم أن ضد الجنسين ــ أي الجربزة والسفسطة والجهل ــ هو الحكمة، اعني العلم بحقائق الاشياء. فلنذكر اولا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا ترغيباً للطالبين على السعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لاريب في أن العلم افضل الفضائل الكمالية واشرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبية واجمل السمات الالوهية، وهو الموصل إلى جوار رب العالمين والدخول في افق الملائكة المقربين، وهو المؤدى إلى دار المقامة التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الأديان على: أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه لا يتيسران بدونه، وأي شيء افضل مما هو ذريعة اليهما. وايضا قد ثبت في الحكمة المتعالية: ان العلم والتجرد متلازمان، فكلما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً، ولا ريب في ان التجرد اشرف الكمالات المتصورة للانسان، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى واهل القرب من الله تعالى.

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لايجاد العالم العلوى والسفلى، كما دل عليه الخبر القدسي: " **كنت كنزاً مخفياً فأحببت ان اعرف فخلقت الخلق** ". على ان العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره. والسر فيه ان ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك اقوى من ملكية الاعيان المبائنة لذات المالك الزائلة عنه. والتحقيق: ان اطلاق الملكية عليه مجازي، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحت القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها باي نحو كان، إذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء.

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والاشرار، ونفوذ الحكم على الملوك وارباب الاقتدار، فان طباع الانام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له، لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز. ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد احداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع إلى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك، ولو كان من باب المكر والحيل.

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار اكثر من ان تحصى نبذة منها قوله تعالى:

" إنما يخشى الله من عباده العلماء "٥[٥]

وقوله تعالى:

" هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون "٦[٦]

[redacted]

وقوله تعالى:

" ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً "٧[٧]

وقوله تعالى:

" وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون "٨[٨]

وقول النبي ــ (ص) ــ: " اللهم ارحم خلفائي. قيل: يارسول الله! من خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي ". وقوله ــ (ص) ــ لأبي ذر: "جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام الف ليلة يصلى في كل ليلة الف ركعة واحب إليه من الف غزوة، ومن قراءة القرآن كله اثنى عشر الف مرة وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من

الانبياء، وثواب الف شهيد من شهداء بدر، وعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون، ولا يحب العلم إلا السعيد وطوبى لطالب العلم، والنظر في وجه العالم خير من عتق الف رقبة، ومن أحب العلم وجبت له الجنة، ويصبح ويمسي في رضى الله، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة، ولا يأكل الدود جسده ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام ".

وقول أمير المؤمنين (ع): " ان كمال الدين طلب العلم والعمل به، وإن طلب العلم اوجب عليكم من طلب المال، وان المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم، وقد ضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه ". وقوله (ع): " إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار، واعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات ".

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين ــ (ع): " لو يعلم الناس مافي طلب العلم لطلبوه، ولو بسفك المهج وخوض اللجج "

وقول الباقر (ع): " عالم ينتفع بعلمه افضل من سبعين الف عابد "

وقول الصادق (ع): " لو يعلم الناس مافي فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إن معرفة

الله تعالى انس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم، قد كان قوم قبلكم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شىء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم:

" إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد "[٩][٩]

فاسألوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم ".

وعن الرضا (ع) عن آبائه (ع) ــ عن النبي ــ (ص) ــ انه قال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، واقتبسوه من اهله، فان تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة, والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الاعداء. والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه. ان العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الابصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الابرار والدرجات العلى في الآخرة والأولى. الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام. به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام العلم امام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه ".

آداب التعلم والتعليم

[تنبيه] لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط:

[أما آداب التعلم]:

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا. ولقد قال بعض الأكابر: " كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الاشعة الفائضة عن الشمس، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهى محرومة من أدراك الانوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية ".

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب إلى الله والفوز بالسعادات الاخروية، ولم يكن باعثه شيئاً من المراء والمجادلة، والمباهاة والمفاخرة، والوصول إلى جاه ومال، أو التفوق على الاقران والامثال. قال الباقر (ع): **" من طلب العلم ليباهي به العلماء اويمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لاهلها "** وقال الصادق (ع): **" طلبة العلم ثلاثة، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم صنف يطلبه للجهل[١] [١] والمراء وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل. فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه، وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق، يستطيل على**

---

١ [1] (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة.

مثله من أشباهه، ويتواضع للاغنياء من دونه، فهو لحلوانهم٢[٢] هاضم ولدينه حاطم، فاعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره. وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقاً مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه مستوحشاً من أوثق اخوانه، فشد الله من هذا اركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه ".

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم، فان من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم. وقال الصادق (ع): " العلم مقرون إلى العمل، من علم عمل ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل عنه ". وعن السجاد (ع): " مكتوب في الانجيل: لا تطلبوا علم مالا تعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فان العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدده من الله إلا بعداً ". وعن النبي - (ص) -: " من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد به الدنيا فهى حظه ". وعنه - (ص) -: " العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وأن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فاطاع الله فأدخله الجنة، وأدخل الداعي النار بترك عمله٣[٣] واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة ".

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والادب للمعلم، ولا يرد عليه شيئاً بالمواجهة، ويكون محباً له بقلبه، ولا ينسى حقوقه، لأنه والده المعنوي الروحاني، وهو أعظم الآباء الثلاثة قال الصادق (ع):

---

٢ [2] قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) في تعليقته على اصول الكافي عن هذا الحديث: " الحلوان ــ بضم الحاء المهملة وسكون اللام ــ ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الاجر والرشوة على اعمالهم، يقال: حلوته أحلوه حلواناً، فهو مصدر كالغفران، ونونه زائدة، وأصله من الحلاوة، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) ــ بالهمزة بعد الالف ــ والحوا ــ بالمد والقصر ــ ما يتخذ من الحلاوة ".

٣ [3] صححناه على بعض نسخ اصول الكافي المصححة وفي نسخ جامع السعادات هكذا: (بتركه عمله).

" اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولاتكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم ".

هذا وقد اشرنا سابقاً إلى ان اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه اولا من رذائل الأخلاق وذمائم الاوصاف باسرها، إذ مالم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من الواح العقول الفعالة القدسية.

(وأما آداب التعليم):

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالي أوجاه ورئاسة أو شهرة بين الناس، بل يكون الباعث مجرد التقرب إلى الله تعالى والوصول إلى المثوبات الابدية، فان من علم غيره علماً كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره... وهكذا إلى غير النهاية، فيصل بتعليم واحد إلى مثوبات التعاليم الغير المتناهية، وكفى بهذا له فضلا وشرفاً.

(ومنها) ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له، مقتصراً في الافادة على قدر فهمه، متكلماً معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة.

(ومنها) أن لا يضن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم، كما ورد في الخبر٤[٤].

(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع إليه ويعلمه، ولايخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع. وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتى

---

٤ [4] روى في اصول الكافي في باب بذل العلم عن الصادق عليه السلام: " قام عيسى بن مريم خطيبا في بني اسرائيل فقال: يا بني اسرائيل! لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ".

والقاضي وأمثالهما. وقال الباقر (ع): **" حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند مالا يعلمون "**[٥][5]

وقال الصادق (ع): **" إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه! ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا، فقال:**

" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق "[٦][6] وقال! **" بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله "**[٧][7]

وعنه (ع)! **" إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم، فليقل! لا أدري، ولا يقل! الله اعلم، فيوقع في قلب صاحبه شكا. وإذا قال المسؤل! لا أدري، فلا يتهمه السائل "** وعنه (ع): **" إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك إياك أن تفتى الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم "** وعن الباقر (ع): **" من افتى الناس بغير علم ولاهدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه "**.

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق. ثم العارف بأهل زماننا يعلم ان آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان! " قد فسد الزمان وأهله، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله فانحطت مرتبة العلم وأصحابه، واندرست مراسمه بين طلابه".

تتميم

(العلم الالهي وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم)

---

٥ [5] الحديث المروى في اصول الكافي هكذا: " عن زرارة بن اعين قال سألت أبا جعفر ــ (ع) ماحق الله على العباد؟ قال: ان يقولوا مايعلمون..." إلى آخر الحديث.

٦ [6] الاعراف، الآية: ١٦٩.

٧ [7] يونس، الآية: ٣٩.

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة، إلا ان فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وامثالها، مما ترجع جل فائدته إلى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة، ولا يجب تحصيلها، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية.

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله، واشرف العلوم واحسنها هو العلم الالهي المعرف لاصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة، وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجمالا إلا انها في كيفية الأخذ مختلفة! فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عينا إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي، والتارك للطريقين غير معذور، ولذا ورد الحث الأكيد على التفقه في الدين، قال الصادق (ع): **" عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا اعراباً، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يزك له عملا "**، وقال: **" ليت السياط على رؤس اصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام "**، وقال (ع): **" إن آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب، فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء "**.

وأما اصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق احكامه الواقع ونفس الامر فلا يرد حكمه، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد! **" انه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل"**٨[٨]، فهما متعاضدان ومتظاهران، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى

---

٨ [8] هذا الحديث رواه في اصول الكافي عن النبي – (ص) في كتاب العقل والجهل فصححناه عليه، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا.

ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج، وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوتماينسب إلى الشرع منه، فان كل عقل ليس تاماً، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي.

اصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الامة المختارة عليه من اصول العقائد هو: أن الواجب سبحانه موجود، وانه واحد في الالوهية، وبسيط عن شوائب التركيب، ومنزه عن الجسمية وعوارضها، وان وجوده وصفاته عين ذاته، وانه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما، وانه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله، ولا يزداد باحداثها علما، وان قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات، وانه يخلق مايشاء ويفعل ما يريد ولا يكون شيء إلا بمشيئته، وانه عدل في حكمه صادق في وعده، وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية، وليس كمثله شيء، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله، بل هو تام فوق التمام.

وأن القرآن كلامه، ومحمد (ص) رسوله، ما اتى به من أمور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له، بحيث لو أورد عليه ما ينقصه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب.

ثم ان المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً٩[٩]، وبعضهم على يقين دون ذلك،

---

٩ [9] كما قال أمير المؤمنين ــ عليه الصلاة والسلام ــ: "لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً".

واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض، وإلى هذا الاختلاف أشار الإمام محمد ابن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ بقوله **"ان المؤمنين على منازل: منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على اربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو... إلى آخره"**١٠[١٠].

والإمام أبو عبدالله الصادق (ع) بقوله: **"ان للايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهى تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه"**

ولا ريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما لابد منه لكل مكلف، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الاخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين. ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية، بل كان حاصلاً من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية، بمجرد ان عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس، كان كافياً في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين. وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد ان هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء واساطين الحكماء والعلماء، وقوة عقولهم ودقة افهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ. وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائناً ما كان.

---

١٠ [10] الحديث مروي في اصول الكافي في باب درجات الايمان وبقيته: "وعلى صاحب الثلاث اربعاً لم يقو، وعلى صاحب الاربع خمساً لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقو، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو... وعلى هذه الدرجات".

قال العلامة " الطوسي " ـ ره ـ في بعض تصانيفه! " اقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، ثم إذا صدق الرسول ينبغي ان يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان! اما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، واما في الآخرة فبالايمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها، ولا يجب عليه ان يبحث عن حيقيقة الصفات، وان الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا، فان غلب على قلبه شك أو إشكال، فان امكن إزالته بكلام قريب من الافهام وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف، ولاحاجة إلى تحقيق الدليل، فان الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام، وإنما زجر ضعفاء العوام، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات. ومنع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطىء دجلة خوفاً من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه أيضاً هي رخصة الماهر في صنعة السباحة، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم، وهو ان كل ضعيف في عقله يظن انه يقدر على ادراك الحقائق كلها، وانه من جملة الاقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون، فالصواب منع الخلق كلهم ـ إلا الشاذ النادر الذي لاتسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين ـ من تجاوز سلوك أهل العلم في الايمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما انزل الله وأخبر به رسول الله (ص) فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل، إذ قال رسول الله (ص) حين رأى اصحابه يخوضون، بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه! افبهذا أمرتم؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا " فهذا على تنبيه منهج الحق.

ثم لا ريب في ان نورانية اليقين ووضوحه، بل واطمئنان القلب وسكونه. لايحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام. بل (الاول) ـ اعني

الاستضاءة بنور اليقين ـ يتوقف على ملازمة الورع والتقوى، وفطام النفس عن الهوى، وازالة كدرتها وصدأها!

" **وقد أفلح من زكاها** "١١[١١].

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف في قلبه نور إلهي تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين وله درجات ومراتب، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد، كما هم مختلفون في ادراك أنواع العلوم والصنائع " **وكل ميسر لما خلق له** "١٢[١٢].

وأما (الثاني) ـ اعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد ـ فيمكن ان يحصل بما دون ذلك، بأن يشتغل ـ بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها ـ بوظائف الطاعات، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز عن مخالطة أولى المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين، ومجالسة الأتقياء والصالحين، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة، فيكون التلقين كالقاء البذر في الصدر، وهذه الامور كالسقي والتربية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء. ثم من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره، ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم في الآخرة، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة، ووصل إلى المرتبة الأولى.

---

١١ [11] الشمس، الآية:٩.

١٢ [12] حديث نبوي شريف مشهور تقدم ذكره صفحة "٢٦".

الجهل المركب
الشك
اليقين
علامات صاحب اليقين
مراتب اليقين
الشرك
التوحيد في الفعل

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها:

الجهل المركب

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق، فصاحبه لا يعلم، ولا يعلم انه لايعلم، ولذا سمي مركباً. وهو أشد الرذائل واصعبها، وازالته في غاية الصعوبة، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة. وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة، ولذا قال عيسى (ع): **" اني لا اعجز عن معالجة الاكمه والابرص وأعجز عن معالجة الاحمق "**. والسر فيه! أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها، فلا يتحرك للطلب، فيبقى في الضلالة والردى مادام باقياً في دار الدنيا. ثم ان كان المنشأ له اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب، فانها موجبة لاستقامة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها، فيصير جهلها بسيطاً، فينتهض للطلب. وان كان خطأ في الاستدلال، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ، حتى يظهر خطأه. وإن كان مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته.

ومنها الشك والحيرة

وهو من باب رداءة الكيفية وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المطالب الخفية، والغالب حصوله من تعارض الأدلة، ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسده، إذ الشك ينافي اليقين الذي لا يتحقق الايمان بدونه. قال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه: **" لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا "**، وكأن الارتياب في كلامه (ع) مبدأ الشك. وقال الباقر (ع): **" لا ينفع مع الشك والجحود عمل "**. وقال الصادق (ع): **" إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا الينا "**. وسئل (ع) عن قول الله تعالى!

" الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ "[١][1].

قال: " بشك ". وقال (ع): **" من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفىء إلى خير أبداً "**. وقال (ع): **" من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله، أن حجة الله هي الحجة الواضحة "**. وقال (ع): **" من شك في الله تعالى وفي رسوله (ص) فهو كافر "**. وبمضمونه وردت أخبار أخر. وغير خفي ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس، لما يأتي أنه لا ينافي الأيمان، بل الظاهر من بعض الأخبار أن إيجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود، كما روي **أن أبا بصير سأل الصادق (ع) ما تقول فيمن شك في الله تعالى؟ قال: " كافر "، قال: فشك في رسول الله (ص)؟ قال " كافر "، ثم التفت إلى زرارة فقال: " انما يكفر إذا جحد "**.

ثم علاجه ان يتذكر أولا قضية بديهية، هي: ان النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومنه يعلم اجمالا أن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الامر والبواقي باطلة، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر. والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا المرض. ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك، فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن،

---

١ [1] الانعام الآية: ٨٢.

ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها، ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه.

فصل

اليقين

قد عرفت: أن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين)، وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وان قويت، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينا، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع، بل هو ـ كما اشير إليه ـ جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة، أو خطأ في الاستدلال، أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك. فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضداً للجهل المركب. ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر، والا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين.

هذا ومتعلق اليقين إما اجزاء الايمان ولوازمه، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الالهية من النبوة واحوال النشأة الآخرة، أو غيرها من حقائق الاشياء التي لا يتم الايمان بدونها. ولاريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة، وإن كان اليقين في المباحث الالهية أدخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الاخروية، لتوقف الايمان عليه، بل هو اصله وركنه، وغيره من المراتب فرعه وغصنه، والنجاة في الآخرة لاتحصل إلا به، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين.

وبالجملة: اليقين اشرف الفضائل الخلقية واهمها، وافضل الكمالات النفسية واعظمها، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا اوحدي من اعاظم العرفاء أو ألمعي من اكابر الحكماء. ومن وصل إليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى. قال سيد الرسل (ص): **" اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن اوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل "**، وقال (ص): **" اليقين الايمان كله "** وقال (ص): **" ما أدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته**

العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما اذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة " وقال الصادق (ع): **" ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين "**، وعنه (ع): **" ان الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط "**. وفي وصية لقمان لابنه: " يا بنى! لايستطاع العمل إلاّ باليقين، ولايعمل المرء الابقدر يقينه، ولايقصر عامل حتى ينقص يقينه ."

علامات صاحب اليقين

ثم لصاحب اليقين علامات!

(منها) إلاّ يلتفت في اموره إلى غير الله سبحانه. ولا يكون اتكاله في مقاصده إلاّ عليه، ولا ثقته في مطالبه إلاّ به. فيتبرّى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته، ولا يرى لنفسه ولا لابناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لاثر. ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه. فتستوي عنده حالة الوجود والعدم. والزيادة والنقصان والمدح والذم. والفقر والغنى. والصحة والمرض. والعز والذل. ولم يكن له خوف ورجاء إلاّ منه تعالى. والسر فيه: انه يرى الاشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب. ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يراها مسخرة تحت حكمه قال الإمام أبو عبد الله (ع)! **" من ضعف يقينه تعلق بالأسباب، ورخص لنفسه بذلك، واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها، مقراً باللسان انه لا مانع ولا معطي إلا الله، وان العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله سبحانه:**

" يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون "٢[٢].

وقال (ع): " ليس شيء إلاّ وله حد " قيل: فما حد التوكل؟ قال: " اليقين "، قيل: فما حد اليقين؟ قال: " إلاّ تخاف مع الله شيئاً ". وعنه (ع): **" من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله فان الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره، ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت ".**

(ومنها) ان يكون في جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه. خاشعاً منه، قائماً بوظائف خدمته في السر والعلن، مواظباً على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن، متوجهاً بشراشره إليه، متخضعاً متذللاً بين يديه، معرضاً عن جميع ما عداه، مفرغاً قلبه عما سواه، منصرفاً بفكره إلى جناب قدسه، مستغرقاً في لجة حبه وانسه، والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته، وبأن الله تعالى مشاهد لاعماله وافعاله، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره، وأن:

" من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره "٣[٣].

فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة اشد من تزيين ظاهره لابناء نوعه.

وبالجملة: من يقينه بمشاهدته تعالى لاعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب، يكون أبداً في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

---

٢ [2] الآية من سورة آل عمران: ١٦١ وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب إلى الصادق (ع) وهذا الكتاب قال فيه المجلسي ــ قدس سره ــ في مقدمة البحار: "فيه ما يريب اللبيب الماهر، واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الائمة وآثارهم"، ثم قال! "وان سنده ينتهي إلى الصوفية ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم".

٣ [3] الزلزال، الآية: ٨ ــ ٩.

ومن يقينه بما فعل الله في حقه من أعطاء ضروب النعم والإحسان، يكون دائماً في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي.

ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور، وما أعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء.

ومن يقينه باستناد جميع الأمور إليه سبحانه، وبأن صدور ما يصدر في العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير، يكون أبداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله.

ومن يقينه بكون الموت داهية من الدواهي العظمى وما بعده أشد وأدهى، يكون أبداً محزوناً مهموماً.

ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها، لا يركن إليها. قال الصادق (ع) **في الكنز الذي قال الله تعالى:**

" وكان تحته كنز لهما "[٤][4]:

" بسم الله الرحمن الرحيم: عجبت لمن ايقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن إليها ".

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة، يكون دائماً في مقام الهيبة والدهشة. وقد ورد أن سيد الرسل (ص) كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظن انه يسقط على الأرض.

ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحب. وحكايات اصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والاولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وامثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة، وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه.

---

٤ [4] الكهف الآية: ٨٢.

وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين (ع) في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة. وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولا وآخراً يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه إليه بحيث يغفل عن ذاته.

(ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات، بل له الكرامات وخرق العادات. والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقنياً ازدادت تجرداً، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات. قال الإمام أبو عبدالله الصادق (ع): **" اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله (ص) من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم (ع) كان يمشي على الماء، فقال: لو زاد يقينه لمشى في الهوى "**. فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه.

مراتب اليقين

وقد ظهر مما ذكر: أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها، ثم له مراتب: (أولها) علم اليقين، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع ـ كما مر ـ وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان. (وثانيها) عين اليقين، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله: **" لم أعبد رباً لم أره "** بعد سؤال ذعلب اليماني عنه (ع): أرأيت ربك؟ وبقوله (ع): **" رأى قلبي ربي "** وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً، و(ثالثها) حق اليقين، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنية فيضان الأنوار والآثار منه اليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق. وهذا إنما يكون لكمل العارفين بالله

المستغرقين في لجة حبه وانسه، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله. وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضات قوية، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية، والطهارة عن ادناس جيفة الطبيعة، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة:

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدامع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين والفناء في الله، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلاً في أنوار الله محترقا من سبحات وجهه، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلاً، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها.

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبرى عن ظلمات الاوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها، ليحصل لها التجرد التام فتحاذي شطر العقل الفعال، فتتضح فيها جلية الحق حق الاتضاح. والسر ان النفس بمنزلة المرآة تنعكس إليها صور الموجودات من العقل الفعال، ولا ريب في ان انعكاس الصور من ذوات الصور إلى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة، فيجب في انعكاس حقائق الاشياء من العقل إلى النفس: ـ ١ـ عدم نقصان جوهرها، فلا يكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها ـ ٢ـ وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة واخباث المعاصي، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات. وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدا ـ ٣ـ وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، فلا يكون مستوعب الهمّ بالامور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها، وهو بمنزلة المحاذاة ـ ٤ـ وتخليتها عن التعصب والتقليد. وهو بمثابة ارتفاع الحجب ـ ٥ـ واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية إليها، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة، إذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال، وصارت قابلة لحمل امانة الله٥[٥] التي هي المعرفة والتوحيد، فحرمان النفس عن معرفة اعيان الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع، وقد أشار سيد الرسل (ص) إلى مانع التعصب والتقليد بقوله (ص) **" كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه ويمجسانه٦[٦] وينصرانه "**، وإلى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله (ص): **" لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض "**. فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره، إذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته، لأنهما الاسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بادراك البصائر، وهي غير متناهية، وما يلوح منها للنفس متناه، وان كانت في نفسها والاضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ(العالم الربوبي)، إذ كل ما في الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات، فعدم تناهيه ظاهر بين، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها. ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار،

---

٥ [5] اشارة إلى قوله تعالى: **"ا نا عرضنا الأمانة على السماوات الأرض فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولا "** (الاحزاب، الآية: ٧٢).

٦ [6] روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه)، وكذا في غوالي اللئالي، إلاّ أن المعروف في روايته اضافة كلمة •يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه)، كما أرسلها في مجمع البيان: ج٨ ص٣٠٣ طبع صيدا، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر)، وكذا في صحيح البخاري: ج١ ص٢٠٦، وصحيح مسلم: ج٢ ص٤١٣، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن: ج٥ ص١٧٢، وغير هؤلاء.

ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله تحصل لها السعادة والبجهة واللذة والنعمة في نعيم الجنة، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله، وكل منها لانهاية له. ولذا لاتستقر النفس في مقام من المعرفة. والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها، ولا تكون طالبة لما فوقها.

وما اعتقده جماعة من ان ما يحصل للنفس من المعارف الألهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل، بل هي موجبة لا ستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة.

ومنها:

الشرك

وهو أن يرى في الوجود مؤثراً غير الله سبحانه، فان عبد هذا الغير ـ سواء كان صنما أو كوكباً أو انساناً أو شيطاناً ـ كان شرك عبادة، وان لم يعبده ولكن لاعتقاد كونه منشأ أثر اطاعه فيما لا يرضي الله فهو شرك طاعة والأول يسمى بالشرك الجلي، والثاني يسمى بالشرك الخفي، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

" وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون "٧[٧].

وكون الشرك اعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لاريب فيه، وقد انعقد عليه اجماع الامة، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء.

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد، والشرك وان كان شعبة من الجهل، كما أن التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم فذكرهما على حدة لم يكن لازماً هنا، إلا انه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق. فنحن أيضا ذكرنا له عنواناً علىحدة تأسيا بها، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه، إذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس في وسعنا ولا يليق هنا، فان التوحيد هو البحر الخضم الذي لاساحل له.

---

٧ [7] يوسف الآية: ١٠٦.

فصل

(التوحيد في الفعل)

ضد الشرك (التوحيد)، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين، لثبوتهما في الحكمة المتعالية)، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به، فنقول:

هذا التوحيد ـ على ما قيل ـ له اربع مراتب: قشر: وقشر القشر، ولب ولب اللب كالجوز الذي له قشرتان وله لب، وللب دهن وهو لب اللب. (فالمرتبة الأولى) ان يقول الإنسان باللسان: لا إله إلا الله، وقلبه منكر وغافل عنه، كتوحيد المنافقين، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان. (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما هو شأن عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه. وهو عقد على القلب لايوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاء له، ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصي. (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق، وهو مقام المقربين، وصاحبه موحد بمعنى أنه لايشاهد إلا فاعلا ومؤثراً واحداً، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه. (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحداً، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لايرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه، لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه، وهو مشاهدة الصديقين، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد. وهذا هي الغاية القصوى في التوحيد.

فالمرتبة الأولى: كالقشرة العليا من الجوز، وكما أن هذه القشرة لاخير فيها أصلا، بل إن أكلتها فهي مر المذاق، وان نظرت إلى باطنها فهو كريه المنظر، وإن اتخذتها حطباً أطفأت النار واكثرت

الدخان، وان تركتها في البيت ضيقت المكان، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى، ثم ترمى، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت، والمرتبة الثانية: كالقشرة السفلى، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا، فانها تصون اللب عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطباً، لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة إلى مجرد نطق اللسان، إذ تحصل به النجاة في الآخرة، لكنه ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والعيان الذي يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه باشراق نور الحق فيه. والمرتبة الثالثة: كاللب، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكأنه المقصود لكنه لايخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن منه فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين، إلا أنه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق، والمرتبة الرابعة: كالدهن المستخرج من اللب، وكما ان اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب في نفسه، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه.

[تنبيه] ان قيل: كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد، مع ان كل احد يشاهد الأرض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ (قلنا): من تيقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها، وأن ما به تحققها من الله سبحانه، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله، فأي استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه، مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك، وارتكازه في قلبه أن لايرى في نظر شهوده إلا هو، ويغيب عنه غيره، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع. ومما يكسر سورة استبعادك: ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره، وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره، مع تحقق الكثرة عنده، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها

لاترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس، فإذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر، فأي استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة ثم هذه المشاهدات التي لايظهر فيها إلا الله الواحد الحق لاتدوم، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر.

ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى

مناجات السر لارباب القلوب
الخواطر النفسانية
أقسام الخواطر، ومنها الإلهام
المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس

فصل

(ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى)

اعلم: انه لايمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب، إذ المرتبة الرابعة لايتوقف ولا يبتني عليها التوكل، والأولى مجرد نفاق لا يفيد شيئاً. والثانية ـ اعني مجرد التوحيد بالاعتقاد ـ لا يورث حال توكل كما ينبغي، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم.

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل إلا الله، وان كل موجود: من خلق ورزق وعطاء ومنع وغنى وفقر، وصحة ومرض، وعز وذل، وحياة وموت... إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لاشريك له فيه، وإذا انكشف له هذا لم ينظر إلى غيره، بل كان منه خوفه وإليه رجاؤه، وبه ثقته وعليه اتكاله، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض وإذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات إلى بعض الوسائط التي يتراءى في بادي النظر منشئيتها لبعض الامور، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض، وكالالتفات إلى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الافعال، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له: كيف ترى الكل من الله تعالى، وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء اعطاك وإن شاء منع، وهذا

الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عفى عنك، فكيف لاتخافه ولا ترجوه وأمرك بيده، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟!

ولا ريب في أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بابواب المعارف، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه، علم ان السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والإنسان والحيوان... وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لاشريك له، فيعلم ان الريح مثلا هواء، والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك، وهذا المحرك لا يحرك الهواء مالم يحركه على التحريك محرك آخر... وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه. وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك ونجومها، وكائنات الجو، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان.

فالتفات العبد في نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الإنسان أو الحيوان يضاهي التفات من اخذ لتجز رقبته، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب، ويقول: لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محركه ـ أعني الكاتب ـ أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره. ومن علم أن القلم لاحكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب، وان الكاتب لاحكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك، لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب. ولا ريب في ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان بل هذا تمثيل في حق العبد لا عتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة، وليس الامر كذلك، إذ الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى.

" وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى "١[١]

فمن انكشف له ان جميع مافي السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق، لم ير في الوجود مؤثراً إلا هو، وانصرف عنه الشيطان خائباً، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك.

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل، فوقف في الطريق على بعض المسخرات، وهو جهل محض. وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد، ولم يمتد بصرها إلى الأصابع واليد، فضلا عن صاحب اليد، وظنت ان القلم هو المسود للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها.

فصل

(مناجاة السر لأرباب القلوب)

قال بعض العارفين٢[٢]: أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي انطق بها كل شيء، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي، وليس فيه حرف وصوت، ولا يسمعه أحد إلا بالسمع العقلي الملكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي، وهذا النطق الذي لكل ذرة من

١[١] الأنفال، الآية: ١٧.

٢[٢] المقصود به (أبو حامد الغزالي) في احياء العلوم، راجع الجزء الرابع ص١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير. وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير، وصاحب الكتاب اعترف ـ فيما سيأتي ـ باقتباس هذه الفصول من الغزالي.

الأرض والسماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر)، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فانها كلمات تستمد٣[٣] من بحر كلام الله الذي لانهاية له:

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً "٤[٤].

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت، وليس كل احد موضعاً للسر، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب. وهم أيضاً لا يحكون هذه الأسرار لغيرهم، إذ إفشاء السر لؤم، وهل رأيت قط أميناً على اسرار الملك قد نوجى بخفاياه فينادى بها على الملا من الخلق، ولو جاز افشاء كل سر لما نهى النبي (ص) عن افشاء سر القدر، ولما خص أمير المؤمنين (ع) ببعض الأسرار، ولما قال (ص): **" لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً "** بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون.

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان: (أحدهما) المنع عن إفشاء السر، (ثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية. ونحن نحكي في فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض ما يرى أسباباً ووسائط، واقرارها بالعجز على انفسها، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله، ويفهم به على الاجمال وكيفية ابتناء التوكل عليه، ونرد لضرورة التفهم كلماتها الملوكتية إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن أصواتاً وحروفاً، فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد، وقد رأى وجهه أسود بالحبر: " لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقاً؟ ".

٣[٣] وفي نسختنا الخطية: (لأنها كلام يستمد)، ولكن الموجود في المطبوعة وفي نسخة احياء العلوم كما اثبتناه في المتن.

٤[٤] الكهف، الآية: ١٠٩.

فقال: " ماسودت وجهي، وإنما سوده الحبر، فاسأله لم فعل كذا؟ ".

فسأل الحبر عن ذلك، فقال: " هذا السؤال على القلم الذي أخرجني من مستقري ظلماً ".

فسأل القلم، فأحاله إلى اليد والأصابع، وهي إلى القدرة والقوة، وهي إلى الارادة، معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه، وبكونه مقهوراً مسخراً تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته.

ولما سأل الارادة، قال: " ما انتهضت بنفسي، بل بعثت على إشخاص القدرة وإنهاضها، وبحكم رسول قاهر ورد علي من حضرة القلب بلسان العقل، وهذا الرسول هو العلم، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم".

ولما سألها قال (العقل): " أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني اشعلت ".

وقال (القلب): " أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت ".

وقال (العلم): " أما أنا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري، فسل القلم الذي نقشني ورسمني على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل ".

وعند هذا تحير السائل وقال: " ما هذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج؟ فانى لا اعلم قلماً إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطاً إلا بالحبر، ولا سراجاً إلا من النار. واني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج، ولا اشاهد من ذلك شيئاً "

فقال له (العلم): " فاذن بضاعتك مزجاة، وزادك قليل، ومركبك ضعيف، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة، فان كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة: (أولها) عالم الملك والشهادة، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد والأصابع من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل وهو يشبه السفينة التي بين الأرض والماء، فلا هي حد اضطراب الماء، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم. (وثالثها) عالم الملكوت الاعلى، وهو من ورائي، فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله. وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة".

فقال له السائل السال: "قد تحيرت في امري ولست أدري اني اقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكني على قطع هذا الطريق؟ ".

فقال: " نعم: افتح بصرك، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوى، فان ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم. أما ترى النبي (ص) كوشف به وانزل عليه قوله تعالى:

" إقرأ باسم ربك الذي خلق... إلى قوله: إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم "٥[٥].

وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب. أو ماسمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت؟ وقد علمت ان الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه سائر الاقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط. بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الاعلى، فليست يده من لحم وعظم ودم، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه من صوت وحرف، ولا خطه من نقش ورسم ورقم، ولا حبره من زاج وعفص. فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والاصوات، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها؟ ".

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته، بعد الابتهال إلى ربه، فانكشف له القلم الالهي، فإذا هو كما وصفه العلم، ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولاذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر اصنفاف العلم، فشكر العلم وودعه، وسافر إلى حضرة القلم الالهي، وقال له:

٥[٥] العلق، الآية: ١، ٣ ـ ٥.

" أيها القلم! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى انهاض القدرة وإشخاصها وصرفها إلى المقدورات؟ ".

فقال له (القلم الالهي): " أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحالك إلى اليد؟ فجوابي مثل جوابه، فانى مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة: (يمين الملك)، فاسأله عن شاني فاني في قبضته وهو الذي يرددني، وأنا مقهور مسخر، فلا فرق بين القلم الاهلي والقلم الآدمى في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة ".

فقال السائل: " من يمين الملك؟ ".

قال القلم: " أما سمعت قوله تعالى:

" والسموات مطويات بيمينه "٦[٦].

قال: " نعم: سمعته ".

قال: " والاقلام أيضاً في قبضته وهو الذي يرددها ".

فسافر السائل من عند القلم، إلى يمين، حتى يشاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ورأى أنه يمين لا كالايمان، ويد لا كالايدي، واصبع لا كالاصابع، فرأى القلم متحركاً في قبضته، فسأله عن سبب تحريكه القلم

فقال: " جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة، إذ اليد لاحكم لها في نفسها، وإنما محركها القدرة ".

فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لاجلها ما قبلها فسألها عن سبب تحريكها اليمين.

فقالت: " إنما أنا صفة فاسأل القادر، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة ".

٦[٦] الزمر، الآية: ٦٧.

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل، وينطلق بالجرأة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودي من رواء سرادقات الحضرة:

" لايسأل عما يفعل وهم يسألون "٧[٧].

فغشيته دهشة الحضرة، فخر صعقاً في غشيته مدة، فلما أفاق قال: "سبحانك**!** ما أعظم شأنك واعز سلطانك، تبت اليك وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ومالي إلا أن أسألك واضرع اليك، وأقول:

(إشرح لي صدري) لأعرفك، **(واحلل عقدةً من لساني)**٨[٨] لأثنى عليك.

فنودى من وراء الحجاب: "إياك أن تطمع في الثناء، فان سيد الانبياء (ص) ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: (سبحانك لا اثني ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك). وإياك أن تطمع في المعرفة، فان سيد الاوصياء قال: **(العجز عن درك الادراك ادراك، والفحص عن سر ذات السر إشراك)**. فيكفيك نصيباً من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا ".

فعند هذا رجع السائل السالك، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها: " اقبلوا عذري فاني كنت غريباً جديد العهد بالدخول في هذه البلاد. والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته، وهو الأول بالاضافة إلى الوجود، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد، وهو الآخر بالاضافة إلى سير المسافرين اليه، فانهم لايزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى ان يقع الانتهاء إلى حضرته، فهو أول في

٧[٧] الأنبياء، الآية: ٢٣.

٨[٨] طه، الآية: ٢٥، ٢٧.

الوجود وآخر في المشاهدة وهو الظاهر بالاضافة إلى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، وهو الباطن بالاضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس ".

وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة إليه واستماع الكلام من أهله. ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول إليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه، فينبغي ان يرد مثله إلى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل، مثل ان يقال له: ان كل احد يعلم ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين، فاله العالم ومدبره واحد، إذ:

" لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا "[٩][٩]

فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده، وقد كلفوا الأنبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم.

ثم الحق ان هذا التوحيد الاعتقادي إذا قوى يصلح ان يكون عماداً للمتوكل وأصلا فيه، إذ الاعتقاد إذا قوى عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب، فيحتاج إلى من يحرسه بكلامه، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه، فلا يخاف عليه شيء من ذلك، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً.

(تنبيه) اعلم ان ما يبتني عليه التوحيد المذكور، أعني كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر. وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما

ذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا " ولا اشكال فيه إلا في أفعال الإنسان وحركاته"[١٠][١٠]

---

[٩][٩] الأنبياء، الآية: ٢٢.

فان البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له، لأنه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء، مع أنه لو كان مسخراً مقهوراً في جميع أفعاله وحركاته، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب. ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر، ولا يليق ذكرها هنا. والحق ان كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع١١[١١].

ومنها:

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الافكار فان كان مذموماً داعياً إلى الشر سمي (وسوسة)، وان كان محموداً داعياً إلى الخير سمي (إلهاماً).

وتوضيح ذلك: ان مثل القلب بالنسبة إلى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب، أو حوض تنصب إليه مياه مختلفة من الجداول، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة، أو مرآة منصوبة تجتاز إليها صور متباينة. فكما ان هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر. فلا تزال هذه اللطيفة الالهية مضماراً لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها، إلى ان يقطع ربطها عن البدن ولذاته، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحياته.

١٠[١٠] هكذا في المطبوعة وفي نسختنا الخطية والنسخة الأخرى: " ولا ريب في لزوم الاشكال في افعال الإنسان وحركاته".

١١[١١] هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التأريخية في سر الخلق، والحل الذي لم يسبق إليه البشر حتى عند فلاسفتهم الاقدمين والمتأخرين ما قاله امامنا الصادق (ع): "لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين" فان الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لاشريك له في خلقه، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله.

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلابد له من سبب، فان كان سببه شيطاناً فهو الوسوسة، وان كان ملكاً فهو الالهام. وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءاً وخذلاناً، وما يتهيأ به لقبول الالهام يسمى لطفاً وتوفيقاً. وإلى ذلك اشار سيد الرسل (ص) بقوله: **" في القلب لمتان**١٢[١٢]**:لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة من الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق"**.وبقوله (ص): **" قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ".**

فصل

(أقسام الخواطر ومنها الالهام)

الخاطر ينقسم إلى ما يختلج بالبال من دون ان يكون مبدأ للفعل: وهي الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة، وإلى محرك الارادة والعزم على الفعل، إذ كل فعل مسبوق الخاطر أولا، فمبدأ الأفعال الخواطر، وهي تحرك الرغبة والرغبة العزم، والعزم النية، والنية تبعث الأعضاء على الفعل، (والثاني) كما عرفت ان كان مبدأ للخير يكون إلهاماً ومحموداً، وان كان مبدأ للشر يكون وسواساً ومذموما. (والأول) له أنواع كثيرة:

(منها) ما يرجع إلى التمني، سواء كان حصول ما يتمناه ممكناً أو محالاً، وسواء كان المتمنى حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً، وسواء كان عدمه مستنداً إلى قضاء الله وقدره أو إلى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه ياليت لم يفعل كذا أو فعل كذا.

١٢[١٢] روى الحيدث في احياء العلوم ج٢ ص٢٣ هكذا: " في القلب لمتان: لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله سبحانه وليحمد الله. ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم "، ثم تلا قوله تعالى: " الشيطان يعدكم الفقر..." الآية.

وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا، وكذا الحديث الآتي:

في نهاية ابن الأثير: " في حديث ابن مسعود: لابن آدم لمتان: لمة من الملك ولمة من الشيطان. اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب، اراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه".

(ومنها) ما يرجع إلى تذكر الأحوال الغالبة، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيستر به، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والاسقام واختلال امر المعاش وسوء الانتظام، أو يذهب وهمه إلى حساب المعاملين أو جواب المعاندين، وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة.

(ومنها) ما يرجع إلى التطير، وربما بلغ حداً يتخيل كثيراً من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به، ويضطرب بذلك، وان لم تكن مشهورة بذلك عند الناس، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالباً إلى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب إلى ما يريده ويسره، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والاسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة. فيعتريه نوع اضطراب وانكسار، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصور التوسعة في الأموال والأولاد، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعان لها، فتنبسط وتهتز. وهذا شر الوساوس وأردؤها، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله.

(ومنها) ما يرجع إلى التفاؤل، وهذا ليس مذموماً. وقد ورد من رسول الله ـ (ص) ـ: أنه يحب التفاؤل، وكثيراً ما يتفاءل ببعض الامور.

(ومنها) الوسواس في العقائد، بحيث لا يؤدي إلى الشك المزيل لليقين، فانه قادح في الايمان كما تقدم. ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لايضر بالايمان ولا يؤاخذ به ـ كما يأتي ـ.

(تذنيب) قد ظهر مما ذكر: ان أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لابد وان يحصل منه ما هو مقدر، وكيف كان هو تضييع لوقته، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله، فهو مغبون. وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات. مع ان الغالب ليس كذلك، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفاً لغرضه، أو من يتوهم انه ينازعه ويخالفه في رأيه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس

في حبه حتى في أهله وولده، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم فلا يزال في شغل دائم مضيع لدينه ودنياه.

فصل

(المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس)

قد عرفت ان الواسواس أثر الشيطان الخناس، والالهام عمل الملائكة الكرام. ولا ريب في ان كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي، وانما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالا فيدخل بالوسوسة، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام. فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس. لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية، إلى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس، وحصول الغلبة انما هو بغلبة الهوى أو التقوى فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده قال رسول الله (ص) :- **" خلق الله الانس ثلاث أصناف: صنف كالبهائم، قال الله تعالى:**

" لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها١٣[١٣] **".**

وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ".

ولاريب في ان أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآجلة. والسر فيه: ان سلطنة الشيطان سارية في لحم الإنسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه، كما ان الشهوات ممتزجة بجميع ذلك، ومن هنا قال

١٣[١٣] الأعراف، الآية: ١٧٩.

رسول الله (ص) ـ: **" ان الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم "**، وقال الله سبحانه ـ حكاية عن لسان اللعين ـ:

" لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم١٤[١٤] **" "**.

فالخلاص من أيدي الشياطين يحتاج إلى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة، فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم

١٤[١٤] الأعراف، الآية: ١٦، ١٧.

تسويلات الشيطان ووساوسه
العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة
علاج الوساوس
ما يتم به علاج الوسواس
ما يتوقف عليه قطع الوسواس
حديث النفس لا مؤاخذة عليه

فصل

(تسويلات الشيطان ووساوسه)

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة، فالأبواب المفتوحة للشيطان إلى القلب كثيرة، وباب الملائكة واحدة، ولذا روي ان النبي ـ (ص) ـ: خط يوماً لأصحابه خطاً وقال: **" هذا سبيل الله "** ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال: **"هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه "**، ثم تلا قوله سبحانه:

" وأن هذا صراصي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله "١[١]

ثم لسهولة ميل النفس إلى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية إلى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً، والطرق المؤدية إلى الحق التي هي باب الملائكة خفية. فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً، فما أصعب بالمسكين ابن آدم ان يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً، على ان اللعين ربما يلبس بين طريق الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه، لا وسوسة الشيطان وإغواؤه، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم، كما يلقى في قلب العالم ان الناس لكثرة

غفلتهم أشرفوا على الهلاك، وهم من الجهل موتى، ومن الغفلة هلكى، أما لك رحمة على عباد الله؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة! فكيف تخفي نعم الله تعالى ولا تظهرها؟ فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه، إلى ان يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ، فيدعوه إلى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ، والسرور بتملق الجماعة، والفرح بمدحهم اياه، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه، لا يزال في اثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة، ولذة الجاه وحب الرياسة، والتعزز بالعلم والفصاحة، والنظر إلى الخلق بعين الحقارة، فيهدي الناس ويضل نفسه ويعمر يومه ويخرب أمسه، ويخالف الله ويظن انه في طاعته، ويعصيه ويحسب انه في عبادته، فيدخل في جملة من قال الله فيهم:

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً "٢**[٢]**.

ويكون ممن قال رسول الله ـ (ص) ـ فيهم: **" ان الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم، و " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر "**. فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلاّ ببصيرة باطنة

نورانية وقوة قدسية ربانية، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة.

فصل

(العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة)

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة وقد قيل إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات: (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها. (وثانيها) كالنظر إلى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والأوهام، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الايمن من النفس ويقابله النظر إليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الأيسر منها، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية، لأنها مبادئ العلوم اليقينية، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية، لأنها مبادئ المقدمات السفسطية، (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الاطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وارباب التعطيل والتشبيه من الكفار. فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور. (ورابعها) كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والاعيان الشريفة كالعلم بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر، والبعث، وقيام الساعة، ومثول الخلائق بين يدي الله تعالى، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، في مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات، فان الاول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوي، والثاني يشبه الابالسة المطرودة عن باب الله، الممنوعة من ولوج السماوات، المحبوسة في الظلمات، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم.

فصل

(علاج الوساوس)

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي، فالعلاج في دفعها ان يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه، ويتذكر أن الصبر عما تدعو إليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذف شرارة منها إلى الأرض احرقت نبتها وجمادها فإذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الامور الحقة، إذ يقينه الحاصل من قواطع

البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه، بحيث يرجع هارباً خائباً. فان التهاب نيران٣[٣] البراهين بمنز

رجوم الشياطين، فإذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحمر من الاسد.

وإن كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار، من دون ان تكون مبادىء الافعال، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والاشكال، وقد اعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة، وربما قيل بتعذره، ولكن الحق امكانه، لقول النبي ـ (ص) ـ: **" من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشئ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر "** ولولا امكانه لم يتصور ذلك.

والسر في صعوبة قطعها بالكلية ان للشيطان جندين: جنداً يطير وجنداً يسير، والواهمة جنده الطيار، والشهوة جنده السيار، لان غالب ما خلقنا منه هي النار التي خلق منها الشيطان، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له.

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة، إذ لا تتصور نار مشتعلة لاتتحرك، بل لاتزال تتحرك بطبعها، فشأن كل من الشيطان والقوتين ان يتحرك ولا يسكن، إلا ان الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما ـ اعني النار ـ شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة، إلا انهما استعدتا لقبول الحركة منه، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما، ثم الشهوة لكون النارية فيها اقل فسكونها ممكن، فيحتمل ان يكف تسلط الشيطان عن الإنسان فيها، فيسكن بالكلية عن الهيجان. واما الواهمة فلا يمكن ان يقطع تسلطه عنها، فيمتنع قطع وسواسه عن الإنسان، إذ لو امكن قطعه أيضاً بالمرة، لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له، وانقياده له هو سجوده له، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة، ووضع الجبهة حالته وعلامته، وكيف يتصور ان يسجد الملعون لاولاد آدم عليه السلام مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من ان يطمئن عن حركته ساجداً له معللا بقوله:

" خلقتني من نار وخلقته من طين "**[٤]**

فلا يمكن ان يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة، بل هو من المنظرين لاغوائهم إلى يوم الدين، فلا يتخلص منه احد الامن اصبح وهمومه هم واحد فيكون قلبه مشتغلاً بالله وحده، فلا يجد الملعون

مجالاً فيه، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء٥[٥] عن سلطنة هذا اللعين، فلا تظنن انه [redacted]

يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فانك ان اردت ان تخلى القدح عن الهواء من غير ان تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يدخل فيه الماء يخلو عن الهواء، فكذلك القلب إذا كان مشغولاً بفكر مهم في الدين يمكن ان يخلو من جولان هذا اللعين، واما لو غفل عن الله ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلاّ الشيطان، كما قال سبحانه:

" ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين "**[٦]**

وقال رسول الله ـ (ص) ـ: **" إن الله يبغض الشاب الفارغ "**، لان الشاب إذا تعطل عن عمل مباح

يشغل باطنه لابد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان

توالداً أسرع من توالد الحيوانات، لان الشيطان طبعه من النار، والشهوة في نفس الشاب

كالحلفاء٧[٧] اليابسة، فإذا وجدها كثر توليده وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً.

فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل انسان من جانب إلى جانب، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً، والفرار عن الاهل والمال والولد والجاه والرفقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية، وجعل الهموم هماً واحداً هو الله. وهذا أيضا غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله، فان استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه، وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلاّ الاوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والاذكار والادعية والقراءة. ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، إذ الاوراد الظاهرة لا تستغرق القلب، بل التفكر بالباطن هو الذي يستغرقه وإذ فعل كل ذلك لم يسلم له من الاوقات إلا بعضها، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر، كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة.

فصل

(ما يتم به علاج الوسواس)

لو امكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فانما يتم بأمور ثلاثه:

(الاول) سد الابواب العظيمة للشيطان في القلب، وهي الشهوة، والغضب، والحرص، والحسد، والعداوة، والعجب، والحقد، والكبر، والطمع، والبخل، والخفة والجبن، وحب الحطام الدنيوي الدائر، والشوق إلى التزين بالثياب الفاخرة، والعجلة في الامر، وخوف الفاقة والفقر، والتعصب بغير الحق، وسوء الظن بالخالق والخلق... وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات، فانها ابواب عظيمة للشيطان، فإذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به، وإذا سدت لم يكن له إليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز.

(الثاني) عمارة القلب باضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الاوصاف، والملازمة للورع والتقوى، والمواظبة على عبادة ربه الاعلى.

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان، فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته، سوى خطراته واجتيازاته، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية، ولو لم يسد أبوابه اولا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل، ولولاهما لم يظهر القلب سلطانه، بل كان مجرد حديث نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه، فان مثل الشيطان مثل كلب جائع، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب، ومثل الذكر مثل قولك له: إخسأ. ولا ريب في أن الكلب إذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك: إخسأ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول مالم يصل إلى مطلوبه. فالقلب الخالى عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر، وأما القلب المملو منه فيدفع إلى حواشيه، ولايستقر في سويدائه لاستقرار الشيطان فيه وايضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوي، فكما لا تنفع الاغذية المقوية مالم ينق البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة، كذلك لاينفع الذكر مالم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان متطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار الورع والتقوى، كما قال سبحانه.

" ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون "٨**[٨]**

وقال سبحانه:

" إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب "٩**[٩]**

ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل احد حاضر القلب في الصلاة، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة، إذ منهى كل ذكر وعبادة انما هو في الصلاة مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات، وربما لايتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضماراً لجولانهم، ويقلبونه شمالا ويميناً بحيث لايجد فيه ايماناً ولا يقيناً ويجاذبونه إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين، ويمرون به في أو دية الدنيا ومهالكها، ومع ذلك كله لاتظنن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلا، فان الأمر ليس كذلك، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة:

(الأولى) اللساني فقط.

(الثانية) اللساني والقلبي، مع عدم تمكنه من القلب، بحيث احتاج القلب إلى مراقبته حتى يحضر مع الذكر، ولو خلي وطبعه استرسل في أودية الخواطر.

(الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة، بل احتاج ذلك إلى سعى وتكلف، كما احتيج في الثانية اليهما في قراره معه ودوامه عليه.

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر، فلا يلتفت القلب إلى نفسه ولا إلى الذكر، بل يستغرق بشراشره في المذكور، واهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات إلى الذكر حجاباً شاغلا. وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض لكونها طرقاً إلى ما هو المطلوب بالذات.

فصل

(ما يتوقف عليه قطع الوساوس)

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولا، ثم المواظبة على ذكر الله: إن بعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت إلى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقاً، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية، ويشملها خطاب:

" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً "١٠**[١٠]**

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها، وتقابلها النفس المنكوسة المملوة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة، ويتصاعد منها دخان مظلم إليها، فتملأ جوانبها ويطفىء نور اليقين ويضعف سلطان الايمان، حتى

تخمد انواره بالكلية، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداًً، وتكون دائماً محل الوساوس الشيطانية، ومثلها لا يرجع إلى الخير أبداًً، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع، وإلى مثلها أشير بقوله تعالى:

" أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً "١١**[١١]**

وبقوله تعالى:

" ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة "١٢**[١٢]**

وبقوله سبحانه:

" إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً "١٣**[١٣]**

وبقوله تعالى:

" وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون "١٤**[١٤]**

وبقوله عز وجل:

" لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون "[١٥][١٥]

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة، فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها إلى الشر، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين، إلى أن تصل إلى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر. ثم النفس الأولى في غاية الندرة، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم، والثالثة نفوس اكثر المسلمين، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الأولى، وآخرهما بالثانية

فصل

(حديث النفس لا مؤاخذة عليه)

قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة في احداث ظلمة وكدرة في النفس، إلا أن مجرد الخواطر ـ أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا اختيار، كالميل وهيجان الرغبة ـ لا مؤاخذة عليهما، ولا يكتب بهما معصية لعدم دخولهما تحت الاختيار، فالمؤاخذة عليهما ظلم، والنهي عنهما تكليف بما لايطاق، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذ به لكونه اختيارياً، وكذا الهم بالفعل والعزم عليه، إلا أنه إن لم يفعل مع الهم خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة، وإن لم يفعل لمانع منعه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة.

والدليل على هذا التفصيل: أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر، فما روي في الكافي: **" أنه جاء رجل إلى النبي (ص) فقال يارسول الله: هلكت. فقال له هل اتاك الخبيث فقال لك من خلقك؟ فقلت الله تعالى، فقال لك: الله من خلقه؟ فقال له: اي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال رسول الله (ص). ذاك والله محض الإيمان "** ومثله ماروي: **أن رجلا أتى رسول الله (ص) فقال " يارسول الله نافقت: فقال والله ما نافقت! ولو نافقت ما أتيتني تعلمني، ما الذي رابك؟ أظن أن العدو الحاضر أتاك، فقال: من خلقك؟ فقلت: الله تعالى خلقني. فقال لك: من خلق الله؟ فقال: أي والذي بعثك بالحق لكان كذا، فقال: إن الشيطان أتاكم من قبل الاعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده ".** وقريب منه ماروي: **أن رجلا كتب إلى أبي جعفر (ع) يشكو إليه لمماً يخطر على باله فأجابه في بعض كلامه: " إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لابليس عليك طريقاً. قد شكى قوم إلى النبي (ص) لمماً يعرض لهم لان تهوى بهم الريح أو يقطعوا أحب اليهم من أن يتكلموا به، فقال رسول الله: أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم! قال: والذي نفسي بيده إن ذلك لصريح الايمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله ولا حول ولاقوة إلا بالله "** وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت، فقال. **" لا شىء فيها، تقول لا اله إلاّ الله ".** وعن جميل بن دراج قال: قلت للصادق (ع): **انه يقع في قلبي أمر عظيم، فقال: " قل لا اله إلاّ الله "، قال جميل فكلما وقع في قلبي قلت لا اله إلاّ الله، فيذهب عنى.**

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ماروى. انه لما نزل قوله تعالى.

" وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله "١٦**[١٦]**

جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله (ص) وقالوا كلفنا مالا نطيق، ان احدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت في قلبه، ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله (ص). **" لعلكم تقولون كما قال بنو**

اسرائيل. سمعنا وعصينا، قولوا. سمعنا وأطعنا، فقالوا. سمعنا وأطعنا، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى.

" لا يكلف الله نفساً إلا وسعها "١٧**[١٧]**

وما روي عن أمير المؤمنين (ع) في قوله سبحانه.

" وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ". **" ان هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقبلها رسول الله (ص) وعرضها على امته فقبلوها.**

فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها، قال. أما إذا قبلت الاية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الامم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك، فحق علي أن أرفعها عن أمتك، وقال عز من قائل: لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها " وما روي عن النبي (ص) أنه قال **" وضع عن امتى تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لايعلمونه، وما لا يطيقونه، وما اضطروا عليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد مالم يظهر بلسان أويد "**. وما روي أنه سئل الصادق (ع) عن رجل يجيء منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى؟ فقال (ع). **" ان الله تعالى اكرم من أن يستغلق على عبده"**، والمراد من الغضب فيه. الغضب الذي سلب الاختيار.

وبالجملة القطع حاصر بعدم المؤاخذة والمعصية على مالا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق، وان لم ينفك عن إحداث خباثة في النفس.

وأما١٨[١٨] على ان يكتب سيئة على الاعتقاد والهم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا

لخوف من الله، فهو ان كلاً من الاعتقاد والهم بالمعصية فعل من الافعال الاختيارية للقلب، وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً، قال الله سبحانه:

" إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا "١٩**[١٩]**

وقال سبحانه:

" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم "٢٠[٢٠]

وقال رسول الله (ص): **" إنما يحشر الناس على نياتهم"**. وقال (ص): **" إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار " قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: " لأنه أراد قتل صاحبه "** وقال (ص): **" لكل امرىء ما نوى "** والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة، وإطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفاً من الله، لما يأتي من أنه في

هذه الصورة تكتب بها حسنة، وكيف لا يؤاخذ على اعمال القلوب مع ان المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع، مع كونها أفعالاً قلبية، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها أجنبية كان عاصياً وإن كانت زوجته.

وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله، فما روي عن النبي (ص) أنه قال: **" قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد ان يعمل سيئة وهو ابصر، فقال: راقبوه فان عملها فاكتبوها عليه بمثلها، وان تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلي ".** وما روي عن الإمام محمد بن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ: **" ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة "**، وقوله: **" لم يكتب عليه "** محمول على صورة عدم العمل خوفاً من الله. لما تقدم من انه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة. وما روي عن الصادق (ع) انه قال: **" مامن مؤمن إلا وله ذنب يهجره زماناً ثم يلم به وذلك قوله تعالى:**

" إلا اللمم "٢١[٢١]

وقال: " واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه "، وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر.

الخاطر المحمود والتفكر

مجاري التفكر في المخلوقات

فصل

(الخاطر المحمود والتفكر)

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعاً وعقلاً، لأن القلب إذا كان مشغولا بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر، فإذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة اليه، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً في غاية الندرة، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وان كان مشغولا بالوساوس الباطلة، كما يأتي تحقيقه.

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقا بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها، وإلا كان راجعا اما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته، أو إلى التدبر الاجمالي الكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه تعالى، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا.

واذا عرفت ذلك فاعلم: أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذي هو الخاطر المحمود، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس. وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الافعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الافعال أيضاً كما يأتي ذكرها في باب النية، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر.

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة إلى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد إلى الله تعالى وفيما يبعده عنه، فلنشر إلى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية، فنقول:

التفكير: هو سير الباطن من المبادىء إلى المقاصد، والمبادىء: هي آيات الآفاق والأنفس، والمقصد: هو الوصول إلى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان إلى اوج الكمال إلاّ بهذا السير، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار، ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية، وهو أجنحة النفس للطيران إلى وكرها القدسي، ومطية الروح للمسافرة إلى وطنها الأصلي، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره وتنجلي أنوار العلم واسراره، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه:

" أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق "[١] **[١]**

وقوله تعالى:

" أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء "[٢] **[٢]**

وقوله تعالى:

" فاعتبروا يا أولي الأبصار "[٣] **[٣]**

وقوله تعالى:

" قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق "[٤] **[٤]**

وقوله تعالى:

---

١ [1] الروم الآية: ٨.

٢ [2] الأعراف، الآية: ١٨٥.

٣ [3] الحشر، الآية: ٢.

٤ [4] العنكبوت، الآية:٢٠.

" إن في خلق السموات والأرض لآيات لأولى الألباب "٥**[٥]**

وقوله تعالى:

" وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون "٦**[٦]**

وقوله تعالى:

" الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض "٧**[٧]**

وقول رسول الله (ص): **" التفكر حياة قلب البصير"** وقوله (ص): **" فكرة ساعة خير من عبادة سنة "**، ولا ينال منزلة التفكر إلاّ من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة، وقوله (ص): **" أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته "**٨**[٨]**، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب افعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته، لا التفكر في ذاته، لكونه ممنوعا عنه في الاخبار، ومعللا بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وقد ورد: "إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم ان تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه". واشتهر عن النبي (ص) انه قال: **" تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره "**، وقول أمير المؤمنين (ع): **" التفكر يدعو إلى البر والعمل به "**, وقوله (ع): **" نبه بالتفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك "** وقول الباقر (ع): **" باجالة الفكر يستدر الرأي المعشب "** وقول الصادق (ع): **" الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات، وضياء للقلوب وفسحة للخلق، واصابة في صلاح المعاد،**

---

٥ [5]آل عمران، الآية: ١٩٠.

٦ [6] الذاريات، الآية: ٢٠ ـ ٢١.

٧ [7] آل عمران، الآية: ١٩١.

٨ [8] روى هذه الاحاديث في الكافي في (باب التفكر) عن أبي عبدالله (ع) كما هنا.

واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها " وقول الرضا (ع): **" ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في امر الله عز وجل ".**

تكملة

(مجاري التفكر في المخلوقات)

الموجودات بأسرها مجاري التفكر ومطارح النظر، إذ كل ما في الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادى، فلكى أو عنصرى، بسيط أو مركب، فعل الله وصنعه، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الاعصار لاستنباطها، انقضت اعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها.

ثم ان الموجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف اصله فلا يمكننا التفكر فيه، وإلى ما يعرف اصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه. وهو إلى مالايدرك بحس البصر ويسمى بـ (الملكوت)، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة، ولها أجناس وطبقات لايحيط بها إلا موجدها، وإلى ما يدرك به، وله أجناس ثلاثة: عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع، ويتشعب كل نوع إلى أقسام واصناف غير متناهية، مختلفة في الصفات والهيئات، واللوازم والآثار والخواص، والمعاني الظاهرة والباطنة، وليس شيء منها إلا وموجده هو الله سبحانه، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى.

وكل ذلك مجارى التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته، فمن قدم

قدم حقيقته، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته، وشاهد مملكة ربه الودود، لظهر له في كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة، بهر منها عقله ووهمه، وحسر دونها لبه وفهمه.

ثم لاريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم، مبتدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف، حتى ينتهي إلى أسفل العوالم وأخسها، وهو عالم الأرض بما فيه، وكل عالم أسفل لاقدر له بالنسبة إلى ما فوقة، فلا قدر اللأرض بالنظر إلى عالم الجو، ولا للجو بالقياس إلى عالم السماوات، ولا للسماوات بالنسبة إلى عالم المثال، ولا للمثال بالنظر إلى عالم الملكوت، ولا للملكوت بالقياس إلى الجبروت، ولا للجميع بالنسبة إلى مالا سبيل لنا إلى دركه تفصيلا واجمالاً من عوالم الالوهية، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة، ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدة والعيان.

ثم أخس العوالم الذى عرفت حاله ـ أعنى الأرض ـ لاقدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد، بالنظر إلى نفسها، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية. وأضعف انواع الحيوان البعوضة والنحل، وأشرف أنواعه الإنسان فنحن نشير إلى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها، وكيفية التفكر فيها، ليقاس عليها البواقي اجمالا. فان بيان مجارى التفكر باسرها في حين المحال، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من اجلة العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجارى التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه، فسطروا فيه الأساطير وملاوا منه الطوامير، وخاضوا في غمرات بحار الأفكار وغاصوا في تيار لجج الانظار، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر إلى ماهو الواقع إلا صفر اليدين ورجعو آخر الامر (بخفي حنين). ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من اعضائها على التفصيل لخرجنا عن وضع الكتاب، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الاطناب، فنشير اجمالا إلى بعض مافيها من الحكم والعجائب، تنبيهاً للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الالهية، فنقول:

أما (البعوض) ـ فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وإذ خلق له خرطوماً كخرطومه، وخلق له مع صغره جميع الاعضاء التي خلقها للفيل بزيادة

جناحين، فقسم اعضاءه الظاهرة، فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه اعضاء الغذاء، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب في الحيوانات العظيمة ـ كما يأتي في الإنسان ـ ثم هداه إلى غذائه الذي هو دم الإنسان وغير من الحيوانات، فانبت له آلة الطيران إلى الإنسان، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس، وهداه إلى الامتصاص من مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه، وخلق خرطومه ـ مع دقته ـ مجوفاً حتى يجرى فيه الدم الصافي الرقيق وينتهى إلى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر أعضائه، وعرفه أن الإنسان يقصده بيده فعليه حيلة الهرب، وخلق له السمع الذي يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه، فيترك المص ويهرب، وإذا سكنت اليد عاد، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه، ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره، كانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرهما عن الغبار والقذى، أولا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميها إلى اطراف الاهداب. فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة مالو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها.

أما (النحل) ـ فانظر كيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت:

" من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون "٩**[٩]**

واستخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء والاخر شفاء وانظر في عجائب أمرها في تناولها الازهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والاقذار، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم، وأكبرهم شخصاً، وهو أميرهم. وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف

---

٩ [9] النحل، الآية: ٦٨.

بينهم، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة. ثم انظر إلى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال المسدس، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين، وهو أن أوسع الاشكال وأجودها المستدير، ثم ما يقرب منه، فان المربع تخرج منه زوايا ضايعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لايبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، فهذه خاصية هذا الشكل. فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها، فسبحانه ما أعظم شأنه، وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به.

وأما (الإنسان) ـ فنقول: لاريب في أن أول كل انسان قطرة من ماء قذرة، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر، فالقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الانثى وقادهما بسلاسل الشهوة إلى الاجتماع، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة، ولرحم الانثى قوة جاذبة، حتى جذبتها من فم الاحليل إلى نفسها، وامتزجت بمني الانثى بحيث صارتا واحدة، واستقرت في الرحم، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر، ومبدأ انعقادها في مني الانثى، فهما بالنظر إلى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس إلى الجبن، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة، إلا ان الأولى في الذكوري والثانية في الانوثي أقوى، وإلا لم يتحدا شيئاً واحداً، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزأ من الولد. فلو كان مزاج الانثى ذكوريا كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حاراً، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيراً من المنفصل عن كليتها اليسى، فإذا اجتمعا في الرحم، وكان مزاج الرحم قويا في الامساك والجذب، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد، والمنفصل من اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد، فيختلق الولد، وبهذا تتصحح ولادة مريم البتول ـ عليها السلام ـ حيث تمثل لها روح القدس بشراً سويا حسن الصورة، فمع تحقق ما

ذكر لها تأيدت به ـ أي بروح القدس ـ وسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس.

ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم، وشبه بالعجين إذا ألصق بالتنور، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا، كالبذر إذا نبت من الأرض، فصارت نطفة، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق إليها، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة. ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيها بالدم الجامد، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة. ثم أظهر فيها رسوم الاعضاء وشكلها وصورها، فاحسن تصويرها، فقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة من العظام والاعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم.

ثم ركب الاعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والاعصاب، فدور الرأس، وشق البصر والسمع والفم والانف وسائر المنافذ، ومد اليد والرجل، وقسم رؤسها بالاصابع وقسم الاصابع بالأنامل، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والامعاء وغيرها من الاعضاء على شكل مخصوص، وجعل لكل واحد منها عملا معينا وفعلا مخصوصا، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الاحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس، منضم في صرة، كفاه على خديه، ومرفقاه على حقويه، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه، وهو كشبه نائم، سرته متصلة بسرة امه يمتص منها الغذاء، ووجهه إلى وجهها إن كان انثى وإلى ظهرها إن كان ذكراً. فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم، ولا للأب والام، ولا يرى داخل النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل إليه أثر نقشه، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها: تصوروني في ظلمة الاحشاء مغموسا بدم الحيض، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينقش النقاش اجفاني وحدقتي، ويصور المصور خدي وشفتي، ولا يزال يظهر علي نقش بعد نقش وصورة بعد صورة، ولا أرى نقاشا ولا مصوراً، أو لاتتعجبون من هذا النقاش الذي لايحتاج إلى تماس ومزاولة ولا يفتقر إلى آلة ومباشرة، أو لا تنتقلون من عجيب صنعه إلى عظيم قدرته وجسيم عظمته، اوليس

لكم اعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون، فكيف تنظرون إلى تكون اعضائي وعجائبها ولا تعتبرون؟!

فانظر الآن ـ ياحبيبي ـ في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة، وجعلها قواماً ودعامة للبدن، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تتكسر عند الحركات العنيفة، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة، تارة بجملة بدنه، وتارة ببعض أعضائه، لم يخلقه من عظم واحد، بل جعل له عظاماً كثيرة بينها مفاصل، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمتاً، وان جعل فيه المسام والخلل التي لابد منها، وما يحتاج إليه للحركة أيضاً، زاد في تجويفه ليكون أخف، وجعل تجويفه في الوسط واحداً لئلا يحتاج في وصول الغذاء إليه إلى التجاويف والخلل والمتفرقة، فيصير رخواً، بل صلبه مع تجويفه، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة، وما كانت الحاجة فيه إلى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل، وما كان الاحتياج فيه إلى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائماً، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة.

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين وألصقها بالآخر، كالرباط، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد، ليدخل فيها وينطبق عليها، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرك جزءاً من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب، ليحسن اتصال الصلب باللين، فلا يتأذى منه، خصوصا عند الضربة والضغطة، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة فلا تتراض لصلابتها.

ثم انظر ـ يا اخي ـ في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم، فانها خلقت على نوعين: (أحدهما) الشرايين: وهي العروق الضوارب المتحركة منبتها القلب. ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لا يصال الروح والحياة منه إليها، ولها حركتان، انقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب وانبساطية يجذب بها صافي النسيم اليه، ليستريح، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح، فاوجب الحكمة الالهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق، لقوة حركة الروح، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية، لئلا يتحلل شيء منها بتحلل محلها. وواحد من هذه الشرايين ويسمى الشريان الوريدي، لما كان حاملا لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب فيغوص فيها ويصير شعباً، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته. فلم تكن حاجة إلى زيادة استحكامه، على أن الرية تحتاج إلى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة، وكثرة الصلابة منافية لذلك. (وثانيهما) العروق الساكنة: وتسمى الاوردة، وشأنها جذب الغذاء من المعدة إلى الكبد ومنه إلى سائر الأعضاء، وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة فلا يخشى انشقاقها. وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشرياني ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الأيمن من القلب، فكان اللازم زيادة وثاقته لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته، وهو الذي يأتي بغذاء الرية إلى القلب، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدي منه الغذاء ويذهب به إلى الرية.

فانظر ـ يا أخي ـ إلى عجيب حكمة ربك فان حامل غذاء الرية مادام نافذاً في القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين، وإذا خلص عنه إلى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد، فسبحانه ما أجل شأنه واعظم برهانه.

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه، حيث ركبه من عظام مختلفة الاشكال والصور، والف بعضها إلى بعض حتى استوت كرة كما تراه، وجعله مجمع الحواس، ولذا جعله مستديراً،

لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس إلى ذي الزاوية، واعظم مساحة منه مع تساوي احاطتهما وجعل استدارته إلى طول، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت، والف قحفه١٠[١٠] من ستة اعظم: اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤن، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذي هو السقف، لان الصدمات عليها أكثر، وتخلخل اليافوخ مما لابد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ)١١[١١] وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكثها إلى الصداع وغيره من الأمراض الدماغية، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج إلى زيادة وثاقة.

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تتكسر، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية، وجعل مقدمه الذي هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة، لأن الحركة لا تحصل إلا بالقوة، والقوة إنما تحصل بالصلابة. ثم جلل الدماغ بغشاءين: (أحدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره، و(ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف إلى ظاهره، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه، وجعل بين جزئي الدماغ المقدم والمؤخر حجاباً لطيفا ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه، وخلق تحت الدماغ

---

١٠ [10] القحف: العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال في القاموس: " ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء".

١١ [11] هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الاخرى.

بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة١٢[١٢] شبيهة بالشباك، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد إلى الدماغ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح، ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج، ثم يتخلص إلى الدماغ على التدريج، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ، ولم يناسبا جوهره، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها.

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة. ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها، وكان اللازم ايصالهما منه اليهما، ولم يكن ذلك ممكنا بدون واسطة في الايصال، فخلق (الأعصاب) من جوهره، ووصلها منه إلى سائر الأعضاء من العظام وغيرها، ليفيدها الدماغ بتوسطها حسا وحركة، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن، وأيضا لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة، بل بعد اخلاطها باللحم والرباط، لئلا يتأذى من صلابته.

ثم لما كان نزول جميع الاعصاب التي يحتاج إليها من الدماغ موجبا لثقل الرأس وعظمه، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع)، وجعل في أسف القحف ثقبا وأخرجه منها، وخصه بالعنق والصلب، واخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج إليها إلى الأعضاء. فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجاري منه، والأعصاب كالجداول. والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول.

ثم انظر ـ يا حبيبي ـ كيف خلق (العين) وفتحها واحسن شكلها ولونها وهيئتها، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل امر الابصار، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع اكنافها وتباعد اقطارها، وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقذاء عنها، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع إليها عند انطباقها، وجعل الجفن الأسفل

---

١٢ [12] الموجود في نسختنا الخطية: " فسحة" بدل (نسيجة).

أصغر من الأعلى، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه، وأما الاسفل فغير متحرك، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل.

ثم زين الأجفان: (بالأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الاشياء التي لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين ـ كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالأقذاء ـ فيفتح العين أدنى فتح، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه، فتحصل الرؤية مع دفع القذى.

ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما، يؤذى، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الاصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموجه ـ كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شيء ـ حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع، فيدرك الصوت. وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها، وخلق فيها جرماً نتنا عفنا لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها.

ثم تأمل كيف زين الوجه: (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل.

وزين وجه الرجل بـ(اللحية) ووجه المرأة بعدمها، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة، وهذا من عجائب الحكمة.

وزين الوجه برفع (الأنف) من وسطه، وحسن شكله وفتح منخريه، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق الهواء الطيب الصافي، ويدفع الهواء الحار الدخاني، ترويحا لقلبه، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالبا إلى أحدهما، ويبقى الآخر مفتوحا، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها.

ثم انظر إلى (الفم) وعجائبه وإلى اللسان وغرائبه، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم، وأودعه اللسان وجعله ناطقا معربا عما في القلب ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الاصوات واخراج الحروف المتباينة، وجعل له قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها

الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها. وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر، فاحكم اصولها، وحسن لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب، كالدرر المنظمة، مختلفة الاشكال باختلاف الاغراض والمقاصد، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة إلى الكسر وتارة إلى القطع واخرى إلى الطحن فقسم الاضراس إلى عريضة طواحن كالاضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات، وإلى ما يصلح للكسر كالانياب. والاضراس التي في الفك الأعلى لما كنت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو اربعة، والتي في الفك الاسفل اكتفى في اصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج، وجعل لسائر الاسنان أصلا واحداً لعدم ثقل فيها. ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى، وهو ثابت لا يتحرك، فيتم الطحن بذلك. فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية، لدوران الاعلى منها على الاسفل. والحكمة في تحرك الاسفل دون الاعلى: أن الأعلى مجمع الدماغ والحواس، فتحركه كان موجباً لاذيتهما واضطرابهما، وايضاً هو مفصل الرأس والعنق، فلو تحرك لم يستحكم، مع أن الوثاقة فيه لازمة ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً إلى تحركه فيما تحت الأسنان، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة. ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه.

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الاصوات، وجعلها مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته، حتى اختلفت بها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة.

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس، وكبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان، لينطبق البعض على البعض، ولما كان اكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله

سلسة، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب، لتكون حركاته أسرع، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به.

ثم انظر إلى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الاكل، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ، ثم هيأ (المرىء)١٣[١٣] والحنجرة، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى إلى المعدة، وإذا ورد عليها لايصلح لان يصير عظماً ولحماً ودماً على هذه الهيئة، بل لابد أن ينطبخ انطباخاً تاماً تتشابه أجزاؤه، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الابواب، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الاربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم، حتى يصير كيلوساً١٤[١٤] أي جوهراً سيالا ليشبه ماء الكشك١٥[١٥] الثخين.

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لايصال صفو ماطبخ في المعدة إلى الكبد قسمين من العروق: (احدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة بالمعاء المسماة بـ(ما ساريقا)١٦[١٦]، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها، و(ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في اجزائه، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد، فإذا انصب خالص الكيلوس في الماساريقا يوصله إلى باب الكبد، وينصب منه إلى العروق الليفية المتفرقة في جوهر الكبد، فتستولى قوة الكبد على هذا الكيلوس، بحيث يلاقي كله كله، ولذا يصير فعله فيه اشد

---

١٣ [13] هو الخرطوم المتصل بالاوداج الاربعة إلى الحنجرة.

١٤ [14] كلمة يونانية، المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخاً ناقصاً.

١٥ [15] ماء الكشك: هو ماء الشعير.

١٦ [16] أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء. والكلمة يونانية.

واسرع، فيمتصه ويجذ به إلى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة، متى ينصبغ بلون الدم، ومن هذا الطبخ يحصل شيء كالرغوة وهي (الصفراء)، وشيء كالدودي وهو (السوداء)، وشيء كبياض البيض وهو (البلغم)، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الاول أيضاًَ، وقد يصير شيء من هذا البلغم إلى الكبد مع عصارة الطعام، ويبقى المتصفى من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال، وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً في الكبد، وجعل عنقي الآخرين داخلاً في تجويف الكبد، ولم يجعل عنقي الكليتين داخلا في تجويفه، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائتيه بعد الطلوع من العروق الدقيقة الشعرية.

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه إلى الكليتين، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كماً وكيفاً لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية، ويندفع باقيها إلى المثانة، ومنها إلى الاحليل. وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد، وتقذفها من منفذ آخر لها إلى الامعاء، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الاثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه إلى الكبد، فينضغط حتى تندفع منها الاثقال، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية، وصفرتها لذلك. وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحدب الكبد منه الرسوب السوداوي ويحيله حتى يكتسب قبضاً وحموضة، ثم يرسل منه في كل يوم شيئا إلى فم المعدة لتتنبه بالجوع، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه، ثم يخرج بخروج الثقل أيضاًَ. وأما (الدم) فيتوجه إلى الاعضاء وتوزع عليها في شعب العرق الاجوف العظيم النابت من محدب الكبد، فيسلك في الاوردة المتشعبة منه في جداول، ثم في سواقي الجداول، ثم في رواضع السواقي، ثم في العروق الشعرية الليفية، ثم يترشح من فوهاتها في الاعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء.

ومما ذكر ظهر انه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكيتين آفة، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذي يجذبه من الكبد، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية، ولو حلت آفة

بالطحال حصلت امراض سوداوية، ولو لم تندفع المائية إلى الكلي بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء.

وأما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير إليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دماً، وما بقى منه في الامعاء ولم ينحدر إلى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الامعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه إليه في حركة المفاصل وترطيب الامعاء، زمنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق أو ينحدر من الرأس إلى الفم ويخرج منه بالتنخع.

ثم انظر ـ ياخي ـ في (القلب) وعجائبه، حيث خلقه جسما صنوبريا وجعله منبعاً لروح الحياة، ولذا خلقه صلبا ليكون محفوظا من الواردات، وجعل هذا الروح جرما حاراً لطيفاً نورانيا شفافا، وجعله مطية للنفس وقواها، واناط به حياة الإنسان وبقاءه، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه، فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حيا، والا كان ميتا، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته، ويتوزع هذا الروح من القلب الذى هو منبعه إلى سائر الاعضاء العالية والسافلة، بواساطة سفراء الشرايين والاوردة، فما يصعد منه إلى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين، ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ، ثم يفيض على الاعضاء المدركة والمتحركة منبثا في جميع البدن، يسمى (روحا نفسانيا). وما ينزل بصحابة أمناء الاوردة إلى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية، ومنه يتفرق إلى سائر الاعضاء، يسمى (روحا طبيعيا). وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الامشاج الاربعة، كما خلق الاعضاء من كثائفها. وهذا الروح مثاله جرم نار السراج، والقلب الذى محله كالمسرجة له، والدم الاسود الذى في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له، والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، كما ان السراج إذا انقطع زيته انطفأ، فسراج الروح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه وكما ان الفتيلة قد تحترق وتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت، فكذلك الدم الاسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به، وكما ان السراج ينطفىء تارة بسبب من داخل ـ كما ذكرنا ـ وتارة بسبب من خارج، كهبوب ريح أو إطفاء انسان، فكذلك انطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب

من خارج، كالقتل، وكما ان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك انطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الإنسان، وهو أجله الذي أجل له في أم الكتاب. وكما أن السراج إذا انطفاء أظلم البيت كله كذلك الروح إذا انطفاء أظلم البدن كله، وفارقته انواره التي كان يستفيدها من الروح وهي أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة.

ثم انظر ـ ياحبيبي ـ ان كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما، حيث طولهما لتمتدا إلى المقاصد، وعرض الكف ووضع عليها الأصابع الخمس، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل، وجعل الابهام في جانب، والبواقي في جانب، ليدور عليها، ولو اجتمع الأولون والآخرون على ان يستنبطوا بدقيق الكفر وجها آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الأبهام من الأربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر، على ان يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه، إذ بهدا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء، فان بسطتها كانت لك طبقاً تضع عليها ما تريد، وان جمعتها كانت لك آلة للضرب، وان نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض، وان ضممتها ضما غير تام كانت لك مغرفة، وان وضعت الأبهام على السبابة كانت لك مخرقة، وان بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة وان بسطت الكف وجمعت عليها الأصابع كانت لك محرزة، إلى غير ذلك من المنافع.

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها، زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها، حتى لا تنفت، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق واعجزهم، ثم هدى (اليد) إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في حالة النوم والغفلة، من غير حاجه إلى فحص وطلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك.

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص، ليتحرك بهما الإنسان إلى أي موضع أراد، ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من اجزائهما لاختل أمر الحركة، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة

في مثل هذا الخلق لايتصور بدون ذلك. فانظر في عجيب حكمة ربك جعل الأخف والادق والأصغر أساساً وحاملاً للأثقل والأغلظ والأكبر، مع ان كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته.

ثم خلق جميع ذلك في النطفة جوف الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف عنها الغطاء وامتد إليها البصر، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصور ولا آلته، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج إلى مباشرة آلة ولا افتقار إلى مكادحة عمل.

نصيحة

المكر والحيلة

تذنيب

ثم تأمل ـ أيها المتأمل ـ في عجائب حكم ربك: إنه لما كبر الصبي وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل إلى الخروج حتى تنكس وتحرك، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير، ولما خرج وكان محتاجا إلى الغذاء ولم يحتمل بدنه الاغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف، واستخرجه من بين الفرث والدم خالصاً سائغا، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن، وانبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي، وهداه إلى التقامها، وفتح فيها ثقباً ضيقة جداً، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجياً، لأن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه لا يحتاج فيهما إليها لتغذية باللبن، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء، لتسيل به تلك الرطوبة، فلا تنزل إلى بصره أو إلى غيره من أعضائه فتفسده، ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن الخفيف وافتقر إلى الاغذية الغليظة المحتاجة إلى المضغ والطحن أنبت له الاسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله مادام عاجزاً عن تدبير نفسه.

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ واودع في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها ثواقب الانظار والفهوم. فانظر إلى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب إلى المشرق في آن واحد، وإلى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة، وتأخذها من حواق الأشياء، وإلى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد.

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها: من احاطتها بالبدن كله وتدبيرها له. مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الاحاطة على حقائق الأشياء بأسرها، وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها، ومن تطوراتها في الأطوار المختلفة، وتقلبها في النشآت المتباينة، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة إلى صيرورتها عالما ربانيا محيطاً بحقائق الاشياء متصلا بالملكوت الاعلى، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه١[١]، واطاعة جميع الموجودات له، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن، وعلمه بصناعة الموسيقى، واستنباطه انواع الصنائع العجيبة والحرف الغريبة.

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية، وتأثيره في مواد الأكوان بنزع صورة وإلباس اخرى، فيؤثر بانقطاعه إلى الله في استحالة الهواء إلى الغيم ونزول الامطار، وإزالة انواع الأمراض، واهلاك قوم وإنجائهم، وتمكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله، وامساكه عن القوت مدة غير معتادة، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد، واحضاره ما يريده من المطاعم والملابس، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم. فانظر ـ يا أخي ـ ان كنت من أهل اليقظة إلى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة، وهذه التي قد تصير ملكا شديد الهمة والبطش مسخراً للربع المسكون، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الأرض، وقد يتعدى إلى عالم الافلاك، فينشق القمر ويرد الشمس.

---

١ [1] تذكير الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الإنسان، وتقدم مثله صفحة (١١).

وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب التي عرفتها. وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له مع ان هذا لا يدفع العجب والغرابة لو نظروا بعين العبرة والبصيرة، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع، فهما في بلوغ النطفة إلى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم، فلا ريب أيضاً في ان دلالة الاول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه، إذ كل من رزق ادنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر، فهذا في امر النطفة أظهر، وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة إلى المراتب المذكورة أشد واحرى من التعجب في احياء ميت أو ابراء أكمه أو ابرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات، فالنظر الذي لايقتضى منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يقظان. ولجملة: الحكم والعجائب المودعة في النشأه الإنسانية اكثر من ان تحصى. وإنما اشرنا إلى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر، وتنبيهاً على كيفية التفكر في سائر مجاري الفكر والنظر، قال الإمام أبو عبد الله الصادق (ع): **" إن الصورة الإنسانية أكبر حجة لله على خلقه، وهي الكتاب الذى كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي الحجة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار ".**

***

وإذ عرفت نبذاً من عجائب نفسك وبدنك، فقس عليه عجائب الأرض التي هي مقرك: بوهادها، وتلالها، وسهلها، وجبالها، واشجارها، وانهارها، وبحارها، وازهارها، وبراريها، وعمارها، ومدنها، وامصارها، ومعادنها، وجمادها، وحيوانها، ونباتها، فان كل ما نظرت إليه

منها لو تأملته لو جدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده.

فانظر ـ أولاً ـ إلى (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب، كيف أحكم بها جوانب الأرض واودع المياه تحتها، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية، واودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس إلى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي، وخلق في الأرض معادن يحتاج إليها نوع الإنسان، ولو فقد واحداً منها لم يتم انتظامه، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن، وجعل ما يكون الاحتياج إليه أشد واكثر واعم وجوداً وأقرب مسافة، كالملح ومثله.

ثم انظر إلى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها في الاشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع، فهذا يغذي، وذا يقوي، وهذا يقتل، وهذا يحيى، وهذا يسخن، وهذا يبرد، وهذا يجفف، وهذا يرطب، وهذا يسهر، وهذا ينوم، وهذا يحزن، وهذا يفرح... إلى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة، مع اشتراكها في السقي من ماء واحد، والخروج من أرض واحدة. (فان قلت): اختلافها لا ختلاف بذورها، (قلنا): متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ وانظر إلى كل شجر ونبت إذا انزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائه من الاصول والاغصان والاوراق والاثمار على نسبة واحدة، من غير زيادة لجزء على آخر لوصول الماء إليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية، فمن هذا القاسم العدل في فعل ماليس له شعور ولا ادراك؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة إلى مالا خبر له بوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته.

ثم انظر إلى (انواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها: من الطيور والوحوش والسباع والبهائم، كيف هدى الله كل واحد منها إلى ترتيب المنزل وتحصيل القوت، وجعل ما لا يتم معاش الإنسان بدونه من الانعام والبهائم مأنوساً به غير متوحش عنه، وغيره وحشياً عنه غير ألف به، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول، فمن ذا

الذي يقدر ان يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة ـ بل البقة والنملة ـ وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها إلى حوائجها؟ فاي مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسي؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب. وبالجملة: كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب مالا يمكن وصفه، وكل أحد انما يدرك قدر ما يصل إليه فهمه.

ثم انتقل من عالم الأرض إلى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الأرض، كما ان سعته أضعاف سعته، وكل حيوان يوجد في الأرض يوجد فيه، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير في البر اصلاً، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك. ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء وانبات المرجان من من صم الصخور تحته، مع كونه على هيئة شجر ثابتة نامية... وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. والجملة عجائب البحر اضعاف عجائب البر، وقد صنف جماعة فيها مجلدات من الكتب، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير، ولم يذكروا إلا قليلا من كثير.

ثم انتقل إلى (عالم الجو) وعجائبه. من السحب والغيوم والامطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود، فانظر إلى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك إلا ان يأذن الله سبحانه في ارساله الماء، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء واراد، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى، ولا يتقدم المتاخر ولا يتأخر المتقدم، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتاً لحيوان معين، ولو كنت ـ يا حبيبي ـ ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطاً إلهياً مكتوبا بقلم إلهي: إنه يصيب الجزء الفلاني من الأرض، أو رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني.

* * *

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الاخضر) قائلا: سبحانك! ما خلقت هذا باطلا. وانظر إلى هذه الاجرام النورية وعجائبها، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها: من

الشمس واضاءتها عالم الاكوان، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان، وسائر الانجم الدائرة، والكواكب الثابته والسائرة، واختلاف صورها واشكالها ومقاديرها وأوضاعها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، وتباين منازلها ومواضعها، واجتماعها واتصالها، وتفرقها وانفصالها، وطلوعها وافولها، وكسوفها وخسوفها، وانتظام حركاتها واتساق دورانها، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات: من العقرب والحمل والثور والجدي والإنسان والحوت والسرطان، بل صور غير الحيوان: من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك. حتى ما من صورة في الأرض إلاّ ولها تمثال في السماء أيظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون ككمودة زحل، وحمرة المريخ، وقلب العقرب، وصفرة عطارد، وورصاصية الزهرة والمشتري، بمجرد الاتفاق، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة فما اشد جهلا وحمقاً من توهم ذلك!

ثم انظر إلى حركة (الشمس) يسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير في سنة، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم، وتتم الدور بيوم وليلة، فلولا سيرها الاول الموجب لغاية قربها إلى وسط السماء مدة، وغاية بعدها عنه تارة، وتوسطها بين الغايتين مرتين، لم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشوء النباتات والثمار ونضجها وبلوغها إلى غاياتها المطلوبة، ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، ولم تعرف المواقيت من الشهور والاعوام والساعات والايام. وتأمل في انه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية، لم يتم شيء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلى.

ثم انظر إلى عظم اقدار هذه الاجرام السماوية، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة إليها، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة إليها بل بالنسبة إلى فلك الشمس فقط ـ مثلا ـ كنسبة قطرة إلى البحر المحيط، وقد قال المهندسون: إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها، بل قال بعضهم أكثر من ذلك، ومع

ذلك بينوا ان ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك الشمس، مع ما فيه من افلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الاربعة، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مثلا للارض.

ثم انظر مع هذا العظم إلى سرعة حركتها وخفتها، فان شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها، إلا انك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه في غاية القلة. وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة، والاقل قدراً أن يكون مثلها ثماني مرات، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة. وقد عبر روح الامين (ع) عن سرعة حركة الفلك، إذا قال سيد الرسل (ع): **" هل زالت الشمس؟ " قال: لا. نعم! فقال له: كيف تقول لا. نعم! " فقال: من حيث قلت: لا، إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام.**

فتيقظ ـ يا اخي ـ من نوم الطبيعة، وتأمل من الذى حرك هذه الاجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصغرها، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها، فقل: (بسم الله مجريها ومرسيها)، ولو نظرت إليها بعين البصيرة، لعلمت انها عباد طائعون خاضعون، وعشاق إلهيون والهون، وبأشارة من ربهم إلى يوم القيامة رقاصون دائرون.

وبالجملة: لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها، ولو كان لك قلب والقيت السمع وأنت شهيد، لعلمت ان جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الاعلى، وما من ذرة إلاّ وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة، قائلة لاصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها، ومنادية لارباب القلوب بنغماتها: أو ما تنظرون إلى خلقي وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي في اطواري وتقلباتي؟ أو لا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي؟ أتظنون اني تكونت بنفسي أو خلقنى أحد من جنسي؟ أو

ما تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف، فتجزمون أنها صنعة آدمى مريد عالم ومتكلم قادر، ثم تنظرون إلى عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطنى وظاهري، ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون؟!

(تتميم)

قد عرفت اجمالا ان التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب افعاله، والتفكر في ما يقرب العبد إلى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه. وغير ذلك من الافكار ليس نافعا ولا متعلقاً بالدين. مثال ذلك أن حال السائر إلى الله الطالب للقائه، كحال العاشق المستهتر، فكما ان تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وافعاله وفي افعال نفسه التي تقرب منه وتحببه إليه ليتصف بها، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق، كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان يحصر فكره في الله وفي صفاته وافعاله وفيما يقربه منه ويحببه إليه أو يبعده عنه، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذباً فيما يدعيه من الشوق والحب.

ثم التفكر في ذات الله، بل في بعض صفاته مما لا يجوز، وقد منعته الشريعة الحقة الالهية والحكمة المتعالية الحقيقية، لان ذاته أجل من أن تكون مرقى لاقدام الافهام، أو مرمى لسهام الاوهام، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو اطاقوا إليه مد البصر فانما هو كالبرق الخاطف، ولو تجاوزوا عن ذلك لا حترقوا من سبحات وجهه. وحال الصديقين في ذلك كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فانه وان قدر على مد البصر إليها، إلا ان ادامته يورث الضعف والعمش، بل لا مشابهة بين الحالين، وانما هو مجرد تقريب وتفهيم، فان المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة، وما من نور إلاّ وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره، فكل نور في مرتبة نوره زائل، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل.

ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموماً، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه ـ وقد تقدم ـ وفي ما يقرب العبد إلى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة. وهذه الملكات والافعال هي المعبر عنه بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الأخلاق، والمراد بالتفكر فيها هنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة، ويتفحص عن حال قلبه واعضائه، فان وجد قلبه مستقيما على جادة العدالة متصفاً بجميع الفضائل الخلقية ومجتنبا عن الرذائل الباطنة، ووجد أعضاءه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة إليها، فليشكر الله على عظيم توفيقه، وإن وجد في قلبه شيئاً من الرذائل أو رآه خالياً عن بعض الفضائل، فليبادر إلى العلاج بالقوانين المقررة، بعد التفكر في سوء خاتمته وادائه إلى مقت الله وهلاكه، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة.

ولاريب في ان هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة: من البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحقد، والحسد، والجبن، وشدة الغضب والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع، وحب المال، وحب الجاه، والنفاق، وسوء الظن، والغفلة، والغرور... وغير ذلك. وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ويتفقد منها هذه الصفات، فان وجدها بظنه خالية عنها، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية، فان النفس قد تلبس الأمر على صاحبها: فان ادعت البراءة من الكبر، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب في السوق، فان ادعت البراءة من الغضب فليجرب بايقاعها في معرض اهانة السفهاء، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه. ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة

والعيان شيئاً منها في قلبه. فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة، أو ملازمة اولى الأخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك. فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده.

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية: كاليقين، والتوكل، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والشجاعة والسخاء، والزهد والورع، والاخلاص في العمل، وستر العيوب، والندم على الذنوب، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله والخشوع له... وغير ذلك، فان وجد قلب متصفاً بالجميع فليجربه بالعلامات حتى يطمئن من تلبيس النفس ـ كم علمت طريقه ـ وإن وجد قلبه خالياً من شيء منها فليتفكر في طريق تحصيله ـ كما أشير إليه ـ. ثم يتوجه إلى كل واحد من اعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به، مثل ان ينظر في لسانه ويتفكر في انه هل صدر منه شيء من الغيبة، أو الكذب، أو الفحش، أو فضول الكلام، النميمة، أو الثناء على النفس، أو غير ذلك. ثم ينظر في سمعه، ويتفكر في انه هل سمع شيئاً من ذلك. ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام أو شبهة، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك... وهكذا يفعل في كل عضو عضو.

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل، فان وجد ـ بعد التفكر ـ عدم صدور شيء من المعاصى عن شيء منها، واتيانها بالطاعات المفروضة عليها باسرها وبالنوافل المرغبة إليها بقدر اليسر والاستطاعة، فليحمد الله على ذلك، وان عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض، فليتفكر اولا في الأسباب الباعثة على ذلك، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة اقران السوء أو غير ذلك، فليبادر إلى قطع السبب، ثم التدارك بالتوبة والندم، لئلا يكون غده مثل يومه. وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل ديّن معتقد بالنشأة الاخرة، وقد كان ذلك عادة وديدناً لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤوس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف

بفضيلة يخطون عليها في الجريدة، ويدعون الفكر فيها، ثم يقبلون على البواقي، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع، ومن كان اقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة من اكل الحرام، والشبهة، واطلاق اللسان، والكذب، والغيبة والمراء، والنميمة، والمداهنة مع الخلق بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر... وغير ذلك، ويفعلون بمثل ما مر.

وبالجملة: كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب، فاف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقدرة، وخضنا في غمرات الغفلة، ولعمري انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار. فان من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها، وندعى الشوق إلى الجنة ونعلم ان الوصول إليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها.

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين، واما تفكر الصديقين فاجل من ذلك، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والانس، منقطعون بشراشرهم إلى جناب القدس، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به، بحيث فنى عن نفسه ونسى صفاته واحواله، فحالهم أبداًَ كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق، ولا تظن أن هذا التفكر ـ بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله ـ ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية، فان حال المتفكر في جلال لله وعظمته مع اتصافه بالأخلاق الرذيلة، كحال العاشق الذي خلى بمحبوبته، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس. ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه ولا ريب ان الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات، ومن كان له ادنى معرفة وتوجه إلى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها، يجد انه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج، ثم ان لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهوراً بيناً للمنهمكين في علائق الطبيعة، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد الم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى.

(نصيحة)

تيقظ - يا حبيبي - من نوم الغفلة، وتفكر اليوم لغدك، قبل ان تنشب مخالب الموت في جسدك، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في صفاتك واحوالك، واعلم على سبيل القطع واليقين ان كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية، واسمع قول سيد الرسل (ص) ولو كنت ذا قلب لكفاك ايقاظاً وتنبيهاً، حيث قال: **" ان روح القدس نفث في روعى: احب ما احببت فانك مفارقه، وعش ما شئت فانك ميت، واعمل ما شئت فانك مجزى به "**. ولعمرى انك ان كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظاً وحائلا بينك وبين الالتفات إلى الدنيا واهلها. وبالجملة: ينبغى للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن الفكر في صفاته وافعاله، وإذا صرف برهة من وقته في التفكر وبرهة اخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه، وصار ذلك معتاداً له، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول إلى ما خلقنا لأجله.

(ومنها) - أي ومن رذائل القوة العاقلة - استنباط وجوه:-

المكر والحيل

للوصول إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة. واعلم ان المكر، والحيلة، والخدعة، والنكر، والدهاء: الفاظ مترادفة، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة، وارباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة، ولذا جعلوها ضداً للذكاء وسرعة الفهم، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور إذا كانت موجبة لاصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم، وربما فسر بذلك في اللغة أيضاً، وهذا المعنى هو المراد هنا.

ولتركبه من اصابة المكروه إلى الغير ومن التلبيس عليه، يكون ضده استنباط الامور المؤدية إلى الخيرية، والنصيحة لكل مسلم، واستواء العلانية للسريرية.

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وامثالها، اما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها. أو بتخصيص الأولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها، ولذا عدت الأولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور، والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعمالهما على الترادف، واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى.

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له ادنى شعور، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء. ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه، والباعث لظهور الامانة والديانة وتسليم الناس اموالهم ونفائسهم إليه على سبيل الوديعة أو المشاركة أو المعاملة، ثم أخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر، وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس اياه اماماً أو أميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم. وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع.

ثم المكر من المهلكات العظيمة، لأنه اظهر صفات الشيطان، والمتصف به اعظم جنوده، ومعصيته اشد من معصية اصابة المكروه إلى الغير في العلانية، إذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه، فربما دفع اذيته، واما الغافل فليس في مقام الاحتياط، لظنه ان هذا المكار المحيل محب وناصح له، فيصل إليه ضره وكيده في لباس الصداقة والمحبة. فمن احضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً اهلاكه فهو اخبث نفسا واشد معصية ممن شهر سيفه علانية مريداً قتله، إذ الثاني اظهر مافي باطنه واعلم هذا الغير بارادته، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره، فربما تمكن من دفعه، واما الأول فظاهره في مقام الاحسان وباطنه في مقام الايذاء والعدوان، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه، فيقطع بأنه يحسن اليه، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط، بل في مقام المحبة والوداد، فيقتله وهو يعلم انه يحسن اليه، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه.

وبالجملة: هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية، ولذلك قال رسول الله (ص): **" ليس منا من ماكر مسلماً "**. وقال أمير المؤمنين (ع): **" لولا ان المكر والخديعة في النار لكنت امكر**

الناس "، وكان (ع) كثيراً ما يتنفس الصعداء ويقول: **" وا ويلاه يمكرون بي ويعلمون اني بمكرهم عالم واعرف منهم بوجوه المكر، ولكني اعلم ان المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا "**.

وطريق علاجه ـ بعد اليقظة ـ ان يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته، وفي تأديته إلى النار ومجاورة الشياطين والاشرار، ويتذكر ان وبال كل مكر وحيلة يرجع في الدنيا إلى صاحبه، كما نطقت به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة والاعتبار. ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده، اعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في افعاله واقواله ـ كما يأتي في محله ـ وبعد ذلك لو كان عاقلا شفقاً على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب، وينبغي ان يقدم التروي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة، وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه، وإذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه اصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه.

. فيما يتعلق بالقوة الغضبية

التهور

الجبن

الشجاعة

الخوف

الخوف المذموم وأقسامه

المقام الثاني

(فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

التهور والجبن والشجاعة ـ والخوف ـ الخوف المذموم واقسامه ـ الخوف المحمود واقسامه ودرجاته ـ بم يتحقق الخوف ـ الخوف من الله أفضل الفضائل ـ الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً ـ طريق تحصيل الخوف الممدوح ـ خوف سوء الخاتمة وأسبابه ـ الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله ـ التلازم بين الخوف والرجاء ـ مواقع الخوف والرجاء وترجيح احدهما على الآخر ـ العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف ـ مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم ـ صغر النفس وكبرها وصلابتها ـ الثبات ـ دناءة الهمة وعلوها ـ الغيرة والحمية وعدمهما ـ الغيرة على الدين والحريم والأولاد ـ العجلة ـ الاناة والتوقف والوقار والسكينة ـ سوء الظن ـ حسن الظن ـ الغضب ـ الافراط والتفريط والاعتدال في قوته ـ ذم الغضب ـ امكان ازالة الغضب وطرق علاجه ـ فضيلة الحلم وكظم الغيظ ـ الانتقام والعفو ـ العنف والرفق ـ فضيلة الرفق ـ المداراة ـ سوء الخلق بالمعنى الاخص ـ طرق اكتساب حسن الخلق ـ الحقد ـ العدواة الظاهرة ـ الضرب والفحش واللعن والطعن ـ العجب ـ ذمه ـ آفاته ـ علاجه اجمالا وتفصيلا ـ انكسار النفس ـ الكبر ـ ذمه ـ التكبر على الله والناس ـ درجات الكبر ـ علاجه علما وعملا ـ التواضع ـ الذلة ـ الافتخار ـ البغي ـ تزكية النفس ـ العصبية ـ كتمان الحق ـ الانصاف والاستقامة على الحق ـ القساوة.

فنقول: أما جنسا رذائلها١[١] " فأحدهما ":

التهور

كما علم، وهو من طرف الافراط: أي الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف. ولا ريب في انه من المهلكات في الدنيا والآخرة. ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي المنع عن القائها في المهالك، كقوله تعالى:

" ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة "٢[٢]

وغير ذلك من الآيات والأخبار. والحق ان من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال من شائبة من الجنون، وكيف يستحق اسم العقل من القى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة، أو وقع٣[٣] في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية. كيف ومن القى نفسه فيما يظن به العطب، فهلك، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية.

وعلاجه ـ بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة ـ ان يقدم التروي في كل فعل يريد الخوض فيه، فان جوزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه، ولا تركه ولم يقدم عليه. وربما احتاج في معالجته ان يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه، حتى يقع في طرف التفريط، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة.

" وثانيهما ":

الجبن

---

١ [1] أي القوة الغضبية.

٢ [2] البقرة، الآية: ١٩٥.

٣ [3]كذا في النسختين، ولعل الصحيح (أو اوقع نفسه).

وهو سكون النفس عن الحركة إلى الانتقام أو غيره، مع كونها اولى. والغضب افراط في تلك الحركة، فله ضدية للغضب باعتبار، وللتهور باعتبار أخر. وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة، ويلزمه من الاعراض الذميمة، مهانة النفس، والذلة، وسوء العيش، وطمع الناس فيما يملكه، وقلة ثباته في الامور، والكسل، وحب الراحة، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله، واستماع القبائح من الشتم والقذف، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار، وتعطيل مقاصده مهماته، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ماورد قال رسول الله (ص): **" لا ينبغي للمؤمن ان يكون بخيلا ولا جباناً "**، وقال (ص): **" اللهم اني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، واعوذ بك ان ارد إلى أرذل العمر".**

وعلاجه ـ بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها ـ ان يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن، فان القوة الغصبية موجودة في كل أحد، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن، وإذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر، وقد نقل عن الحكماء انهم يلقون انفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة. ومما ينفع من المعالجات ان يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله، تحريكا لقوة الغضب، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الافراط.

فصل

(الشجاعة)

قد عرفت ان ضد هذين الجنسين هو (الشجاعة)، فتذكر مدحها وشرافتها، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها، حتى يصير ما تكلفته طبعاً وملكة، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية. وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضي رأيها. ولا ريب في أنها اشرف الملكات النفسية وافضل

الصفات الكمالية، والفاقد لها برىء عن الفحلية والرجولية، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قول

" أشداء على الكفار "٤[٤]

وامر الله نبيه بها بقوله:

" وأغلظ عليهم "٥[٥]

اذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها. قال أمير المؤمنين (ع) في وصف المؤمن: **" نفسه أصلب من الصلد "**. وقال الصادق (ع): **" المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستقل٦[٦] منه والمؤمن لا يستقل من دينه ".**

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمنها:

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع، فلو علم أو ظن حصوله سمى توقعه انتظار مكروه، وكان تألمه اشد من الخوف، وكلامنا في كليهما. وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدهما ظاهر، فان الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلا من الحركة إلى الانتقام أو شيء آخر، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف، مثلا من لايجترىء على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم بالفعل، فمثله جبان وليس بخائف. ومن كان له ملكة الحركة إلى الانتقام وغيره من الافعال التي يجوزها الشرع والعقل

---

٤ [4] الفتح، الآية: ٩٢.

٥ [5]التوبة، الآية: ٧٣.

٦ [6] استقل الشيء: أخذ منه أدنى جزء كعشره.

ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره، كما إذا أمر السلطان بقتله، فمثله خائف وليس بجبان.

ثم الخوف على نوعين: (احدهما) مذموم بجميع أقسامه، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب، ولا من معاصي العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الامور التي يأتي تفصيلها. وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط، ومن نتائج الجبن. و(ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته، وهو من فضائل القوة الغضبية، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه، فهو حاصل من انقيادها لها. ولنفصل القول في اقسام النوعين، وبيان العلاج في ازالة اقسام الاول وتحصيل الثاني:

فصل

(الخوف المذموم واقسامه)

للنوع الاول أقسام يقبحها العقل باسرها ولا يجوزها، فلا ينبغي للعاقل ان يتطرقها إلى نفسه. بيان ذلك: ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام

(الاول) ان يكون امراً ضرورياً لازم الوقوع، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر. ولا ريب في ان الخوف من مثله خطأ محض، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية. والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل.

(الثاني) ان يكون أمراً ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولا وقوعه. ولا ريب في ان الجزم بوقوع مثله والتألم لاجله خلاف مقتضى العقل، بل اللازم ابقاؤه على امكانه من دون جزم بحصوله، فـ:

" لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً "[٧][7]

---

٧ [7] الطلاق، الآية: ١.

وهذا القسم مع مشاركته للاول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب، لعدم مدخليته لاختياره فيه، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه، فهو بعدم الخوف أولى منه.

(الثالث) ان يكون امراً ممكناً فاعله هذا الشخص، وهو ناشىء عن سوء اختياره، فعلاجه ألا يرتكبه ولايقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته، فانه اما فعل غير قبيح من شأنه التأدي إلى ما يضره، ولا ريب في ان ارتكاب مثله خلاف حكم العقل، ولو ظهر التأدي بعد ايقاعه فيكون من الثاني، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذة، وانما فعله ظناً منه أنه لايظهر، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة، ولا ريب في ان هذا الظن ناشىء عن الجهل، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر، وإذا ظهر يمكن ايجابه للفضيحة والمؤاخذة. والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع، ولو حكم عليه بما يقتضي ذاته أمن من الخوفين.

(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع، بلا داع عقلي ولا باعث نفس امري، كالميت والجن وامثالهما، (لا) سيما في الليل مع وحدته، ولا ريب في ان هذا ناشىء عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم. وربما ينفع الزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج.

ثم لما كان خوف الموت أشد اقسام هذا النوع واعمها، فلنشر إلى علاجه بخصوصه، فنقول: باعث خوف الموت يحتمل اموراً:

(الاول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت. ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه، وهي باقية أبداً، كم دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية، ولعل ما تقدم يكفي لاثبات هذا المطلوب. ومع قطع النظر عن ذلك نقول: كيف يجوز لمن له ادنى بصيرة ان يجتمع عظماء نوع الإنسان بحذافيرهم، كأهل الوحى والا لهام واساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل: فمن تأمل ادنى تأمل يتخلص من هذا الخوف.

(الثاني) تصور ايجابه ألماً جسمانياً عظيما لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه. وهذا أيضاًً من الخيالات الفاسدة، فان الالم فرع الحياة، والالم الجسمانى مادامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الاوجاع وقطع الاتصال، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده، إذ كل جسماني ادراكه بواسطة الحياة، وبعد انقطاعها لا ادراك، فلا ألم.

(الثالث) تصور عروض نقصان لاجله. وهو أيضاًً غفلة عن حقيقة الموت والإنسان، إذ من علم حقيقتهما يعلم ان الموت متمم الإنسانية وآثارها والمائت جزء لحد الإنسان. ولذا قال أوائل الحكماء: " الإنسان حى ناطق مائت "، وحد الشىء يوجب كمال لا نقصانه، فبالموت تحصل التمامية دون النقصان " نشنيده اى كه هر كه بمرد أو تمام شد "٨[٨] فالإنسان الكامل يشتاق إلى الموت، لاقتضائه تماميته وكماله، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الاشرار إلى عالم الانوار ومرافقة الاخيار من العقول القادسه والنفوس الطاهرة، واى عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب!

فيا حبيبي! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك إلى النصيحة: حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك إلى عالمك الحقيقي ومقرك الاصلى، وانسلخ عن القشورات الهيولانية وانفض عن روحك القدسى مالزقه من الكدورات الجسمانية، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر بجناح همتك إلى وكرك القدسي النوراني، وارتفع عن لا حضيض الجهل والنقصان إلى أوج العزة والعرفان، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لاثبات له ولا وفاء؟!

---

٨ [8] هذه الجملة من الكلمات الحكمية القصار، ومعناها: " أما سمعت بأن كل من مات صار انساناً كاملا ".

زد سحر طائر قدسم زسر سدره   كه در اين دا امكه حادثه آرام مگير٩[٩]

صفير

(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والاموال والمناصب والاحباب ومعلوم أن هذا ليس خوفا من الموت في نفسه، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية. وعلاجه: أن يتذكر أن الامور الفانية مما لا يليق بالعاقل ان يرتبط بها قلبه، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن إليها مع علمه بأنه عن قريب يفارقها، فاللازم، يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الالم.

(الخامس) تصور سرور الاعداء وشماتتهم بموته. وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم، إذ مسرة الاعداء أو شماتتهم لا توجب ضرراً في إيمانه ودينه، ولا ألماً في روحه وجسمه، على أن ذلك لا يختص بالموت، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة أيضاًً من البلايا والمحن فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العدواة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد.

(السادس) تصور تضييع الاولاد والعيال، وهلاك الاعوان والانصار وهذا أيضا من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته، ومدخليته في قوته وثروته، وذلك ناشىء من جهله بالله وبقضائه وقدره، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم إلى ما يليق بها وابلاغها إلى ما خلقت لأجله،

---

٩ [9] هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) وهو من أبيات العرفان. وأراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها، و (بالطائر القدسى) مايرمز إليه العرفاء المسمى عندهم أيضاً (البيضاني)، وهو أحد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات، و (بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات.

وحاصل معنى البيت المطابقي: قد صفر الطائر القدسى المنسوب إلى من على السدرة في السحر، ويقول في صفيره: لاتستقر في المصيده المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات)، والمراد أن يذهب عنها إلى عالم المجردات النوراني حراً طليقاً.

وليس لأحد أن يغير ذلك أو يبدله. ولذا ترى اكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم اصلا، وتشاهد غير واحد من لاغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة وتخرج عن ايديهم في مدة قليلة، وترى كثيراً من أيتام الاطفال لا تربية لهم ولامال، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدارج الكمال، أو يحصلون مالا حصر له من الاموال. والغالب أن الايتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبى تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا اكثر من الاولاد الذين نشأوا في حجر الآباء. والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذي قوة يفوض إليه امورهم، اعتراهم بعده الفقر والفاقه والذلة والمهانة، وربما صار ذلك سببا لهلاكهم وانقراضهم. ومن فوض امورهم إلى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة. فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا امور الاولاد وغيرهم من الأقارب والانصار إلى من خلقهم ورباهم، ويوكلهم إلى موجدهم ومولاهم، وهو نعم المولى ونعم الوكيل. وقد ظهر أن الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له.

ثم يبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة، كما تقرر في الحكمة. وهو من الكائنات. والفساد ضروري له. فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له، فتمني دوام الحياة من الخيالات الممتنعة، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها. بل يعلم يقيناً أن ما يوجد في النظام الكلي هو الاصلح الاكمل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة. ثم من يتمنى طول عمره فمقصود منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الاعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلا عن غيرها، فلا يلتذ بالاكل والجماع وسائر اللذات الحسية، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم، وتتراجع جميع احواله، فتتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل، وكذا سائر أحواله، كما اشير إليه في الكتاب الالهي بقوله تعالى:

(ومن نعمره ننكسه في الخلق)١٠[١٠].

---

١٠ [10] يس، الآية: ٦٨.

ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أوشفيق، ومهاجرة قريب أو رفيق. وربما ابتلى بأنواع المصيبات، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات. وان كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد اوان الشيخوخة في غاية الصعوبة، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية إلى ان ادركه الشيب، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره، فانى يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن. ولذا ورد في الآثار: **" أن الرجل إذا بلغ اربعين سنة ولم يرجع إلى الخير، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال: بأبي وجه من لا يفلح أبداً "**. على ان الطالب للسعادة ينبغي ان يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها، ومن جملتها دفع طول الامل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره، ويكون سعيه أبداًَ في تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل إلى الحياة واللذات الباقية، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الالهية، حتى يتخلص عن شجن الطبيعة ويرتقى إلى اوج عالم الحقيقة، فيتفق له الموت الارادي الموجب للحياة الطبيعية، كما قال (معلم الاشراق): " مت بالارادة تحيى بالطبيعة "، فينقل إلى مقعد صدق هو مستقر الصديقين، ويصل إلى جوار رب العالمين، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيره، ولا يركن إلى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الاشقياء والفجار ومسكن الشياطين والاشرار، ولا يتمنى الحياة الفانية اصلا، وينطلق بلسان الحال:

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم راحت جان طلبم وزپى جانان بروم

بهو اى لب أو صفت رقص كنان   تالب چشمه خورشيد در خشان

بروم١١[١١]

(السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الاعمال وقبائح الافعال. ولا ريب في ان الخوف من ذلك ممدوح، وهو معدود من اقسام النوع الثاني، إلا ان البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة، إذ هذا الخوف ناشىء من سوء الاختيار، وقد بعث الله الرسل واوصياءهم لاستخلاص الناس عنه. فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الأخلاق. ومعلوم ان المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق، ولا ريب في ان إزالة هذا الخوف باختياره، فليترك المعاصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه، واهتمام اكابر الدين من الانبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم، فهو في الحقيقة ناشىء منك ومن سوء اختيارك، فبادر إلى تقليله بالمواظبة على صوالح الاعمال وفضائل الافعال. وقد يأتي ان هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل، ومعه لو كان مفرطاً فيعالج بأسباب الرجاء، وبدونه فلا بد ان يكون حتى يبعثه عليه، على انه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي ان ييأس من روح الله، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر.

---

١١ [11] البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي). ومعنى الاول: " إن سروي يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلباً لراحة نفسي ولقاء الحبيب". ويقصد بحبيبه: الحق الاول، وبراحة نفسه: النعيم الابدي، وبالرحيل عن الدار الخربة: انتقال نفس من بدنه بالموت.

ومعنى البيت الثاني: " اني لشوقي إلى لقاء الحبيب اهتزاهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكي اصل إلى لقاء عين الشمس المتوهجة ". ويقصد بعين الشمس: خالق الكائنات.

الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته
بم يتحقق الخوف
الخوف من الله الفضائل
الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً

فصل

(الخوف المحمود واقسامه ودرجاته)

وللنوع الثاني من الخوف اقسام: (الاول) ان يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف ارباب القلوب. (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي. (الثالث) ان يكون منهما جميعاً. وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب نفسه وجناياته، ازداد الخوف، إذ ادرك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة، يوجب الاضطراب والدهشة، ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له. وانى لأحد من اولى المدارك ان يحيط بصفاته على ما هي عليه، فان المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة. نعم، لبعض المدارك العالية ان يدركه على الاجمال. مع ان ما يظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته، بل هو غاية ما تتأدى إليه عقولهم ويتصور كمالا، ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول واعلى المدارك، لاحترق من سبحات وجهه، وتفرقت اجزاؤه من نور ربه. ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب فغاية ماللمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة، ان يتصور عدم تناهيها في الشدة والقوة، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الامر، كما هو الشأن في ذاته سبحانه. وادراك هذه الغاية أيضاً يختلف باختلاف علو المدارك، فمن كان في الدرك اقوى واقدم كان بربه اعرف، ومن كان به اعرف كان منه اخوف، ولذا قال تعالى:

(إنما يخشى الله من عباده العلماء)١[١]

وقال سيد الرسل: **" انا اخوفكم من الله "**. وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الاولياء والعارفين، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين (ع).

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف، إذ كمال المعرفة يوجب احتراق القلب، فيفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء، وإلى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط في جنب الله، ومن لم يجتهد في ترك

المعاصي وكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف، ولذا قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه. وقال بعض الحكماء: " من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه ". وقال بعض العرفاء: " لا يكون العبد خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام ". وإلى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف كونه مسموماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة، وتفارقه ذمائم الصفات، ويصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالانفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لامتسع فيه لغيره، كما أن من وقع في مخالب ضاري السبع يكون مشغول الهم به ولاشغل له بغيره. وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحذوهم من السلف الصالحين

فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقة القلب وتألمه، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وافعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

واقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الاعمال ان يكف عن المحظورات ويسمى الكف منها (ورعاً)، فان زادت قوته كف عن الشبهات، ويسمى ذلك (تقوى) إذ التقوى ان يترك ما يريبه إلى مالا يريبه، وقد يحمله على ترك مالا بأس به مخافة مابه بأس، وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة، وصار ممن لا يبني مالا يسكنه، ولا يجمع مالا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم انه يفارقها، ولا يصرف إلى غير الله نفساً من انفاسه، فهو (الصدق)، ويسمى صاحبه (صديقاً)، فيدخل في الصدق التقوى، وفي التقوى الورع، وفي الورع العفة، لانها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات.

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والاقدام.

فصل

(بم يتحقق الخوف)

إعلم ان الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما ان يكون مكروهاً في ذاته كالنار، أو مكروهاً لافضائه إلى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية إلى المكروه لذاته في الآخرة، ولابد لكل خائف ان يتمثل في نفسه مكروه من احد القسمين، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعار ذلك المكروه، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة:

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته، فاما ان يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياء من كشف سريرته، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته، أو من النار واهوالها والجحيم واغلالها، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله إلى الملك المقيم، أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه، وهذا أعلاها رتبة، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق، والمطلعين على سر قوله:

" ويحذركم الله نفسه "٢**[٢]**، وقوله: **" اتقوا الله حق تقاته "**٣**[٣]**

وقيل: ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين.

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة، أو نقضها قبل انقضاء المدة، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو من الميل عن الاستقامة، أو إلى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة، أو تبديل رقة القلب إلى القساوة، أو تبعات الناس

عنده من الغش والعداوة، أو من الاشتغال عن الله بغيره، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره، أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله مالم يعلم، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية، أو من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل، وتوجهه إلى غيره وهو إليه ناظر، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة، أومما سبق له في الازل من السابقة. وهذه كلها مخاوف العارفين.

ولكل واحد منها خصوص فائدة، هو الحذر عما يفضي إلى الخوف، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها. ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس. وهكذا في بقية الاقسام.

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة، وهو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الامر فيه مخطر ـ كما يأتي ـ وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لان الخاتمة فرع السابقة، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة، ولذا قال العارف الانصاري: " الناس يخافون من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الاول ". فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، وإليه أشار النبي (ص) في المنبر، **حيث رفع يده اليمنى قابضاً على كفه، ثم قال: " أتدرون أيها الناس ما في كفي؟ "، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " أسماء أهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ". ثم رفع يده اليسرى وقال: " أيها الناس! أتدرون ما في كفي؟ " قالوا: الله ورسوله اعلم، فقال: أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ". ثم قال: "حكم الله وعدل، حكم الله:**

" فريق في الجنة وفريق في السعير "٤**[٤]**

وقال (ص): **" يسلك بالسعيد في طريق الاشقياء حتى يقول الناس: ما اشبهه بهم بل هو منهم، ثم تتداركه السعادة. وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس: ما اشبهه**

بـهم، بل هو منـهم، ثم يتداركه الشقاء. إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا

فواق ناقة ختم له بالسعادة "[٥].

فصل

(الخوف من الله أفضل الفضائل)

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، وهو أفضل الفضائل النفسانية، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه، ولا وصول إليها إلا بتحصيل محبته والانس به، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف ـ كما مر ـ.

وقيل: من أنس بالله، وملك الحق قلبه، وبلغ مقام الرضا، وصار مشاهداً لجمال الحق: لم يبق له الخوف، بل يتبدل خوفه بالامن، كما يدل عليه قوله سبحانه:

" أولئك لهم الأمن وهم مهتدون "٦[٦]

إذ لا يبقى له التفات إلى المستقبل، ولا كراهية من مكروه، ولا رغبة إلى محبوب، فلا يبقى له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى منهما. نعم، لا يخلو عن الخشية ـ أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته ـ وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضاً، لأنه من لوازم التكثر، وقد زال. ولذا قيل: " الخوف حجاب بين الله وبين العبد ". وقيل أيضاًَ: " إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء ". وقيل

أيضاً: " المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات".

وأنت خبير بأن هذه الاقوال مما لا التفات لنا إليها، فلنرجع إلى ما كنا بصدده من بيان فضيلة الخوف، فنقول: الآيات والأخبار الدالة عليه اكثر من أن تحصى، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان، فقال:

" إنّما يخشى الله من عباده العلماء٧[٧]. وقال: **" هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون "**٨[٨]. وقال: **" رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربَّه "**٩[٩].

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان، وكقوله تعالى:

" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم "١٠[١٠] وقوله: **" وخافون إن كنتم مؤمنين "**١١[١١]

ومدح الخائفين بالتذكر في قوله:

" سيذّكر من يخشى "١٢**[١٢]**

ووعدهم الجنة وجنتين، بقوله:

" وأما من خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى "١٣**[١٣]**.

وقوله: **" ولمن خاف مقام ربّه جنتان "**١٤**[١٤]**.

وفي الخبر القدسي: **" وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له امنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة "**. وقال رسول الله (ص): **" رأس الحكمة مخافة الله "**، وقال (ص): **" من خاف الله أخاف الله منه كل شيء،**

ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء "١٥**[١٥]**، وقال لابن مسعود:**" إن أردت أن**

تلقاني فاكثر من الخوف بعدي "، وقال (ص): **" أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله "**.

وعن ليث بن أبي سليم قال: **" سمعت رجلا من الانصار يقول: بينما رسول الله مستظل بظل شجرة يوم شديد الحر، إذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي ظهره مرة، وبطنه مرة، وجبهته مرة، ويقول: يا نفس ذوقي، فما عند الله أعظم مما صنعت بك. ورسول الله ينظر إليه ما يصنع. ثم ان الرجل لبس ثيابه، ثم اقبل، فأومى إليه النبي (ص) بيده ودعاه، فقال له: ياعبد الله! رأيتك صنعت شيئاً مارأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرجل: حملنى على ذلك مخافة الله، فقلت لنفسي: يانفس ذوقي فما عند الله اعظم مما صنعت بك. فقال النبي (ص): لقد خفت ربك حق مخافته، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء، ثم قال لاصحابه: يامعشر من حضر! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم. فدنوا منه، فدعا لهم، وقال اللهم اجمع امرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا، والجنة مآبنا "**.

وقال (ص): **" ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة، وان كانت مثل رأس الذباب، من خشية الله، ثم يصيب شيئاً من حر وجهه، إلا حرمه لله على النار "**، وقال: **" إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها "**، وقال: **" لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع "**. وقال سيد الساجدين (ع) في بعض ادعيته: **" سبحانك! عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك "**. وقال الباقر (ع): **"صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم، فبكى وابكاهم من خوف الله، ثم قال: أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله (ص): وانهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبرا خمصاً بين اعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجداً وقياماً، ويراوحون بين اقدامهم وجباههم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون "** وفي رواية أخرى: **" وكأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر، كأنما القوم باتوا غافلين "**، ثم قال (ع): **" فما**

رئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض ". وقال الصادق عليه السلام: **" من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا "**، وقال (ع): **" ان من العبادة شدة الخوف من الله تعالى يقول: " انما يخشى الله من عباده العلماء "**. **وقال:**

" فلا تخشوا الناس واخشون "١٦**[١٦]**. وقال: **" ومن يتق الله يجعل له مخرجاً "**١٧**[١٧]**

وقال: **" إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب"** وقال (ع): **" المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى ما يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف "** وقال (ع): **" خف الله كأنك تراه، وان كنت لا تراه فانه يراك، وان كنت ترى أنه لا يراك، فقد كفرت، وان كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك "**، وقال (ع) **" لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو"**، وقال (ع): **" مما حفظ من خطب النبي (ص) أنه قال:** أيها **الناس! ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، ألا ان المؤمن يعمل بين**

مخافتين بين أجل قد مضى لايدري ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقى لايدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلاّ الجنة أو النار".

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف، لان جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق المسبب، إذ العلم سبب الخوف، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه ـ كما ظهر مما سبق ـ والبكاء ثمرته ولازمه والرجاء يلازمه ويصاحب إذ كل من رجا محبوباً فلا بد ان يخاف فوته، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر، وان جاز غلبة احدهما على الآخر، إذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك، لان المعلوم لا يرجى ولا يخاف، فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف، والتقديران يتقابلان. نعم، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الأسباب، ويسمى ذلك ظناً، ومقابله وهماً، فإذا ظن وجود المحبوب قوي الرجاء وضعف الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال الله سبحانه.

" ويدعوننا رغباً ورهباً "١٨**[١٨]**. وقال: **" يدعون ربهم خوفاً وطمعاً "**١٩**[١٩]**.

وقد ظهر ان ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته، وكذا ما ورد في ذم الامن من مكر الله يدل على فضيلته، لانه ضده، وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه. ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى (ع) كخوف جبرائيل وميكائيل، واسرافيل، وحملة العرش، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلّمين. وكخوف نبينا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، ويحيى... وغيرهم. وخوف أمير المؤمنين وسيد

الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين ـ عليهم السلام ـ وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة، فليرجع إليها من أراد، ومن الله العصمة والسداد.

فصل

(الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً)

اعلم ان الخوف ممدوح إلى حد، فان جاوزه كان مذموماً. وبيان ذلك: ان الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب إليه تعالى ولذة المحبة والأنس به، وكما ان السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي، له حد في الاعتدال. لو قصر عنه لم يكن نافعاً في السوق والتأديب، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموماً لأدائه إلى اهلاك الدابة والصبي، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط، وهو ما يوصل إلى المطلوب، فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية، فلا يسوقها إلى المقصد. ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء، وبمجرد انقطاعه يرجعن إلى حالهن الأولى، أو مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة. فهذا خوف قاصر قليل الجدوى. فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفاً. ولو كان مفرطاً ربما جاوز إلى القنوط وهو ضلال:

" ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون "٢٠**[٢٠]**

او إلى اليأس وهو كفر:

" لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون "٢١**[٢١]**

ولاريب في ان الخوف المجاوز إلى اليأس والقنوط يمنع من العمل، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل، وايجابهما كسالة الاعضاء المانعة من العمل. ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقاً، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره،، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً، لما مر من ان الخوف هو ما كان مشكوكا فيه، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالا بالإضافة إلى نقص اعظم منه، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه إلى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة إلى قرب الله وأنسه، ولو لم يؤد إليها كان في نفسه

نقصاً لا كمالا،، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز ان يوصف الله تعالى به، كالعلم والقدرة وامثالهما، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالا في ذاته، وربما صار محموداً بالإضافة إلى غيره وبالنظر إلى بعض فوائده، فما لا يفضى إلى فوائده المقصودة منه لإفراطه فهو مذموم، وربما أوجب الموت أو المرض أو فساد العقل، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها. وانما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى اليأس أو إلى أحد الأمور المذكورة. فالخوف المحمود ما يفضي إلى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل، فان تجاوز إلى إزالة شي منها فهو مرض يجب علاجه، وكان بعض مشائخ العرفان يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أياماً كثيرة: احفظوا عقولكم، فان لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل، وما قيل: " إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً"، ومعناه ان موته بالخوف افضل من موته في هذا الوقت بدونه، فهو بالنسبة إليه فضيلة، لا بالنظر إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف إذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل لحظة ثواب شهيد أو شهداء فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان.

طرق تحصيل الخوف الممدوح
خوف سوء الخاتمة وأسبابه
الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله

فصل

(طرق تحصيل الخوف الممدوح)

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق:

(الأول) ان يجتهد في تحصيل اليقين. أي قوة الايمان بالله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، والحساب، والعقاب. ولا ريب في كونه مهيجاً للخوف من النار والرجاء للجنة. ثم الخوف والرجاء يؤديان إلى الصبر على المكاره والمشاق، وهو إلى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويقوى دوام الذكر على الانس، ودوام الفكر على كمال المعرفة، ويؤدى الانس وكمال المعرفة إلى المحبة، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات. وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطنا، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة. ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته، وهو التوكل. فاليقين هو سبب الخوف، فيجب تحصيل السبب ليؤدي إلى المسبب.

(الثاني) ملازمة التفكر في أحوال القيامة، واصناف العذاب في الآخرة واستماع المواعظ المنذرة، والنظر إلى الخائفين ومجالستهم، ومشاهده أحوالهم واستماع حكاياتهم. وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى، وهو خوف عموم الخلق، وهو يحصل بمجرد أصل الايمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وانما يضعف للغفلة أو ضعف الايمان، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر واما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال، وهو خوف أرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف والهيبة، المطلعين على سر قوله:

" ويحذركم الله نفسه "١[١]. وقوله: " اتقوا الله حق تقاته "٢[٢].

فالعلاج في تحصيله الارتقاء إلى ذروة المعرفة، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء، فانه لا يخلو عن تأثير.

(الثالث) ان يتأمل في ان الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال، وان الإحاطة بكنه الأمور ليس في مقدرة البشر، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف. ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم ان الحكم على أمر من الأمور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس، فضلا عن القطع والتحقيق، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه، وان كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة. وإلى الله بشراشرها ملتفتة، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن، وأنه أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب:

" إن عذاب ربهم غير مأمون "٣[٣]

فانى للناس ان يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر، ولذ قال بعض العرفاء: " لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب "٤[٤].

---

١ [1] آل عمران، الآية: ٢٨.

٢ [2] آل عمران، الآية: ١٠٢.

٣ [3] المعارج، الآية: ٢٨.

٤ [4] نقل هذه الكلمة في أحياء العلوم (ج٤ ص١٤٩) عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه أيضاًَ.

فصل

(خوف سوء الخاتمة وأسبابه)

قد أشير إلى ان أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة، وله أسباب مختلفة ترجع إلى ثلاثة:

(الاول) وهو الاعظم، وهو ان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الجحود أو الشك، فتقبض الروح في تلك الحالة، وتصير عقيدة الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى، وذلك يقتضى البعد الدائم، والحرمان اللازم، وخسران الأبد، والعذاب المخلد.

ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية، كالتوحيد وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة. وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة. أو يتعلق بجميعها إما إصالة أو سراية، والمراد بالسراية ان الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع، إما برأيه ومعقوله، أو بالتقليد، فإذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا، إذ حال الموت حال كشف الغطاء، ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها، وان كانت صحيحة مطابقة للواقع، إذ لم يكن عنده اولاً فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة، فإذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي. كما نقل ان (الفخر الرازي) بكى يوماً، فسألوه عن سبب بكائه، قال: " اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه، فما ادراني ان لا تكون سائر عقائدي كذلك " وبالجملة: إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل ان ينيب ويعود إلى أصل الايمان، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك، أعاذنا الله منه، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه، وهم المقصودون من قوله:

" **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** "٥[٥]. ومن قوله: " **قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسنون أنّهم يحسون صنعاً** "٦[٦].

---

٥ [5] الزمر، الآية: ٤٧.

والبُله: اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً مجملاً راسخاً، بمعزل عن هذا الخطر،، ولذلك ورد: ان أكثر أهل الجنة البله. وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام، والأخذ بظواهر الشرع، مع اعتقاد كونه تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال والسر في ذلك: ان البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالتشكيك، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت.

واما الخائضون في غمرات البحث والنظر، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة، فليس لهم تثبت على عقائدهم، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الاصولية على ما هي عليه قاصرة، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة. وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة. فاذهانهم دائماً محل تعارض العقائد والشكوك، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله، فيحصل لهم فيها طمأنينة، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها، فهم دائماً في غمرات الحيرة والاضطراب. فإذا كان حالهم هذا فاخذتهم سكرات الموت، فأي استبعاد في ان يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم. ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، والغالب في مثله الهلاك، وان اتفق نادراً ان يرميه موج إلى الساحل. وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) ـ وهو من أعاظم المتكلمين ـ انه قال: " اني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى، لم يظهر لي منها شيء سوى ان لهذا المصنوع صانعاً، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقيناً مني ". فالصواب تلقي أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحي، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق، والاشتغال بالطاعات وصوالح الاعمال، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة، واشرق نور الحكمة في قلبه. وشمله خفي الالطاف من ربه،فله الخوض في غمرات العلوم. واما غيره فينبغي ان يأخذ منه اصول عقائده الواردة من الشرع،،

---

٦ [6] الكهف، الآية: ١٠٣ ـ ١٠٤.

ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات انفاسه، فان العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغي ان يسقي القوم ويتعهد دوابهم، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وأن كان فاقداً لدرجتهم.

(الثاني) ضعف الايمان في الاصل، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا في القلب، واستولى عليه بحيث لايبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس، فلا يظهر له أثر في مخالفة النفس والشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات، حتى يظلم القلب ويسود، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه، ولا يزال يطفىء ما فيه من نور الايمان حتى ينطفىء بالكلية، فإذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً، وربما عدم بالمرة، لما يستشعر من فراقه محبوبه الغالب على قلبه وهو الدنيا، فيتألم ويرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب، لما يرى ان موته من الله، كما ان من يحب ولده حباً ضعيفاً، إذا أخذ مالاً له هو أحب إليه منه وأتلفه، انقلب حبه بغضاً. فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء. نعوذ بالله من ذلك.

وقد ظهر ان السبب المفضي إلى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر، وان أحب الدنيا أيضاً، ومن وجد في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر. والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به، إذ لا يحب الله إلا من عرفه،، وإلى هذا القسم من سوء الخاتمة أشير في الكتاب الإلهي بقوله:

" قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره "[٧][٧]

فمن فارقته روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه، فيكون موته قدوماً على ما ابغضه وفراقاً لما احبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال واما الذي يموت على حب

---

٧ [7]التوبة، الآية: ٢٤.

الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور.

(الثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات، وإن قوى الايمان. وبيان ذلك: ان مقارفة المعاصي سببهاغلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الألف والعادة، وجميع ما الفه الإنسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته، فان كان اكثر ميله إلى الطاعات كان اكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله، وإن كان اكثر ميله إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده، وان كان اكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وامثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك، وهكذا الحال في جميع الاشغال والاعمال الغالبة في عمره، فانها تغلب على قلبه عند موته، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى، فيعتقد بها قلبه، ويصير محجوباًً عن الله تعالى. وهو المراد بالختم على السوء. فالذى غلبت عليه المعاصى والشهوات وكان قلبه اميل إليها منه إلى الطاعة، فهذا الخطر قريب في حقه، ولا يميل إليها اصلا، فهو بعيد منه جداً. ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادراً، فلعل الراجح في حقه النجاة منه، وإن امكن حصوله. ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر إلى الله، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه.

والسر في ذلك: ان الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم، فكما ان الإنسان يرى في منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره والفها،، حتى انه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة، وحتى ان المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية، لكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه فيقتضى ذلك تذكر المألوفات وعودها إلى القلب فربما يكون غلبة الالف سبباً لان تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه إليها وتقبض عليها روحه ويكون ذلك سبب سوء خاتمته وان كان اصل الايمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله. وكما ان ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته احد إلا الله فكذلك مايرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له اسباب عند الله لا نعرف بعضها، وربما نتمكن من معرفة بعضه، فانا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء إلى مايناسبه، إما

بالمشابهة بأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر، وإما بالمضادة، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً، وإما بالمقارنة، بأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء، ولا يدرى وجه المناسبة له، وربما ينتقل إلى شيء لا يعرف سببه أصلا. وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها اسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور. ومن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصى والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها، وفي قمع الشهوات عن قلبه، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه إلى الله وحبه وانسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، إذ المرء يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، كما ورد في الخبر٨[٨]. وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره، حيث يظهر منه عند ذلك، وانما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر، ومنه عظم خوف العارفين، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كلياً، وان كان لطول الالف والعادة تأثير ومدخلية، ولذا إذا أراد الإنسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والائمة (ع) وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه. وبالجملة: اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة. وبذلك يعلم أن اعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وان السلامة مع اضطراب امواج الخواطر مشكلة ولذلك قال رسول (ص): **" إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة، فيختم له بما سبق به الكتاب "** ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة،

---

٨ [8] لم نعثر على مصدر لهذا الخبر، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا في (الحقائق) - ص٨٨ طبع ايران - للشيخ (ملا محس الفيض) ولم يذكر المصدر له.

بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. ومن هنا قيل٩[٩]. **" إني لا أعجب ممن هلك، كيف هلك، ولكنى اعجب ممن نجا كيف نجا "**، وورد١٠[١٠]: **" أن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن، وقد مات على الخير والإسلام، تعجبت الملائكة منه، وقالوا: كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا "**. ولذلك قيل١١[١١]: من وقعت سفينته في لجة البحر، وهجمت عليه الرياح العاصفة، واضطربت الأمواج، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر، ومقلب القلوب هو الله. ومن هنا يظهر سر قوله: **" الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم "**١٢[١٢]. ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروهاً، إذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب.

واما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب غير حب الله، وخرج حب الدنيا والمال والولد، فان من هجم على صف القتال بامر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه، بائعاً دنياه بآخرته، راضياً بالبيع الذي بايعه الله به في قوله:

---

٩ [9] القائل هو (مطرف بن عبد الله) كما في احياء العلوم: ج٤ ص١٥٥.

١٠ [10] يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث. وفي احياء العلوم ـ ج٤ ص١٥٥ ـ كلام ينقله عن (حامد اللفاف).

١١ [11]القائل هو (الغزالى) في احياء العلوم، في الصفحة المتقدمة.

١٢ [12] جاء نص هذا الكلام في اثناء كلام (الغزالى) في احياء العلوم ـ ج٤ ص١٥٦ ـ وكأنه من كلام نفسه. إلا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص٣٢٠، عن النبي (ص) مرسلا. وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب إلى الصادق (ع) ـ في الباب ـ

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة "١٣[١٣].

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر، وإن كان ظلماً، وإن كان في الجهاد، إذ لم تكن هجرته فيه إلى الله ورسوله، بل إلى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها.

وقد ظهر مما ذكر: ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع إلى أحوال القلب، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء، بل أمره إلى الله، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها، ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة:

" فقد ضل ضلالاً بعيداً "، " خسر خسراناً مبيناً "١٤[١٤]

ومن زهق روحه على خاطر خير وهو أن يكون قلبه في حالة الموت ـ ٧٧ ما يقرب من هذا النص. فماذا نظن أراد المؤلف بقوله: (سرقوله)، هل أراد الغزالي ياترى؟ متوجهاً إلى الله ممتلياً من حبه وانسه "فقد فاز فوزاً عظيماً ". وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية، واخراج حب الدنيا عنها رأساً، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم، بل عن مباحات الدنيا بالكلية، وتخلية السر عما سوى الله، والانقطاع بشراشره اليه، واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه، حتى يصير حبه سبحانه والانس به ملكة راسخة، ليغلب على القلب عند سكرة الموت، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حبا لله وأنسا به وتوجها اليه، بل لا يخطر ببالك أن لك ربا متصفا بالصفات الكمالية، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة، فان زهق روحك عند اشتغال

---

١٣ [13] التوبة، الآية: ١١١.

١٤ [14] النساء، الآية: ١١٦، ١١٩.

خاطرك بشيء من الامور الدنيويه، ولم يكن متوجها إلى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجا بحبه وأنسه، لبقيت على تلك الحالة أبداً، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى.

فتيقظ ـ يا حبيبي ـ من سنة الغفلة، وتنبه عن سكر الطبيعة، واخرج حب الدنيا عن قلبك، وتوجه بشراشرك إلى جناب ربك، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك، واقنع من الطعام مايقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الابصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الامطار، فان جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك. وبعد ذلك راقب قلبك في جميع الاوقات، واياك أن تهمله لحظة من اللحظات، واحفظه من ان يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه،،وليكن القرب إلى الله والانس به غاية همك إذ العاقل انما يميل ويشتاق إلى ماهو الاشرف والأكمل، ويسر ويرتاح بماله احسن وانفع، ولا ريب في ان اشرف الموجودات واكملها هو سبحانه، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال، وإن معرفته وحبه احسن الاشياء وانفعها لكل احد، لأنه الباعث للسعادة والأبدية والبهجة الدائمية، فلا ينبغي للعاقل ان يترك ذلك اشتغالا بفضول الدنيا وخسائسها، بل يلزم عليها ان يترك حبلها على غاربها، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها، ويتوجه بكليته إلى جناب ربه، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وانسه.

فصل

(الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله)

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة، ولاريب في كونه فضيلة وكمالا، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال، ونقيضه نقص ورذيلة.

وأما الخوف الممدوح، فضده الأمن من مكر الله، وهو من المهلكات، وقد ورد به الذم في الآيات والاخبار، قال الله سبحانه:

" **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** "١٥[١٥]

وقد ثبت بالتواتر: أن الملائكة والانبياء كانوا خائفين من مكره، كما روي: " **انه لما ظهر على ابليس ما ظهر، طفق جبرائيل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله اليهما: مالكما تبكيان؟ فقالا: ياربّ! لا نأمن مكرك. فقال الله هكذا كونا، لا تأمنا مكرى** " وروي: " **أن النبي (ص) وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى، فأوحى الله اليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا ومن يأمن مكرك؟** " وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحاناً، حتى أن سكن خوفهما١٦[١٦] ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما، كما ان إبراهيم (ع) لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة، فامتحن وعورض بجبرئيل (ع) في الهواء حتى قال: ألك حاجة؟ قال: أما اليك فلا. وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله، فاخبر الله تعالى عنه وقال:

" **وإبراهيم الذي وفّى** "١٧[١٧]

وبالجملة: ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه، كما لم يأمن منه الملائكة والانبياء، وإذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً.

---

١٥ [15] الاعراف، الآية: ٩٩.

١٦ [16] هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان، يعنى: انهما يخشيان إذا سكن خوفهما ان يظهر انهما قدامنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحانا لهما

١٧ [17] النجم، الآية: ٣٧.

التلازم بين الخوف والرجاء

مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف

تتميم

(التلازم بين الخوف والرجاء)

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب، وهو يلازم الخوف، إذ الخوف ـ كما عرفت ـ عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً، وما كان حصوله مكروها كان عدم حصوله محبوبا، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضاً، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمه الرجاء عدما، وعنه عدما يلزمه الرجاء وجوداً. وقس عليه استلزام الرجاء للخوف، فهما متلازمان، وان أمكن غلبة أحدهما نظراً إلى كثرة حصول اسبابه. وان تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاء، بل سمي انتظار مكروه أو انتظار محبوب.

ثم كما ان الخوف من متعلقات قوة الغضب، وان الممدوح منه من فضائلها، لكونه مقتضى العقل والشرع، وباعثاً للعمل من حيث الرهبة، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها، لكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة. إلا ان الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التفريط، والرجاء لترتبه على قوته يكون أقرب إلى طرف الافراط، وان كان كلاهما ممدوحين. ثم لابد ان يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيداً في أرض طيبة يصلها الماء. واما انتظار مالم يحصل شيء من اسبابه فيسمى غروراً وحماقة، كتوقع من القى بذراً في ارض سبخة لا يصلها الماء. وانتظار ما كان اسبابه مشكوكة يسمى تمنياً، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء.

وتفصيل ذلك. ان الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والايمان كالبذر، والطاعات هي الماء الذي تسقى به الأرض، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والاحجار والنباتات الخبيثة، ويوم القيامة هو وقت الحصاد. فينبغي ان يقاس رجاء العبد

(المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية)، وكما ان من القى البذر في ارض طيبة، وساق إليها الماء في وقته، ونقاها الشوك والحجار، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً ان يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً، سمى انتظاره رجاء ممدوحا، فكذلك العبد إذا طهر ارض قلبه عن شوك الأخلاق الردية وبث فيه بذر الايمان بماء الطاعات، ثم انتظر من فضل الله تثبيته إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه. وكما ان من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة، أو ألقى البذر في ارض سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء، ولم يشتغل بتعهد البذر واصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع، ثم جلس منتظراً إلى ان ينبت له زرع يحصده، سمي انتظاره حمقاً وغروراً. كذلك من لم يلق بذر الايمان في أرض قلبه، أو ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في خسائس الشهوات واللذات، ولم يسق إليها ماء الطاعات، ثم انتظر المغفرة، كان انتظاره حمقاً وغروراً. وكما ان بث البذر في ارض طيبة لا ماء لها، وجلس ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار، وان لم يمتنع أيضاًً، سمي انتظاره تمنياً. كذلك من ألقى بذر الايمان في ارض قلبه, ولكنه لم يسق إليه ماء الطاعات، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله، كان انتظاره تمنياً.

فاذن، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات. فالا حاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته، إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما، وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد. فحذر ان يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل. وانظر إلى حال الانبياء والاولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلاً ونهاراً، اما كان يرجون عفو الله ورحمته؟ بلى والله! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد، ولكن علموا ان رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم.

ونحن نشير (أولا) إلى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والاخبار، ثم نورد نبذاً مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل، ليعلم ان اطلاق الاول محمول على الثاني، فنقول: الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من ان تحصى، وهي على أقسام:

(الاول) ما ورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى:

" يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله "١[١].

وقول علي (ع) لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: **" أيا هذا! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك "**. وما روى: **" انه (ص) لما قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم. فهبط جبرئيل (ع) فقال: ان ربك يقول: لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم "**. وما ورد: **" ان رجلاً من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم، فيقول الله له يوم القيامة: اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها "**.

(الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة، كما ورد في أخبار يعقوب من **" انه تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لقولك:**

وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون "٢[٢].

لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة اخوته ولم تنظر إلى حفظي؟ "

وقول أمير المؤمنين (ع) لرجل قال عند النزع: أجدني اخاف ذنوبي وارجو رحمة ربي: **" ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف "**٣[٣]، وقول النبي

---

١ [1] الزمر، الآية: ٥٣.

٢ [2] يوسف، الآية: ١٣.

(ص): " ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر ان تنكره؟ فان لقنه الله حجته، قال: رب رجوتك وخفت الناس، فيقول الله: قد غفرته لك ". ومارووي عنه (ص): " ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان، فيقول الله لجبرئيل: اذهب فأتني بعبدي، فيجيء به، فيوقفه على ربه، فيقول الله له: كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان، فيقول: رده إلى مكانه. قال: فيمشي ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عز وجل: إلى أي شيء تلتفت؟ فيقول: لقد رجوت إلا تعيدني إليها بعد إذا اخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة". وقوله (ص): " قال الله تعالى: لا يتكل العاملون على اعمالهم التي يعملونها لثوابي، فانهم لو اجتهدوا واتعبوا انفسهم اعمارهم في عبادتي، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، وفضلي فليرجوا٤[٤]، فان رحمتي عند ذلك تدركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فاني انا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت ".

وعن ابي جعفر (ع) قال: " وجدنا في كتاب علي (ع) ان رسول الله (ص) قال وهو على منبره: والذي لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لان الله كريم بيده الخيرات يستحيي٥[٥] ان يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه ".

---

٣ [3] روى (احياء العلوم: ج٤ ص١٢٥) هذا الحديث عن النبي (ص).

٤ [4] في الكافي في (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا، فقد جاء فيه: "وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا ".

٥ [5] في الكافي في (باب حسن الظن): (يستحي).

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والانبياء للمؤمنين كقوله تعالى:

" والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض "[6][٦].

وقوله (ص): **" حياتي خير لكم وموتي خير لكم، اما حياتي فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع، واما موتي فان أعمالكم تعرض علي، فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم "**.

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب إلى ان يستغفر، كقول الباقر (ع): **" ان العبد إذا اذنب أجل من غدوة إلى الليل، فان استغفر لم يكتب عليه"**[7][٧]. وقول الصادق (ع): **" من عمل سيئة أجل فيها سبع ساعات من النهار، فان قال: استغفر الله الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم واتوب إليه ثلاث مرات، لم تكتب عليه "**.

(الخامس) ما ورد في شفاعة النبي (ص) كقوله تعالى:

" ولسوف يعطيك ربك فترضى "[8][٨]

وقد ورد في تفسيره ان لا يرضى محمد وواحد من امته في النار، وقوله (ص): **" ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي "**، وكذا ما ورد في شفاعة الائمة والمؤمنين.

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار، ومن ان حب النبي (ص) والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب، وان فعلوا ما فعلوا.

---

٦ [6] الشورى، الآية: ٥.

٧ [7] روى الكافي في (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق (ع).

٨ [8] الضحى، الآية: ٥.

(السابع) ما دل على ان النار انما عدها الله لاعدائه من الكافرين، وانما يخوف بها أولياءه، كفوله تعالى.

" لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده "٩[٩]، وقوله:

"واتقوا النار التي أعدت للكافرين "١٠[١٠] وقوله: لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى "١١[١١].

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته، كقوله:

" وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم "١٢[١٢]

وما روى في تفسير قوله تعالى:

يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه١٣[١٣]

" ان الله أوحى إلى نبيه: اني اجعل حساب أمتك اليك، فقال: لا يارب! أنت خير لهم مني١٤[١٤]، فقال اذن لا أخزيك فيهم " وما روى: " انه (ص) قال يوماً: يا كريم العفو! فقال

---

٩ [9] الزمر، الآية: ١٦.

١٠ [10]آل عمران، الآية: ١٣١.

١١ [11] الليل، الآية: ١٥ ـ ١٦.

١٢ [12] الرعد، الآية ٦.

١٣ [13] التحريم، الآية ٨.

١٤ [14] في (احياء العلوم: ج٤ ص١٢٨) هكذا: " انت ارحم بهم مني". وكذا بدل لا اخزيك: "لا نخزيك".

جبرئيل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ هو: انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه"١٥[١٥]. وما ورد: ان العبد إذا أذنب فاستغفر، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً، فعلم ان له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم اني قد غفرت له. وما ورد في الخبر القدسي: انما خلقت الخلق ليربحوا علي، ولم أخلقهم لأربح عليهم ". وما ورد من " انه لو لم يذنبوا، لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم " وقوله (ص): " والذي نفسي بيده. الله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها " وما ورد من " انه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب احد حتى ان ابليس يتطاول لها رجاء ان تصيبه". والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر.

(التاسع) ما دل على ان ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه، كقوله (ص): " الحمى من فيح جهنم، وهي حظ المؤمن من النار ".

(العاشر) ما ورد في ان الايمان لا يضر معه عمل، كما ان الكفر لا ينفع معه عمل، وفي انه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لاجل مثقال ذرة من الايمان أو عمل جزئي من الاعمال الصالحة.

(الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله، كقوله (ص): " لا يموتن احدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله " وقوله (ص): " يقول الله تعالى: انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ". وقول الرضا (ع): " احسن الظن بالله، فان الله عز وجل يقول: انا عند ظن عبدي لي، ان خيراً فخير وان شراً فشر ". وقول الصادق (ع): "حسن الظن بالله: ألا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلاّ ذنبك" وقد تقدم بعض أخبار اخر في هذا المعنى. ثم إيجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه.

---

١٥ [15] في (احياء العلوم: ص١٢٩ من ج٤) هكذا: " هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه ".

(الثاني عشر) ما دل على ان الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة، كما روى أنه (ص) قال: **" امتي امة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة، وعجل عقابها في الدنيا بالزلزال والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من امتي رجل من أهل الكتاب، فقيل هذا فداؤك من النار "**. وعن أهل البيت (ع): **" ان النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم اياهم ووقيعتهم فيهم "**. وعن الصادق (ع): **" سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في اعماله، بعد ان صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه، ويوقف بازائه ما بين مائة واكثر من ذلك إلى مائة الف من النصاب، فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار، وذلك ما قال تعالى:**

" ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين "١٦[١٦]

في الدنيا منقادين للامامة، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم ".

وأما (الثاني) ـ اعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل ـ فأكثر من أن يحصى، كقوله تعالى:

" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله "١٧[١٧].

وقوله: **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا "١٨[١٨]**

وقول النبي (ص): **" الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة "**. وما روي عن الصادق (ع) أنه قيل له: **قوم يعملون بالمعاصي ويقولون:**

---

١٦ [16] الحجر، الآية: ٢.

١٧ [17] البقرة، الآية: ٢١٨.

١٨ [18] الاعراف، الآية: ١٦٩.

نرجوا فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: " هؤلاء قوم يترجحون في الاماني كذبوا ليسوا براجين، "إن"١٩[١٩] من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه" وعن علي بن محمد، قال: قلت له عليه السلام: إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجوا، فقال: " كذبوا، ليسوا لنا بموال أولئك قوم ترجحت بهم الاماني. من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه". وعنه قال: " لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجيا، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو ".

فصل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان، لكونهما باعثين على العمل، ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب، ففضل كل منهما إنما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض.

وهذا يختلف باختلاف الاشخاص: فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل اكثر من تأثير الرجاء فيه، فالخوف له أصلح من الرجاء، ومن كان بالعكس فبالعكس ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به، فالخوف له اصلح. ومن غلب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء له اصلح. ومن انهمك في المعاصي، فالخوف له اصلح. ومن ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه، فالاصلح له ان يعتدل خوفه ورجاؤه.

والوجه في ذلك: ان كل ما يراد به المقصود، ففضله إنما يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات، فالاصلح اعتدالهما، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده: " يابني: خف الله خوفا ترى انك إن اتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء كأنك لو اتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ". وقال الباقر (ع): " ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على

---

١٩ [19] روى الحديث في الكافي (باب الرجاء) وليس فيه كلمة "إن".

هذا، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من اثنى عليهم، فقال: يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال: يدعوننا رغبا ورهبا ". وعن الحارث بن المغيرة قال: قلت للصادق (ع): ما كان في وصية لقمان؟ قال: " كان فيها الاعاجيب، وكان اعجب ما كان فيها ان قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك "، ثم قال (ع): " كان ابي عليه السلام يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران. نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا ".

وقال (ع): " الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً وإليه راجياً، وهما جناحا الايمان، يطير العبد المحلق بهما إلى رضوان الله، وعينا عقله، يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده، والخوف طالع عدل الله وناعى وعيده، والرجاء داعي فضل الله، وهو يحيى القلب، والخوف يميت النفس... ومن عبدالله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل، ويصل إلى مأموله، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً، ولا قدرة له على شيء ولا مفر، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه من حيث لا تحصى ولا تعد، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة احواله بعين سهر٢٠[٢٠]، والزاهد يعبد على الخوف "٢١[٢١].

وقد ظهر مما ذكر: ان الرجاء اصلح وافضل في موضعين: (احدهما) في حق من تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات، ومثله ينبغي ان يرجي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين، حتى ينبعث من

---

٢٠ [20] هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار، ولم نعثر على استعمال (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة.

٢١ [21] هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة، وقد تقدم راي صاحب البحار في مصباح الشريعة ص١٢١ في تعليقتنا وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من اسلوب كلام الإمام (ع).

رجائه نشاط العبادة. (ثانيهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة، فيقنطه الشيطان من رحمة الله، ويقول له: كيف تقبل التوبة من مثلك؟ فعند هذا يجب عليه ان يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه، كقوله تعالى:

" لا تقنطوا من رحمة الله "٢٢**[٢٢]** وقوله: **" وإني لغفار لمن تاب "**٢٣**[٢٣]**.

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها، إذ لو توقع المغفرة مع الاصرار كان مغروراً. والرجاء الاول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة.

فصل

(العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف، لان اقرب العباد احبهم اليه، والحب يغلب بالرجاء. واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه، ولذلك عير الله اقواماً يظنون السوء بالله، قال:

" وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم "٢٤**[٢٤]**.

وقال:

" وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً "٢٥**[٢٥]**.

---

٢٢ [22] الزمر، الآية: ٥٣.

٢٣ [23] طه، الآية: ٨٢.

٢٤ [24] فصلت، الآية: ٢٣.

٢٥ [25] الفتح، الآية: ١٢.

وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد ـ كما تقدم ـ وفي الخبر: **" ان الله تعالى اوحى إلى داود: احبني واحب من يحبني وحببني إلى خلقي، فقال: يارب: كيف احببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي واحساني، وذكرهم ذلك، فانهم لايعرفون مني إني الجميل"**. ورأى بعض الأكابر في النوم ـ وكان يكثر ذكر ابواب الرجاء ـ فقال: " اوقفني الله بين يديه، فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: اردت ان احببك إلى خلقك. فقال: قد غفرت لك ".

هذا مع ان الرجاء افضل من الخوف للعبد بالنظر إلى مطلعهما، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب. ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده إلاّ لتفات إلى الصفات التي تقتضي الغضب فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء. نعم، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان، فالأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط ألا يخرجهم إلى اليأس وقطع العمل، بل يحثهم على العمل، ويكدر شهواتهم، ويزعج قلوبهم عن الركون إلى دار الغرور، ويدعوهم إلى التجافي عن عالم الزور، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لاريب في أصلحية الخوف، (لا) سيما أن الآفات الخفية: من الشرك الخفي، والنفاق، والرياء وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في اكثر الناس موجودة، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة، ومناقشات الحساب ورد اعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة، فمن عرف حقائق هذه الامور، فان كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه. وأما أن يغلب رجاؤه فلا، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر، كما في غالب الناس، بل الأصلح لهم غلبة الخوف، ولكن قبل الاشراف على الموت، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل، وقد انقضى وقته وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فيقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه.

وينبغي ان لا يفارق أحد الدنيا إلاّ محباً لله، ليكون محباً للقائه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن أحب الله ولقاءه، وعلم انه تعالى أيضاًً يحب لقاءه، اشتاق إليه تعالى، وكان فرحاناً بالقدوم عليه، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا، فكانت الدنيا جنته، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه. وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والأغلال. وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب، فالدنيا أول سجنه، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول إلى محابه، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلي بينه وبين محبوبه، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها، فضلا عما اعده الله مما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف أمراضهم
صغر النفس
كبر النفس
الثبات أخص من كبر النفس
دناءة الهمة
عدم الغيرة والحمية
الغيرة والحمية
الغيرة على الدين والحريم والأولاد

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت أن المحتاج إلى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله. وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف ـ كأكثر أبناء زماننا ـ فأدوية الرجاء بالنسبه اليهم سموم مهلكة، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تماديا في طغيانهم وفساداً في فسادهم وعصيانهم، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف أمراضهم وينظر إلى مواقع عللهم، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء، بل يبالغ في ذكر اسباب الخوف، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس، فينتقل إلى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم.

وبالجملة: الطريق إلى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه: ان يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته ـ كما تقدم شطر منها ـ ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود، بل لم يترك لهم شيئا جزئيا يحتاجون إليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الأولى لهم من الزينة والجمال. فإذا لم تقصر العناية الالهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا ـ وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار

النعمة والراحة ـ ولم يرض ان يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم إلى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد، مع ان تعالى اخبر بأن رحمته سابقة على غضبه؟! واقوى ما يجلب به الرجاء ان يعلم ان الله تعالى خير محض لا شرية فيه اصلا، وفياض على الاطلاق، وإنما اوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم، فلا بد ان يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم.

ان خير محض جز نكوئى نآيد　　　خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد[١][١]

ومنها:

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات، وهو من نتائج الجبن، ومن خبائث الصفات. وتلزمه الذلة والمهانة، وعدم الاقتحام في معالي الامور، والمسامحة في النهي عن المنكر والامر بالمعروف، والاضطراب بعروض ادنى شيء من البلايا والمخاوف. وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن بريء عن ذلة النفس، قال الصادق (ع): **" ان الله عز وجل فوض إلى المؤمن اموره كلها ولم يفوض إليه ان يكون ذليلا: اما تسمع الله تعالى يقول:**

" ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "[٢]**[٢]**

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلا، ان المؤمن اعز من الجبل، الجبل يستقل منه[٣][٣] بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء ".وقال (ع): **" ان الله فوض إلى المؤمن كل**

---

[١] [1] وحاصل معنى هذا البيت: (ان الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل فكن مطمئنا ان عاقبتك ستكون إلى الجميل).

[٢] [2] المنافقون، الآية: ٨.

شيء إلا اذلال نفسه ". وقد وردت بهذا المضمون أخبار اخر. وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن.

فصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها)، وقد عرفت انه ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان. وقد دلت الأخبار على ان المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة، وكل ذلك فرع كبر النفس. قال الباقر (ع): **" المؤمن أصلب من الجبل "**، وقال (ع): **" ان الله اعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والآخرة، والفلج في الدنيا والآخر، والمهابة في صدور الظالمين "**. وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار، بل الصحة والمرض والمدح والذم، ولا يتأثر بتقلب الامور والاحوال. وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد، ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد، بل لا يحوم حولها إلا اوحدي من أفاضل الحكماء، أو ألمعي قوي القلب من اماثل العرفاء. وطريق تحصيلها ـ بعد تذكر شرافتها ـ ان يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها، حتى تحصل بالتدريج.

تتميم

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت ان الثبات أخص من كبر النفس، وهو ملكة التحمل على الخوض في الاهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام، بحيث لا يعتريه الانكسار، وان زادت وكثرت. وضده

---

٣ [3] تقدم في صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث، ورجعنا فيه كلمة (يستفل) بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في اصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) ــ بالقاف ــ وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك. وجاء في البحار (الجزء الاول من المجلد ١٥ ــ باب علامات المؤمن وصفاته ص٥٩٦) في شرح هذا الحديث هكذا: " الجبل يستقل منه: من القلة، اي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما ".

الاضطراب في الاهوال والشدائد، ومن جملة الثبات الثبات في الايمان، وهو اطمئنان النفس في عقائدها، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات، قال الله تعالى:

" يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة "٤[٤].

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الاعمال، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شيء من الاعمال الفاضلة، بل هو:

" كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران "٥[٥].

والمتصف به مواظب لها دائماً من غير فتور. وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس. فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب، وعدمه من رذائل إحداهما أو كليهما،

ومنها:

دناءة الهمة

وهو قصور النفس عن طلب معالي الامور وقناعتها بادانيها، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها. وضده (علو الهمة). وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الامور، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها، حتى لا يعتريه السور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وامثالهما. وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت، والموت تحفة له، واعظم سرور يصل اليه، كما ورد في الاخبار. وهو الذي يقول:

---

٤ [4] إبراهيم، الآية: ٢٧.

٥ [5] الانعام، الآية: ٧١.

آن مرد نيم كز عدمم بيم آيد

كان بيم مراخوشتر از اين بيم آيد

جاني است مرا بعاريت داده خدا

تسليم كنم چو وقد تسليم آيد٦[٦]

ويقول:

مرگ اگرمرداست گونزد من آى

تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ

من از آن عمري ستانم جاودان

آن زمن دلقي ستاند رنگ رنگ٧[٧]

ويقول:

اين جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست

روزي رخش ببينم وتسليم وى كنم٨[٨]

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها، وهي اعظم الفضائل النفسانية، إذ كل من وصل إلى المراتب العظيمة والامور العالية فانما وصل إليها لأجلها، إذ صاحبها لا يرضى

---

٦ [6] الابيات كلها لــ(حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره. ومعنى البيتين: (لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه، فان ما اخشى منه ــ وهو الموت ــ احسن عندي من نفس الخوف منه، لان نفسي قد اعارنيها الله تعالى، فعلي ان اسلمها عندما يطلب تسليم العارية).

٧ [7] معنى البيتين: (لو ان الموت رجل، فقل له: يأتيني حتى احتضنه شوقاً اليه، وألزه لزاً، وذلك لاني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه الزخارف الفانية للوارث).

٨ [8] معنى البيت: (ان هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ ــ ويعني نفسه ــ لابد ان أسلمها في يوم من الايام عندما أرى وجه الحبيب ــ يعني بالحبيب: الله تعالى).

بالمراتب الدنية، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والامور المتعالية، وفي جوهر الإنسان وجبلته ان يصل إلى كل ما يجتهد في طلبه:

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "[٩]**[٩].**

ومنها:

عدم الغيرة والحمية

وهو الاهمال في محافظة ما يلزم محافظته: من الدين، والعرض، والأولاد، والاموال. وهو من نتائج صغر النفس وضعفها، ومن المهلكات العظيمة، وربما يؤدي إلى الدياثة والقيادة. قال رسول الله (ص) **"اذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب "**. وقال (ص): **" إذا غير الرجل في اهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله إليه طائراً يقاله (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه، ثم يمهله اربعين يوماً، ثم يهتف به: ان الله غيور يحب كل غيور، فان هو غار وغير وانكر ذلك فاكبره، والا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه، فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان، وتسميه الملائكة: الديوث "**. وقال (ص): **" كان إبراهيم غيوراً وانا اغير منه، وجدع الله انف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين "**. وقال أمير المؤمنين (ع): **" يا أهل العراق: نبئت ان نساءكم يدافعن الرجال في الطريق، اما تستحيون؟ "**. وقال (ع): **" اما تستحيون ولا تغارون، نساؤكم يخرجن إلى الاسواق ويزاحمن العلوج؟ "**.

فصل

(الغيرة والحمية)

وضده (الغير والحمية)، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها. وهي شرائف الملكات، وبها تتحقق الرجولية والفحلية، والفاقد

---

٩ [9]العنكبوت، الآية: ٦٩.

لها غير معدود من الرجال. قال رسول الله (ص): **" ان سعداً لغيور، وانا اغير من سعد، والله اغير مني "**. وقال (ص): **" ان الله لغيور، ولاجل غيرته حرم الفواحش "** وقال: **" ان الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله ان يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه "**. وقال الصادق (ع): **" ان الله تعالى غيور ويحب الغيرة، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها ."**

فصل

(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) ان يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وقصاص المرتدين، واهانة من يستخف به من المخالفين، ورد شبه الجاحدين، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه، ولا يتسامح في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مباديء الامور التي تخشى غوائلها، فيحفظهن عن اجانب الرجال، ويمنعهن عن الدخول في الاسواق. قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع): **" اي شيء خير للمرأة؟ قالت: ان لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. فضمها اليه، وقال: ذرية بعضها من بعض"**. وكان اصحاب النبي (ص) يسدون الثقب والكوى في الحيطان، لئلا تطلع النساء على الرجال. وقال (ص): **" من اطاع امرأته اكبه الله على وجهه في النار"** وما روى انه (ص): **" اذن للنساء في حضور المساجد"** وقال: **" لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"**، فالظاهر انه كان مختصاً بنساء عصره (ص): لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها. والصواب اليوم ان يمنعن من حضور المساجد والذهاب إلى المشاهد إلا العجائز منهن، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر إلى أي موضع كان. وسئل الصادق (ع) عن خروج النساء في العيدين، فقال: **" لا! إلا العجوز عليها منقلاها "**، يعني الخفين، وفي رواية اخرى انه (ع): **" سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة، فقال: لا! إلا امرأة مسنة ".**

وبالجملة: من اطلع على احوال نساء امثال عصرنا يعلم ان مقتضى الغيرة ان يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل ان يؤدي إلى فتنة وفساد، سواء كان في نفسه محرماً كالنظر إلى الرجال الاجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة، اولا، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا ابي عبدالله الحسين (ع)، إذ ذلك وان كان في نفسه راجحاً إلاّ ان الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا، فان اقل ما في الباب انه لا ينفك عن نظرهن إلى الاجانب واستماع كلامهم، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن، وهذا خروج للطرفين إلى الانحراف عن قانون العفة مع انا نعلم قطعاً ان خروج اكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح، وما اقل فيهن ان يكون خروجها إلى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب. فالصواب ان يمنعن في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج، إلاّ إلى سفر واجب، كالحج، أو إلى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل، إذا لم يتمكن ازواجهن من اخذها وايصالها اليهن. نعم لو فرض خروجها إلى احد المشاهد أو إلى مجمع تعزية من مجامع النساء بل إلى مجمع العرس على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه. وجميع ذلك انما هو في الشواب من النساء، واما العجائز فلا بأس بخروجهن إلى المواضع المذكورة! ومقتضى الغيرة ان يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم لانهن ناقصات العقل والايمان، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهن فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك إلى فساد عظيم. ولذلك ورد في الأخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف (ع)، إذ استماعهن لامثال القصة المذكورة فيها ربما أدى إلى انحرافهن عن طريق العفة. قال أمير المؤمنين (ع): **" لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فان فيها الفتن، وعلموهن سورة النور فان فيها المواعظ "**.

وقال (ع): **" لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور"**. وقال رسول الله (ص): **" لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور"**.

وبالجملة: مقتضى العقل والنقل ان يمنعن عن جميع ما يمكن ان يؤدي إلى فساد وريبة، وعن مباديء الامور التي تخاف غوائلها، وينبغي لصاحب الغيرة ان يجعل نفسه مهيباً في نظرها، حتى تكون منه على خوف وحذر، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها، وان يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور، كتدبير المنزل وإصلاح امر المعيشة، أو بكسب من المكاسب، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الاوقات، إذ لو خلت عن الاشغال وتعطلت عن المهمات اوقعها الشيطان في أودية الافكار الردية، فتميل إلى الزينة والخروج والتفرج، والنظر إلى اجانب الرجال، والملاعبة والمضاحكة للنسوان، فينجر امرها إلى الفساد، وينبغي أيضا لصاحب الغيرة ان يعطي امرأته ما تحتاج إليه من القوت واللباس وسائر الضروريات، حت لا تضطر إلى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والافعال توصلاً إلى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها.

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله (ص): **" ان يتبع عورات النساء وان يتعنت بهن"**. وفي الخبر المشهور: **ان المرأة كالضلع، ان اردت ان تقيمه كسرته، فدعه تستمتع به على عوج "**. وقال (ص): **" من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة "** وقال أمير المؤمنين (ع): **" لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك "**. وقال (ع) في رسالته إلى الحسن (ع): **" إياك والتغاير في غير موضع الغيرة، فان ذلك يدعوهن إلى السقم، ولكن احكم امرهن، فان رأيت عيباً فعجل النكير على الصغير والكبير، بان تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب "**. وبالجملة: لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه، فان بعض الظن اثم.

واما مقتضى الغيرة على (الاولاد): ان تراقبهم من أول أمرهم، فاستعمل في حضانة كل مولود له وأرضاعه إمرأة صالحة تأكل الحلال، إذ الصبي الذي تتكون اعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه إلى الخبائث، لان طينته انعجنت من الخبث.

واذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي ان يؤدب بآداب الاخيار. ولما كان اول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي ان يؤدب فيه بان يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه، ويقول (باسم الله) عند أكله، ويأكل مما يليه، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل، ولا يسرع في الاكل، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً، ولا يلطخ ثوبه ولا يده. ويقبح عنده كثرة الاكل بأن يذم كثير الاكل ويشبه بالبهائم، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ويحبب إليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بأي طعام اتفق. ثم يؤدب في امر اللباس، حتى لا يخرج فيه عن زي الابرار واهل الورع، فيجب إليه ثياب القطن والبيض، دون الابريسم الملون، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين، والرجال يستنكفون منه، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة. ثم يؤدب في الأخلاق والافعال ويبالغ في ذلك، لان الصبي إذا اهمل في اول نشوءه خرج في الاكثر ردى الأخلاق والافعال، فيكون كذاباً، حسوداً، لجوجاً، عنوداً، سارقاً، خائناً، ذا ضحك وفضول، وربما صار مخنثاً مائلا إلى الفسوق والفجور. فينبغي ان يحفظ من قرناء السوء، وهو الاصل في تأديبه. ويسلم إلى معلم دين صالح، يعلمه القرآن واحاديث الاخيار وحكايات الابرار، لينغرس في نفسه حب الصالحين. ويحفظ عن الاشعار التي فيها ذكر الفسوق واهله. إذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد. وينبغي ان يعود الصبر والسكوت إذا ضربه المعلم، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ، ويذكر له ان ذلك دأب الرجال والشجعان، وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي ان يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل حتى يستريح من تعب الادب، ولا يموت قلبه، ولا ينقص ذكاءه. ويعلم محاسن الأخلاق والافعال، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الاعمال. فيخوف من الحسد، والعداوة والجبن، والبخل، والكبر، ووالعجب. ويحذر من السرقة، واكل الحرام، والكذب،

والغيبة، والخيانة، والفحش، واللعن، والسب، ولغو الكلام... وغير ذلك. ويرغب في الصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والشجاعة، والسخاء، والصدق، والنصيحة... وغير ذلك من محاسن الأخلاق ووفضائلها. ويمدح عنده الاخيار ويذم الاشرار، حتى يصير الخير عنده محبوباً، ويصير الشر عنده مبغوضاً.

واذا بلغ سن التمييز، يؤمر بالطهارة والصلاة والصوم في بعض الايام من شهر رمضان، ويعلم اصول العقائد وكل ما يحتاج إليه من حدود الشرع. ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود، فينبغي ان يكرم عليه ويجازى لاجله بما يفرح به، ويمدح بين اظهر الناس. وان ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره، ولا يظهر له انه يتصور ان يتجاسر احد على مثله، (لا) سيما إذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه، فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك، فان عاد ثانياً إلى مثله، فينبغي ان يعاتب عليه سراً ويعظم الامر فيه، ويقال له: إياك ان يطلع على فعلك هذا احد فتفتضح عند الناس. ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الاب حافظاً هيبته في الكلام والحركات معه. وينبغي للام ان تخوفه بالاب. وينبغي ان يمنع من كل ما يفعله خفية، فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد انه قبيح، فإذا ترك يعود فعل القبيح. ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والافعال، وعدم كشف اطرافه، والتواضع والاكرام لكل من عاشره، والتلطف معه في الكلام. ويعلم طاعة والديه، ومعلمه، ومؤدبه، وكل من هو اكبر سناً منه، من قريب وبعيد، ويعود النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم ويمنع من الفخر على اقرانه بشيء مما تملكه نفسه أو والده. ويخوف من اخذ شيء من الصبيان أو الرجال، أو يذكر له الرفعة في العطاء، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة، فانه دأب الكلب، إذ هو يتبصبص في انتظار لقمة، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويحذر منهما اكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، إذ آفة حبهما اكثر من آفة السموم، وقد هلك لاجله كل من هلك في العالم. ويعود ألا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتمطط، ولا يتثأب بحضرة غيره، ولايستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب كفه تحت ذقنه، لانه دليل الكسل.

ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون. ويمنع من النوم في النهار، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم بل يعود الخشنة فيها حتى تتصلب اعضاؤه، ولا يستخف بدنه، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة، وان الاطعمة ادوية يتقوى الإنسان بها على عبادة الله، وان الدنيا كلها لا اصل لها ولا بقاء لها، وان الموت يقطع نعيمها، وانها دار ممر لا دار مقر. وان الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات، والكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة. وينبغي ان يمنع من كثرة الكلام، ومن الكذب، واليمين ولو كان صدقاً، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح، ومن ان يبتدىء بالكلام، ويعود ألا يتكلم إلاّ جواباً وبقدر السؤال، وان يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سناً منه، وان يقوم لمن هو اكبر منه، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه.

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة، فيكون خيراً صالحاً. وان نشأ على خلاف ذلك، حتى الف اللعب، والفحش، والوقاحة، والخرق، وشره الطعام. واللباس، والتزين والتفاخر بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر، وكان وبالاً لوالديه، وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار. فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا، لانه امانة الله عنده، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة، وقابل للخير والشر، وابواه يميلان به إلى احدهما، فان عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب، وان عود الشر واهمل شقى وهلك، وكان الوزر في رقبة ابيه أو من كان قيما ووليا له.

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية فيستعمل ما يليق بها، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت، والحجاب والوقار، والعفة والحياء، وسائر الخصال التي ينبغي ان تتصف بها النساء.

ثم ينبغي ان يتفرس من حال الصبي انه مستعد لأي علم وصناعة، فيجعل مشغولاً باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة، إذ كل أحد ليس مستعداً

لكل صناعة، والا لاشتغل الجميع باشراف الصناعات، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه.

واما الغيرة على (المال)، فلا تظن انها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار، إذ كل إنسان مادام في دار الدنيا محتاج اليه، وتحصيل الآخرة أيضاًَ يتوقف عليه، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن، وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الاغذية والأقوات. فلابد لكل عاقل ان يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه، كانفاقه للرياء والمفاخرة والتضيف، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سرأ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير ان يصل نفعه إلى أحد، أو اسرافه في بذله، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا. بل مقتضى الغيرة عليه ان يصرف جميع امواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها إلى نفسه، ولا يترك شيئاً منها لوارثه إلا للأخيار من أولاده، إذ بقائهم بمنزلة بقائه، ويترتب على وجودهم - مع حسن حالهم وعيشهم - جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة، لزوج امرأته، فيأكله ويجامعها، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال، ان يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية، وقس على ذلك تخليف الاموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء، من أولاد السوء وأزواج البنات، وسائر الاقارب من الاخوان والاخوات والاعمام والعمات والاخوال والخالات. وهؤلاء وان لم يكونوا بمثابة زوج

امرأته، إلا ان ترك الاموال لهم إذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش، كما هو المشاهد في زماننا هذا.

ومنها:

العجلة
الأناة والتوقف والسكينة والوقار
سوء الظن بالخالق والمخلوق
حسن الظن
الغضب
الإفراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب
الغضب

العجلة

وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاقدام على الامور بأول خاطر، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها. وقد عرفت انه من لوازم ضعف النفس وصغرها، وهو من الابواب العظيمة للشيطان، قد أهلك به كثيراً من الناس، قال رسول الله (ص): **" العجلة من الشيطان. والتأني من الله "**. وقد خاطب الله تعالى نبيه (ص) بقوله:

" ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه "[١]**[١]،**

وقد روي: **" انه لما ولد عيسى (ع) أتت الشياطين ابليس، فقالت اصبحت الاصنام قد نكست رؤسها. فقال: هذا حادث قد حدث، مكانكم. فطار حتى جاء خافقي الارض، فلم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى (ع) قد ولد، وإذا الملائكة قد حفت حوله، فرجع اليهم، فقال: ان نبياً قد ولد البارحة، ما**

حملت انثى قط ولا وضعت إلاّ وانا بحضرتها، إلا هذا فايأسوا أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة".

والظواهر في ذم العجلة اكثر من ان تحصى، ولذلك افتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة. والسر في شدة ذمها: ان الاعمال ينبغي ان تكون بعد المعرفة والبصيرة، وهما موقوفان على التأمل والمهلة، والعجلة تمنع من ذلك، فمن يستعجل في امر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدري. والتجربة شاهدة بأن كل امر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة، بل يكون مرضياً وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون، ولا وقع له عند القلوب. والمتأمل في الامور يعلم ان العجلة هو السبب الاعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الابد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها.

وبيان ذلك: انه لاريب في أن احب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء، لانها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة. والسر فيه: ان كل معلول من سنخ علته، ويناسبها في صفاتها وآثارها، وغاية ابتهاجه ان يتصف بمثل كمالاتها، ولذا قيل: " كل ما يصدر عن شيء لا يمكن ان يكون من جميع الجهات هو هو، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو". وهذا معنى كلام قدماء الحكمة: (الممكن زوج تركيبي). ولا ريب في ان جميع الموجودات معلومة للواجب سبحانه، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه ووجوده، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور إليه اقرب والواسطة بينهما اقل، تكون مناسبة له اتم وشوقه إلى الاتصاف بكماله أشد ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الامر مقتبسة من مشكاة نوره، فلها غاية القرب إليه في سلسلة الصدور، فتكون شديدة الشوق إلى الاتصاف بنحو كماله. والنفس الإنسانية لكونها منها ومن عالم الامر ـ كما قال الله تعالى ـ:

" قل الروح من أمر ربي "[٢][٢]

تكون مثلها في القرب إليه تعالى أو في المناسبة له، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء، وليس ذلك مذموماً، إذ ينبغي لكل عبد ان يطلب ملكا عظيماً لا أخر له، وسعادة دائمية لا نفاد لها، وبقاء لا فناء فيه، وعز لا ذل معه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر معه، وكمالا لا نقصان فيه. وهذه كلها من أوصاف الربوبية، وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة.

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء انما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الامر، إذ حسدها على كونها من عالم الامر، فأضلها واغواها من طريق العجلة، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بانواع الآلام، لكونه عاجلا، وصده عن الملك المخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع، لكونه آجلا. والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغباً في العاجلة، لما جاءه المطرود من عالم الامر، وتوسل اله بواسطة العجلة التي في طبعه، واستغواه بالعاجلة، وأمال قلبه إلى عدم الاعتناء بالآجلة، وزين له الحاضرة، ووعده بالغرور وبالتمني على الله في باب الآخرة، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علواً واستيلاء في الحقيقة، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية. مثال ذلك. أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال، ولكن إذا وقع في موقعه، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كاملاً في ذاته وصفاته، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره، ويختار الملك العاجل الفاني على السلطنة الآجلة الباقية، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره، إذ علم مداخل مكره، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة.

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق، أرسل الله اليهم الأنبياء، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازى الذي لا أصل له ولا دوام ان سلم إلى الملك الحقيقي الذي لا زوال له اصلا، فنادوا فيهم:

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة إلا قليل)٣[٣]

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية، كما قال سبحانه:

" إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً "٤[٤] وقال: " كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة "٥[٥]

فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق إلى الملك المخلد، ليكونوا ملوكاً في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى، ودرك بقاء لا فناء فيه، وعز لاذل معه، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد. والشيطان يدعوهم من طريق العجلة إلى ملك الدنيا الفاني، لعلمه بأن ما سمي ملك الدنيا، مع انه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات، يفوت به ملك الآخرة، إذ الدنيا والأخرة ضرتان. بل يفوت به الملك الحاضر الذي هو الزهد في الدنيا، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه، فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان. وهذا ملك بالاستحقاق، إذ به يصير صاحبه حراً وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه، فيكون مسخراً مثل البهيمة، مملوكا يسخره زمام الشهوة، أخذ المخنقة إلى حيث يريد ويهوى فما اعظم اغترار الإنسان، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً، وينال الربوبية بأن يصير عبداً. ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوسا في الآخرة؟. فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا والآخرة هو العجلة.

والطريق في علاجها: أن يتذكر فسادها، وسوء عاقبتها، وايجابها للخفة والمهانة عند الناس، وتأديتها إلى الندامة والخسران. ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده، وكونه صفة الانبياء والأخيار، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل والمهلة، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطناً وظاهراً في جميع أفعاله وسكناته، فإذا فعل ذلك مدة، ولو بالتكلف والتعمل، يصير ذلك عادة له، فتزول عنه هذه الصفة، وتحدث صفة الوقار والسكينة.

فصل

(الاناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة (الاناة)٦[٦]، وهو المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الام

والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها.

ثم (التوقف) قريب من التأني والأناة، والفرق بينهما: أن التوقف هو السكون قبل الدخول في الأمور حتى يستبين له رشدها، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه، وضد التوقف والتعسف.

و(الوقار) يتناول الأناة والتوقف كليهما، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الأقوال والافعال والحركات قبل الدخول فيها وبعدها. وهو من نتائج قوة النفس وكبرها. وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة، ولذا يمدح به الانبياء والاصفياء، وورد في الاخبار: **" أن المؤمن متصف به ألبتة"** فينبغي لكل مؤمن أن يتكلف آثاره في الحركات والافعال، حتى يصير بالتدريج ملكة، وتكلف الطمأنينة في الافعال والحركات قبل ان تصير ملكة يختص باسم الوقار، وإذا صارت ملكة سميت سكينة، إذ هي طمأنينة الباطن، والوقار اطمئنان الظاهر.

ومنها:

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه، وقد يترتب عليه الخوف والغم وهو من المهلكات العظيمة، وقد قال الله سبحانه:

" يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ "٧[٧]. وقال تعالى: " وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم "٨[٨]. وقال: وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً "٩[٩].

وقال أمير المؤمنين (ع): **" ضع امر اخيك على احسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من اخيك سوءاً وانت تجد لها في الخير محملاً "**.ولا ريب في ان من حكم بظنه على غيره بالشر، بعثه الشيطان على ان يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه، أو يقصر فيما يلزمه من القيام

بحقوقه، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه وكل ذلك من المهلكات. على ان سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته، كما ان حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد، وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن، فالمؤمن يظهر محاسن اخيه، والمنافق يطلب مساويه، وكل اناء يترشح بما فيه.

والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان: ان اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لأحد ان يعتقد في حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل، إذ حينئذ لا يمكنه إلاّ يعتقد ماشاهده وعلمه، واما مالم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه، فالشيطان القاه إليه، فينبغي ان يكذبه، لأنه افسق الفسقة، وقد قال الله:

" إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ[١٠][١٠].

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه، وإن حف بقرائن الفساد، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رأيت عالما في بيت أمير ظالم لا تظنن ان الباعث طلب الحطام المحرمة، لا حتمال كون الباعث إغاثة مظلوم. ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجزمن بشرب الخمر ووجوب الحد، إذ يمكن انه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه، أو شربه اكراهاً وقهراً. فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال، وهو صريح المشاهدة، أو قيام بينة فاضلة.

ولو اخبرك عدل واحد بسوء من مسلم، وجب عليك ان تتوقف في إخباره من غير تصديق ولا تكذيب، إذ لو كذبته لكنت خائناً على هذا العدل، إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة، فترد شهادته، ولو صدقته لكنت خائنا على المسلم المخبر عنه، إذ ظننت به السوء، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً، أو التباس الامر عليه بحيث لا يكون في أخباره بخلاف الواقع آثماً وفاسقاً. وبالجملة: لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر، فتذكر المذكور حاله على ما كان في الستر والحجاب، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع، ولا بحجة شرعية يجب قبولها، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة مجوزة للاخبار، وإن لم يكن مطابقا للواقع.

ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس، بل الشك أيضاً، إذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو أن يظن، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس إليه. والامارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة إلى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الافعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها. والدليل على ان المراد هو ما ذكر، قوله (ص): **ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج، فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه "**، أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح.

ثم لكون سوء الظن من المهلكات، منع الشرع من التعرض للتهمة، صيانة لنفوس الناس عنه، فقال (ص): **" إتقوا مواقع التهم "**. وقال أمير المؤمنين (ع): **" من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن "**. وروى: **" انه (ص) كان يكلم زوجته صفية بنت حي ابن أخطب، فمر به رجل من**

الأنصار، فدعاه رسول الله، وقال: يا فلان! هذه زوجتي صفية. فقال: يا رسول الله أفنظن بك إلا خيراً؟ قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يدخل عليك " فانظر كيف أشفق رسول الله (ص) على دينه فحرسه وكيف علم الأمة طريق الاحتراز عن التهمة، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيراً، أعجاباً منه بنفسه، فان مالا جزم بتحققه في حق سيد الرسل واشرفهم، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ. والسر في ذلك: أن أورع الناس وافضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط، فيكتم المحاسن ويطلب المساوي وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلاّ شراً، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب ان يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم، لأ البلية إذا عمت هانت، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول السنتهم فيه. فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن، فيكون شريكا في معصيتهم، إذ كل من كان سببا لمعصية غيره يكون شريكاً له في هذه المعصية. ولذا قال الله تعالى:

" ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علمٍ "١١[١١].

وقال رسول الله (ص): **" كيف ترون من يسب ابويه؟ فقالوا: هل من احد يسب ابويه؟ فقال: نعم! يسب ابوي غيره فيسبون ابويه ".**

ثم طريق المعالجة في ازالته ـ بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده ـ انه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم، لا تتبعه، ولا تحققه ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة إليه، من المراعاة والتفقد والإكرام والاعتماد بسببه، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقى إليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام. ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه، لتنظر إليه بعين الحقارة، مع أنه ينظر إليك بعين التعظيم، بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الاثم، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب إليك من تركه بنصيحتك، وإذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته.

فصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما) ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها، وفوائده أكثر من ان تحصى، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله، ولا يظن أنه لا يرحمه ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب، وان ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة، بل ينبغي ان يعلم انه أرحم وأرأف به من والديه، وانما خلقه لاجل الفيض والجود، فلا بد ان يرحمه في دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله إلى نعيم السرمد، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح، وذخيرة له في يوم المعاد.

وكذا لايظن السوء والشر بالمسلمين، ولا يحملن ماله وجه صحيح من أعمالهم واقوالهم على وجه فاسد، بل يجب ان يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها، ما لم يجزم بفساده، ويكذب وهمه وسائر حواسه، فيما يذهب إليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة، ويكلف نفسه على ذلك، حتى يصير ذلك ملكة له، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية. نعم، الحمل على وجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع، لو كان باعثاً لضرر مالي أو فساد ديني أو عرضي، لزم فيه الحزم والاحتياط، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار، وتلزمه الفضيحة والعار.

ومنها:

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام، وهو من جانب الافراط، وإذا اشتد يوجب حركة عنيفة، يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة. قال بعض علماء الأخلاق: " الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، إلاّ أنها لا تطلع إلاّ على الافئدة، وانها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين، التي لها عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال:

" خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ "١٢[١٢]

فمن شأن الطين السكون والوقار، ومن شأن النار التلظي والاستعار ". ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها اما إلى دفع المؤذيات ان كان قبل وقوعها أو إلى التشفي والانتقام ان كان بعد وقوعها، فشهوتها إلى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه، ولا تسكن إلاّ به. فان صدر الغضب على من يقدر ان يتنقم منه، واستشعر باقتداره على الانتقام، وانبسط الدم من الباطن إلى الظاهر، واحمر اللون، وهو الغضب الحقيقي. وان صدر على من لا يتمكن ان ينتقم منه للكونه فوقه، واستشعر باليأس عن الانتقام، انقبض الدم من الظاهر إلى الباطن، وصار حزناً. وان صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض اخرى، فيحمر ويصفر ويضطرب.

فصل

(الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال. فالافراط: ان تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما، ولا تبقى له فكرة وبصيرة. والتفريط: ان يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعا وعقلا. والاعتدال: ان يصدر غضبه فيما ينبغي ولا يصدر في ما لا ينبغي، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل، بل يكون تابعاً لهما في الغضب وعدمه، فيكون غضبه وانتقامه بامرهما.ولا ريب في ان الاعتدال ليس مذموماً، ولا معدوداً من الغضب، بل هو من الشجاعة. والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة، وربما كان أخبث من الغضب، إذ الفاقد لهذه القوة لاحمية له، وهو ناقص جداً. ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس. والجور، وتحمل الذل من الاخساء،والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

والفحشاء. ولذا قيل! " من استغضب فلم يغضب فهو حمار"١٣[١٣]. وقد وصف الله خيار

الصحابة بالحمية والشدة فقال:

" أشداء على الكفّار "[١٤][١٤]

وخاطب نبيه (ص) بقوله:

" واغلظ عليهم "١٥[١٥]

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب، ففقد هذه القوة بالكلية أو ضعفها مذموم. وقد ظهر ان الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين، وحد التفريط وان كان رذيلة إلاّ انه ليس غضباً، بل هو ضد له معدود من الجبن، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة، فانحصر الغضب بالاول.

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ، فيكونان في بعضهم سريعين، وفي بعضهم بطيئين وفي بعضهم يكن احدهما سريعاً والآخر بطيئاً، وفي بعضهم يكون كلاهما أو أحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء. وما كان من ذلك باشارة العقل فهو ممدوح معدود من اوصاف الشجاعة، وغيره مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن.

فصل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة، وربما أدى إلى الشقاوة الابدية، من القتل والقطع، ولذا قيل: (انه جنون دفعى). قال أمير المزمنين (ع): **" الحدة ضرب من الجنون، لان صاحبها يندم، فان لم يندم فجنونه مستحكم "** وربما أدى إلى اختناق الحرارة، ويورث الموت فجأة. وقال بعض الحكماء: " السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الامواج الهائلة أرجى إلى الخلاص من الغضبان الملتهب ". وقد ورد به الذم الشديد في الاخبار، قال رسول الله (ص): **" الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل "**، وقال الباقر (ع): **" ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وان أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك "**. وقال الصادق (ع): **" كان أبي (ع) يقول: أي شيء أشد من الغضب؟ ان الرجل يغضب**

فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة " وقال (ع)١٦[١٦]: **" ان الرجل ليغضب فما**

يرضى أبداً حتى يدخل النار ". وقال الصادق (ع): **" الغضب مفتاح كل شر "**. وقال (ع): **" الغضب ممحقة لقلب الحكيم "**. وقال (ع): **" من لم يملك غضبه لم يملك عقله "**.

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة، والاغراض المضرة القبيحة: انطلاق اللسان بالشتم والسب، واظهار السوء والشماتة بالمساءة وافشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء، وتوثب الاعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل وتأمل القلب بالحقد والحسد والعدواة والبغض ومما تلزمه الندامة بعد زواله، وعداوة الاصدقاء، واستهزاء الاراذل، وشماتة الاعداء، وتغير المزاج، وتألم الروح وسقم البدن، ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل.

والعجب ممن توهم ان شدة الغضب من فرط الرجولية، مع ان ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة انما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة، من الشتم والسب بالنسبة إلى الشمس، والقمر، والسحاب، والمطر، والريح، والشجر، والحيوانات والجمادات، وربما يضرب القصعة على الارض، ويكسر المائدة، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء، واذا عجز عن التشفي، ربما مزق ثوبه، ولطم وجهه، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير، وربما اعتراه مثل الغشية، أو سقط على الارض لا يطيق النهوض والعدو. وكيف يكون مثل هذه الافعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله (ص): **" الشجاع من يملك نفسه عند غضبه "**.

امكان إزالة الغضب وطرق علاجه
فضيلة الحلم وكظم الغيظ
الانتقام
العفو

العنف

فصل

(امكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه، فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن، لانه مقتضى الطبع، انما الممكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجانه، وانت خبير بان الغضب الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم، إذ غيره مما يكون باشارة العقل والشرع ليس غضباً فيه كلامنا، بل هو من آثار الشجاعة، والاتصاف به من اللوزام، وان أطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة أو مجازاً، كما روي عن أمير المؤمنين (ع) انه قال: **" كان النبي (ص) لا يغضب للدنيا، وإذا اغضبه الحق لم يصرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ".** ولا ريب ان الغضب الذي يحصل لرسول الله (ص) لم يكن غضباً مذموماً، بل كان غضباً ممدوحاً يقتضيه منصب النبوة، وتوجيه الشجاعة النبوية. ثم الغضب المذموم ممكن الزوال، ولولا امكانه لزم وجوده للانبياء والاوصياء، ولا ريب في بطلانه.

ثم علاجه يتوقف على أمور، وربما حصل ببعضها:

(الاول) إزالة أسبابه المهيجة له، إذ علاج كل علة بحسم مادتها، وهي: العجب، والفخر، والكبر، والغدر، واللجاج، والمراء، والمزاح، والاستهزاء، والتعيير، والمخاصمة، وشدة الحرص على فضول الجاه والاموال الفانية، وهي باجمعها أخلاق ردية مهلكة، ولا خلاص من الغضب مع بقائها، فلابد من ازالتها حتى تسهل ازالته.

(الثاني) ان يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته، وما ورد في الشريعة من الذم عليه، كما تقدم.

(الثالث) ان يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده، ويتأمل فيما ورد من فوائد عدم الغضب، كقول النبي (ص): **" من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة "**. وقول الباقر (ع): **" مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي "**. وقول الصادق (ع): **" أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: يابن آدم! اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي، ولا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارض باتنصاري لك، فان انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك "**. وقوله (ع): **" سمعت أبي يقول: أتى رسول الله (ص) رجل بدوي: فقال: اني اسكن البادية، فعلمني جوامع الكلم. فقال: آمرك ألا تغضب. فأعاد الاعرابي عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسألك عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول الله (ص) إلا بالخير "**. وقوله (ع): **" ان رسول الله (ص) أتاه رجل فقال: يارسول الله! علمني عظة أتعظ بها، فقال له: انطلق ولاتغضب، ثم عاد عليه، فقال له: انطلق ولا تغضب... ثلاث مرات "** وقوله (ع): **" من كف غضبه ستر الله عورته "**... إلى غير ذلك من الاخبار.

(الرابع) ان يتذكر فوائد ضد الغضب، أعني الحلم وكظم الغيظ، وما ورد من المدح عليهما في الاخبار ـ كما يأتي ـ ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف، فيتحلم وان كان في الباطن غضباناً، وإذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس، فتنقطع عنها أصول الغضب.

(الخامس) ان يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه، ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه.

(السادس) ان يتحرز عن مصاحبة أرباب الغضب، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقولون: نحن لا نصبر على كذا وكذا، ولا نحتمل من أحد أمراً، ويختار مجالسة أهل الحلم، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس.

(السابع) ان يعلم ان ما يقع انما هو بقضاء الله وقدره، وان الاشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته، وان كل ما في الوجود من الله، وان الامر كله لله، لا يقدر له إلاّ ما فيه الخيرة، وربما كان صلاحه في جوعه، أو مرضه، أو فقره، أو جرحه أو قتله، أو غير ذلك. فإذا علم بذلك غلب عليه التوحيد،

ولا يغضب على أحد، ولا يغتاظ عما يرد عليه، إذ يرى ـ حينئذ ـ ان كل شيء في قبضة قدرته اسير، كالقلم في يد الكاتب، فكما ان من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم، فكذلك من عرف الله وعلم ان هذا النظام الجملى صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الاصلحية، لا يغضب على أحد، إلا ان غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول إليه من الله الاكبر. ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الانبياء، مع ان التفاتهم في الجملة إلى الوسائط مما لا يمكن انكاره.

(الثامن) ان يتذكر ان الغضب مرض قلب ونقصان عقل، صادر عن ضعف النفس ونقصانها، لا عن شجاعتها وقوتها، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل، والمريض أسرع غضباً من الصحيح. والشيخ الهرم أسرع غضباً من الشاب، والمرأة اسرع غضباً من الرجل، وصاحب الأخلاق السيئة والرذائل القبيحة اسرع غضبا من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، والبخيل يغاظ لبخله إذا فقد الحبة، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على اعزة اهله وولده. والنفس القوية المتصفة بالفضيلة اجل شأنا من ان تتغير وتضطرب لمثل هذه الامور، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف، ولذا قال سيد الرسل (ص): **" ليس الشديد بالصرعة، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "**. وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر إلى طبقات الناس الموجودين، ثم ارجع إلى كتب السير والتواريخ، واستمع إلى حكايات الماضين، حتى تعلم: ان الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الانبياء والحكماء واكابر الملوك والعقلاء، والغضب خصلة الجهلة والاغبياء.

(التاسع) ان يتذكر ان قدرة الله عليه اقوى واشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه، وهو اضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته، فليحذر، ولم يأمن إذا امضى غضبه عليه ان يمضى الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة، وقد روي: **" انه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم، إذا غضب اعطاه صحيفة فيها: (ارحم المساكين،**

واخش الموت، واذكر الاخرة)، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه " وفي بعض الكتب الالهية: **" يا ابن آدم! اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن أمحق "**[١][١]

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوى وتشمر لمقابلته وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشماته بمصائبه، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه.

(الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الغيظ والغضب فان كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها واضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها. فدفع الغضب عن نفسه لا يخرجه من كبر النفس في الواقع، ولو فرض خروجه به منه في اعين جهلة الناس فلا يبالى بذلك، ويتذكر ان الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر اولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر، وإن كان السبب خوف ان يفوت منه شيء مما يحبه، فليعلم ان ما يحبه ويغضب لفقده اما ضروري لكل احد، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن، وهو الذي اشار إليه سيد الرسل (ص) بقوله: **" من اصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذا فيرها "**. أو غير ضروري لأحد، كالجاه والمنصب وفضول الاموال. أو ضروري لبعض الناس دون بعض، كالكتاب للعالم، وادوات الصناعات لأربابها. ولا ريب ان كل ما ليس من هذه الاقسام ضروريا فلا يليق ان يكون محبوبا عند أهل البصيرة وذوى المروات، إذ مالا يحتاج إليه الإنسان في العاجل لابد له من تركه في الآجل، فما بال العاقل ان يحبه ويغضب لفقده وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم البتة. وأما ما هو ضروري للكل أو البعض، وان كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج اليه، إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الاشياء الضرورية ان امكن

---

١ [1] روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق (ع) بهذه العبارة: " إن في التوراة مكتوبا: يابن آدم: اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي، فلا امحقك فيمن أمحق.." وقد تقدم مثله ص٢٩١.

رده والوصول إليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضاًَ، وان لم يمكن لم يمكن معهما أيضاً. وعلى أي حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لاثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل، وحينئذ لا يغضب، وان غضب يدفعه عن نفسه بسهولة.

(الثاني عشر) أن يعلم ان الله يحب منه إلا يغضب، والحبيب يختار ألبتة ما يحب محبوبه، فان كان محباً لله فليطفىء شدة حبه له غضبه.

(الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب.

(تتميم)

اعلم ان بعض المعالجات المذكورة يقتضى قطع أسباب الغضب وحسم مواده، حتى لا يهيج ولا يصدر، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر وهاج. ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان، والجلوس إن كان قائماً، والاضطجاع ان كان جالساً، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، وان كان غضبه على ذي رحم فليدن منه وليمسه، فان الرحم إذا مست سكنت، كما ورد في الأخبار٢[٢].

فصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت ان الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة، فهو الضد الحقيقي للغضب، لأنه المانع من حدوثه وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضداً له. فنحن نشير إلى فضيلة الحلم

---

٢ [2] روى ذلك في الكافي باب الغضب عن الباقر (ع).

شرافته، ثم إلى فوائد كظم الغيظ ومنافعه، ليجتهد طالب ازالة الغضب في الاتصاف بالاول فلا يحدث فيه أصلا، وبالثاني، فيدفعه عند هيجانه. فنقول:

اما (الحلم) ـ فهو اشرف الكمالات النفسية بعد العلم، بل لا ينفع العلم بدونه اصلا. ولذا كلما يمدح العلم اويسأل عنه يقارن به، قال رسول الله (ص): **" أللهم اغننى بالعلم وزيني بالحلم"**. وقال (ص): **" خمس من سنن المرسلين. وعد منها الحلم "**. وقال (ص): **" ابتغوا الرفعة عند الله "**. **قالوا: وما هي يارسول الله!؟ قال: " تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك "**. وقال (ص): **" ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم "**. وقال (ص): **" ان الله يحب الحي الحليم، ويبغض الفاحش البذى "**. وقال (ص): **" ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من علمه: تقوى تحجزه عن معاصي الله وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس "**. وقال (ص): **" إذا جمع الخلائق يوم القيامة نادى مناد: اين أهل الفضل؟ فيقوم ناس ـ وهم يسير ـ فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: انا نراكم سراعا إلى الجنة؟ فيقولون نحن أهل الفضل. فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون. كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا اسيىء الينا عفونا، وإذا جهل علينا حلمنا. فقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين "**. وقال (ص): **" ما اعز الله بجهل قط، ولا اذل بحلم قط "**. وقال أمير المؤمنين (ع): **" ليس الخير ان يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك "**. وقال على بن الحسين (ع): **" إنه ليعجبني الرجل ان يدركه حلمه عند غضبه "**. وقال الصادق (ع): **" كفى بالحلم ناصراً "**. وقال (ع): **" وإذا لم تكن حليماً فتحلم "**. وقال (ع): **" إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان، فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت وانت أهل لما قلت، وستجزى بما قلت، ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر لك إن اتممت ذلك. قال (ع): فان رد الحليم عليه ارتفع الملكان "**. وبعث (ع) غلاماً له في حاجة فأبطأ، فخرج على اثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فقال له: **" يا فلان! والله ما ذلك لك! تنام الليل والنهار لك الليل ولنا منك النهار "**. وقال الرضا (ع): **" لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً "**.

واما (كظم الغيظ) ـ فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة، لأنه التحلم: أي تكلف الحلم، إلا انه إذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج إلى كظمه، ولذا قال رسول الله (ص): **" إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم"** فمن لم يكن حليماً بالطبع لا بد له من السعى في كظم الغيظ عند هيجانه، حتى تحصل له صفة الحلم. وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه، وتواترت الأخبار على شرافته وعظم اجره، قال رسول الله (ص): **" من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه امضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً "**[3] وقال (ص): **" ما جرع عبد جرعة اعظم اجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى "**. وقال (ص): **" ان لجهنم باباً لا يدخله إلاّ من شفى غيظه بمعصية الله تعالى "**. وقال (ص): **" من كظم غيظا وهو يقدر على ان ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق، حتى يخير من أي الحور شاء "**[4] وقال (ص): **" من احب السبيل**[5] **إلى الله تعالى جرعتان: جرعة غيظ يردها بحلم. وجرعة مصيبة يردها بصبر "**. وقال سيد الساجدين (ع): **" وما تجرعت جرعة احب إلى من جرعة غيظ لا اكافي بها صاحبها "**. وقال الباقر (ع): **" من كظم غيظا وهو يقدر على**

---

[3] روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن أبي عبد الله (ع).

[4] صححنا هذا الحديث على ما في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ ــ في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبارللشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات.

[5] كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات. والظاهر ان الاصح (السبل).

امضائه، حشا الله تعالى قلبه امنا وايمانا يوم القيامة ". وقال (ع) لبعض ولده٦[٦]: " يا بني! ما من شيء اقر لعين ابيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر وما يسرنى ان لي بذل نفسى حمر النعم ". وقال الصادق (ع): " نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها. فان عظيم الاجر البلاء. وما احب الله قوما إلاّ ابتلاهم ". وقال (ع): " مامن عبد كظم غيظا إلاّ زاده الله ـ عز وجل ـ عزاً في الدنيا والآخرة. وقد قال الله ـ عز وجل ـ:-

" والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين "٧[٧]

واثابه الله مكان غيظه ذلك ". وقال ابو الحسن الاول (ع): " اصبر على اعداء النعم، فانك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من ان تطيع الله فيه ".

ومنها:

الانتقام

بمثل ما فعل به، أو بالأزيد منه ـ وان كان محرما ممنوعا من الشريعة ـ وهو من نتائج الغضب، إذ كل انتقام ليس جائزاً، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، والفحش بالفحش، والبهتان بالبهتان، والسعاية إلى الظلمة بمثلها. وهكذا في سائر المحرمات. قال سيد الرسل (ص): " ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه ". وقال (ص): " المستبان شيطانان يتهاتران ". وقد ورد ان رجلاً شتم ابا بكر بحضرة النبي (ص) وهو ساكت، فلما ابتدأ لينتصر منه، قام رسول الله (ص) وقال

---

٦ [6] في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا " عن ابي جعفر (ع) قال: قال لي ابي: يا بني! ما من شيء.." إلى آخر الحديث فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر (ع).

٧ [7] آل عمران. الآية: ١٣٤.

مخاطباً له: **" ان الملك كان يجيب عنك، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان ".**

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة إلى غيره ظلما، ان كان له في الشرع قصاص وغرامة، فيجب ألا يتعدى عنه، وان كان العفو عن الجائر أيضاً أفضل واولى واقرب إلى الورع والتقوى، وان لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة، وجب ان يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفى على ماليس فيه حرمة ولا كذب، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الاذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة، بقوله: ياقليل الحياء ويا سيء الخلق! ويا صفيق الوجه!.. وامثال ذلك. إذا كان متصفا بها ومثل قوله: جزاك الله وانتقم منك! ومن انت؟ وهل انت إلاّ من بني فلان؟ ومثل قوله: ياجاهل! ويا احمق!. وهذا ليس فيه كذب مطلقا، إذ ما من احد إلاّ وفيه جهل وحمق، (اما الاول) فظاهر، (وأما الثانى) فلما ورد من ان الناس كلهم حمقى في ذات الله.

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام، قول النبي (ص) **" المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم "**٨[٨]. وقول الكاظم (ع) في رجلين يتسابان: **" البادىء منهما اظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد، المظلوم"**٩[٩]. وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر ما لم يتعد، ومعلوم ان المراد بالسب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة، ولاريب في ان الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل، ولعل السكوت عن اصل الجواب وحوالة الانتقام إلى رب الارباب ايسر وافضل. ما لم يؤد إلى فتور الحمية والغيرة، إذ اكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور

---

٨ [8] صححنا الحديث على ما في احياء العلوم (ج٣ ص١٠٦) وعلى نسختنا الخطية وفي المطبوعة: " حتى يعتذر إلى المظلوم ".

٩ [9] صححنا الحديث على ما في اصول الكافي في باب السفه وفي نسختنا الخطية والمطبوعة: " مالم يعتذر إلى المظلوم ".

الغضب. لاختلاف حالهم في حدوث الغضب وزواله. قال رسول الله (ص): **" ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى: منهم بطيء الغضب سريع الفيء. ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك. ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء. ومنهم بطيء الغضب بطيء الفيء. ألا وان خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء "** وقد ورد في خبر آخر: **" إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا، فهذه بتلك "**.

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام: ان يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل، ويتذكر فوائد تركه، ويعلم ان الحوالة إلى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى، وان انتقامه اشد وأقوى، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته، كما يأتي:

فصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو)، وهو اسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر، والآيات والاخبار في مدحه وحسنه اكثر من ان تحصى، قال الله تعالى سبحانه:

" خذ العفو وأمر بالعرف "١٠[١٠] وقال: **" وليعفوا وليصفحوا "١١[١١]** وقال: **" وأن تعفوا أقرب للتقوى "١٢[١٢]**

وقال رسول الله (ص): **" ثلاث والذي نفسي بيده ان كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة،**

---

١٠ [10] الاعراف، الآية: ١٩٩.

١١ [11] النور، الآية: ٢٢.

١٢ [12] البقرة، الآية: ٢٣٧.

ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ". وقال (ص): " العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله ". وقال (ص) لعقبة: " ألا أخبرك بافضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك. وتعفو عمن ظلمك "١٣[١٣] وقال (ص): " قال موسى: ياربا! أي عبادك أعز عليك؟ قال الذي إذا قدر عفى ". وقال سيد الساجدين (ع): " إذا كان يوم القيامة، جمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد، ثم ينادي مناد: أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا،ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم، ادخلوا الجنة ". وقال الباقر (ع): " الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة ". وقال الصادق (ع): " ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك... إلى أخر الحديث". وقال ابو الحسن (ع): " ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً ". وكفى للعفو فضلاً وشرافة انه من اجمل الصفات الالهية، وقد يمدح الله تعالى به في مقام الخضوع والتذلل، قال سيد الساجدين (ع): " انت الذي سميت نفسك بالعفو، فاعف عني ". وقال (ع): " أنت الذي عفوه أعلى من عقابه ".

ومنها:

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الاقوال أو الحركات أيضاًّ، وهو من نتائج الغضب، وضده (الرفق)، أي اللين فيهما، وهو من نتائج الحلم. ولاريب في ان الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي إلى اختلال أمر المعاش والمعاد، ولذلك نهى الله ـ سبحانه ـ نبيه عنه في مقام الارشاد، وقال:

---

١٣ [13] في اصول الكافي في باب العفو: " ألا أدلكم على خير اخلاق الدنيا والآخرة تصل من قطعك..." إلى آخر الحديث.

" ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك "١٤[١٤]

وروي عن سلمان: **" انه قال: إذ أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم يلقه إلا خائناً مخوفاً، وإذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الامانة، فإذا نزعت منه الامانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً، فإذا كان فظاً غليظاً نزعت منه ربقة الايمان، فإذا نزعت منه ربقة الايمان لم يلقه إلا شيطان ملعوناً ".**

ويظهر من هذا الكلام ان من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب، ويقدم التروى على كل ما يصدر عنه من القول والفعل، ليحافظ نفسه عن التعنف الغلظة فيه، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق، ويرتكبه في حركاته، ولو بالتكلف، إلى ان يصير ملكة، وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية.

---

١٤ [14] آل عمران، الآية: ١٥٩.

فضيلة الرفق
المداراة
سوء الظن بالمعنى الأخص
طرق اكتساب حسن الخلق
الحقد
العداوة الظاهرة
الضرب والفحش واللعن والطعن

فصل

(فضيلة الرفق)

الاخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من ان تحصى، ونحن نشير إلى شطر منها هنا، قال رسول الله (ص): **" لو كان الرفق خلقاً يرى، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه "**. وقال (ص): **" ان الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولاينزع من شيء إلا شانه "**. وقال (ص): **" لكل شيء قفل، وقفل الايمان الرفق "**. وقال (ص): **" ان الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف "**[١][1] وقال (ص): **" ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً واحبهما إلى الله تعالى، أرفقهما بصاحبه "**. وقال (ص): **" الرفق يمن والخرق شؤم "**. وقال (ص): **" من كان رفيقاً في امره نال ما يريده من الناس "**. وقال (ص): **" إذا أحب الله أهل بيت ادخل عليهم الرفق "**. وقال (ص): **" من اعطي حظه من الرفق اعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة "**. وقال (ص): **" إذا أحب الله عبداً اعطاه الرفق، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله "**. وقال (ص): **" اتدرون من يحرم على النار؟ كل هين لين سهل قريب "**. وقال الكاظم (ع): **" الرفق نصف العيش "**. وقال (ع) لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام: **" إرفق بهم، فان كفر احدكم في غضبه، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه "**.

---

١ [1] روى هذان الحديثان في اصول الكافي، في باب الرفق، عن أبي جعفر الباقر (ع).

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الامور وانجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم امره ودام ملكه، وان كان فظاً غليظاً اختل امره وانفض الناس من حوله، وزال ملكه وسلطانه في اسرع زمان. وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما، من ذوي المناصب الجليلة، وارباب المعاملة والمكاسبة، واصحاب الصنايع والحرف.

تكملة

(المداراة)

(المداراة): قريب من الرفق معنى، لأنها ملائمة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمال أذاهم، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الاذى في المداراة دون الرفق، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والاخروية اخبار كثيرة كقول النبي (ص): **" المداراة نصف الايمان "**، وقوله (ص): **" ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل "**، وقوله (ص): **" أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني باداء الفرائض "**. وقول الباقر (ع): **" في التوراة مكتوب: فيما ناجى الله عز وجل موسى بن عمران (ع): يا موسى! اكتم مكتوم سري في سريرتك واظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي... إلى آخر الحديث "**[٢][2]. وقول الصادق (ع): **" جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال: يا محمد! ربك يقرئك السلام،**

---

[٢] [2] وتمام الحديث في اصول الكافي في باب المداراة: " ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سري، فتشرك عدوي وعدوك في سبي ". قال في الوافي: " ولا تستسب لي: أي لا تطلب سبي، فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به، فتشرك: أي تكون شريكا له، لانك أنت الباعث له عليه.

ويقول: دار خلقي ". وقوله (ع): " ان قوما من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا٣[٣] من قريش، وأيم الله ما كان باحسابهم بأس، وان قوماً من غير قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع... ثم قال: من كف يده عن الناس، فانما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة ".

ومنها:

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر، وانقباض الوجه, وسوء الكلام، وامثال ذلك. وهو أيضاًً من نتائج الغضب، كما ان ضده اعني (حسن الخلق بالمعنى الاخص) وهو ان تلين جناحك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن ـ من نتائج الحلم، واكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الاخبار يراد به هذا المعنى ولا ريب في ان سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق، والتجربة شاهدة بان الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق، ويكون دائماً اضحوكة للناس ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم، ولذا قال الصادق (ع): " من ساء خلقه عذب نفسه "، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم. هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وادائه إلى العذاب الابدي، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة قال رسول الله (ص): لما خلق الله الإيمان قال: اللهم قوني، فقواه بحسن الخلق والسخاء. ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوني، فقواه بالبخل وسوء الخلق". وروي انه قيل له (ص): " ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها. قال: لا خير فيها: هي من أهل النار ".

---

٣ [3] هكذا في النسخة المطبوعة. وفي بعض النسخ الكافي المصححة " فانفوا "، وفي بعضها " فالقوا ". قال في الوافي " فانفوا " كأنه صيغة مجهول من الانفة بمعنى الاستنكاف، إذا لم يأت الانفاء بمعنى. وفي بعض النسخ: فالقوا من الالقاء، ولعله الاصح ."

وعنه (ص): **" سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل**[4]**[٤]**. وعنه (ص): **" ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم "**. وعنه (ص): **" أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة، قيل فكيف ذاك يا رسول الله!؟ قال: " لانه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه"**. وقال (ص): **" سوء الخلق ذنب لا يغفر"**. وقال الإمام جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ: **" إذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله إليه الشر، فيقرب منه. فابتلاه بالكبر والجبروت، فقسى قلبه، وساء خلقه، وغلظ وجهه، وظهر فحشه، وقل حياؤه، وكشف الله تعالى سره، وركب المحارم ولم ينزع عنها، ثم ركب معاصي الله، وابغض طاعته، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه "**. وقال بعض الاكابر: **" لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلى من ان يصحبني عابد سيء الخلق "**.

وطرق العلاج في إزالته: ان يتذكر اولاً انه يفسد آخرته ودنياه، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق، فيعد نفسه لازالته، ثم يقدم التروي والتفكر عند كل حركة وتكلم، فيحفظ نفسه عنده ـ ولو بالتحمل والتكلف ـ من صدور سوء الخلق، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده ـ كما يأتي ـ ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالكلية.

فصل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت ان ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الاخص)، فمن معالجاتها ان يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية. واقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه ان يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلاً ونقلاً: اما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج إلى بيان، واما النقل فالأخبار التي وردت به اكثر من ان تحصى، ونحن نورد شطراً منها تذكره لمن أراد ان يتذكر، قال رسول الله

---

٤ [4] روى هذا الحديث اصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق (ع) ولكن جاء فيه "ليفسد العمل " بدل "يفسد العمل".

(ص): " **ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق**" وقال: " **يا بني عبدالمطلب! إنكم لن تسعوا الناس باموالكم. فالقوهم بطلاقة الوجه، وحسن البشر**". وقال (ص): " **ان الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما** ". وقال (ص): " **حسن الخلق خلق الله الاعظم** ". وقيل له (ص): أي المؤمنين أفضلهم ايماناً؟ قال: " **أحسنهم خلقاً** ". وقال (ص): " **ان أحبكم إلي واقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً** ". وقال (ص): " **ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن محارم الله وحلم يكف به السيئة، وخلق يعيش به في الناس** ". وقال (ص): **ان الخلق الحسن يميت الخطيئة، كما تميت الشمس الجليد** "٥[٥] وقال (ص): " **ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة واشرف المنازل، وانه يضعف العبادة** ". وقال (ص) لأم حبيبة: " **ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة وقال لها ـ بعد ما سألته ان المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لا يهما هي؟ ـ: " انها لأ حسنهما خلقاً** ". وقال (ص): " **ان حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم**"٦[٦]. وقال (ص): " **أكثر ما يلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق** ". وقال (ص): " **أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً**٧[٧] **الذين يألفون**

---

٥ [5]روى هذا الحديث في الكافي في باب حسن الخلق عن أبى عبدالله الصادق (ع)، وفي نهاية ابن الاثير: في الحديث: حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد ". ويذيب بمعنى يميت.

٦ [6] هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن ابي عبدالله (ع).

٧ [7] قال المبرد في الكامل ص٣: " قوله (ص): الموطؤن اكنافاً، مثل، وحقيقته: ان التوطئة هي التذليل والتمهيد... فاراد القائل بقوله: موطأ الاكناف، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذي ولاناب به موضعه.

ويؤلفون ". وقال أمير المؤمنين (ع): **" المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف "**. ولا ريب في أن سيء الخلق تنفر عنه الطباع، فلا يكون مألوفاً. وقال الامام ابو جعفر الباقر ـ عليهما السلام ـ: **" ان اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً "**، وقال (ع): **" اتى رجل رسول الله، فقال: يا رسول الله! اوصني فكان فيما أوصاه ان قال: (الق اخاك بوجه منبسط) "** وقال الصادق (ع): **" ما يقدم المؤمن على الله ـ عز وجل ـ بعمل بعد الفرائض احب إلى الله تعالى من ان يسع الناس بخلقه " وقال (ع): " البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الاعمار "**. وقال (ع): **" ان الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح "**. وقال (ع): **" ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة: الانفاق من اقتار، والبشر لجميع العالم، والانصاف من نفسه "**. وقال (ع): **" صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار ".**

ومن تأمل في هذه الاخبار، ورجع إلى الوجدان والتجربة، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه، يجد ان كل سيء الخلق بعيد من الله ومن رحمته، والناس يبغضونه ويشمئزون منه، ولذا يحرم من برهم وصلتهم، وكل حسن الخلق محبوب عند الله والناس، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته، ومرجعاً للمؤمنين بايصال نفعه وخيره اليهم، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأتم فيه هذه الفضيلة، بل هي أفضل صفات المرسلين واشرف اعمال الصديقين، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه.

" وإنك لعلى خلقٍ عظيم "[٨][٨]

ولعظم شرافته بلغ رسول الله (ص) فيه ما بلغ من غايته، وتمكن على ذروته ونهايته، حتى ورد:

بينا رسول الله (ص) ذات يوم جالس في المسجد، إذ جاءت جارية لبعض الانصار وهو قائم[٩][٩]

---

٨ [8] القلم، الآية: ٤.

فأخذت بطرف ثوبه، فقام لها النبي (ص) فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي (ص) شيئاً، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات، فقام لها النبي (ص) في الرابعة، وهي خلفه، فاخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت. فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل!١٠[١٠] حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً! ما كانت حاجتك إليه؟ قالت: ان لنا مريضاً فارسلني أهلي لآخذ هدبه من ثوبه يستشفي١١[١١] بها. فلما أردت أخذها رآني فقام، استحييت ان آخذها وهو يراني، واكره أن استأمره في أخذها، فاخذتها "١٢[١٢].

ومنها:

الحقد

---

٩ [9] قال في البحار ــ ج١٥ في باب حسن الخلق ص٢٠٧ــ: "حال عن بعض الانصار" أي ان القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبي (ص).

١٠ [10] قال في البحار ــ في الموضع المتقدم ــ: " كناية عن كثرة الدعاء عليها بايذائها النبي (ص) وهذا شائع في عرف العرب والعجم".

١١ [11] قال في البحار ــ في الموضع المذكور ص٢٠٨ ــ: " في بعض النسخ ــ بل اكثرها ــ: ليستشفي".

١٢ [12] صححنا الحديث على اصول الكافي في باب حسن الخلق، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثيرة عما اثبتناه، وقد جاء في اصول الكافي في صدر الحديث: "قال ابو عبدالله (ع). يابحر حسن الخلق يسر... ثم قال: ألا اخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة؟ قلت بلى! قال: بينا رسول الله... إلى آخر الحديث".

وقد عرفت انه اضمار العداوة في القلب، وهو من ثمرة الغضب، لأن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، وهو من المهلكات العظيمة. وقد قال رسول الله (ص): **" المؤمن ليس بحقود "**. والغالب ان الحقد يلزمه من الآفات: الحسد، والهجرة، والانقطاع عن المحقود، وايذاؤه بالضرب، والكلم فيه بما لا يحل: من الكذب، والغيبة، والبهتان، وافشاء السر، وهتك الستر، واظهار العيوب، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به، والانبساط بظهور عثراته وهفواته، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية، والاعراض عنه استصغاراً له، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم. وكل ذلك حرام يؤدي إلى فساد الدين والدنيا. واضعف مراتبه ان يحترز عن الآفات المذكورة، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به، ولكن يستثقله بالباطن، ولا ينتهي قلبه عن بغضه.

وهو أيضاًً من الأمراض المؤلمة للنفس، المانعة لها عن القرب إلى الله والوصول إلى الملأ الأعلى. ويمنع صاحبه عما ينبغي ان يصدر عنه بالنسبة إلى أهل الإيمان: من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة إلى اعانتهم ومواساتهم... وغير ذلك. وهذا كله مما ينقص درجته في الدين، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين.

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة، فجميع الأخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمه، كقول النبي (ص): **" ما كان جبرئيل يأتيني إلا قال: يا محمد! اتق شحناء الرجال وعداوتهم ".** وقوله (ص): **" ما عهد إلي جبرئيل قط في شيء ما عهد إلي في معاداة الرجال "**. وقول الصادق (ع): **" من زرع العداوة حصد ما بذر"**... وقس عليها غيرها.

وطريق العلاج في إزالته: ان يتذكر ان هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل، إذ الحقود المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة، ويعذبه في الآجل ومع ذلك لا يضر المحقود أصلاً، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة لنفسه ونافعة لعدوه. وبعد هذا التذكر، فليجتهد في ان يعامله معاملة أحبائه: من مصاحبته بالانبساط والرفق، والقيام بحوائجه، وغير ذلك، بل يخصه بزيادة البر والاحسان، مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية.

ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة، وحقيقتها اضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه،

فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر، لا المحبة ـ كما يتراءى في بادي الرأي ـ إذ هي ضد الكراهة دون العداوة ـ كما يأتي في محله ـ فمن معالجات الحقد أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها ـ كما يأتي ـ ليعين على إزالته.

ومنها:

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد، لأنه إذا قوي قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة. والأخبار الواردة في ذمها كثيرة، وقد تقدم بعضها. وعلاجها كما تقدم في الحقد، وضدها النصيحة الظاهرة، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما، فليكلف نفسه عليها، حتى تصير ملكة له ويزيل ضدها.

ومنها:

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة، إلا ان الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية، أو النفس لهيجان قوة الغضب. وان كان الهيجان حاصلاً بوساطة فعل قوة الشهوة. وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا، ولذا أدرجناها تحتها فقط.

ثم لاريب في كون هذه الأمور مذمومة محرمة في الشريعة، موجبة لحبط الأعمال وخسران المال. وجميع ما يدل على ذم الايذاء والاضرار يدل على ذمها، لكونها بعض أفرادهما. والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وايجابه للهلاك:

اما (الضرب) ـ فلأنه لا ريب في ان ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل، ويذمه جميع طوائف العالم، حتى نفاة الأديان، والاخبار الواردة في ذمه كثيرة، وفي عدة منها: **" ان من ضرب رجلاً سوطاً لضربه الله سوطاً من النار "**.

واما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) ـ فلا ريب في كونه صادراً عن خباثة النفس. قال رسول الله (ص): **" ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذى "**. وقال (ص): **" إياكم والفحش، فان الله لا يحب الفحش والتفحش"**. وقال (ص): **" الجنة حرام على كل فاحش ان يدخلها "**. وقال (ص): **" ان الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء "** وقال (ص): **" البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق "**وروي: ان المراد بالبيان: كشف ما لا يجوز كشفه. وقال (ص): **" أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الاذى"**...وعد منهم: رجلاً يسيل فوه قيحاً، وهو من كان في الدنيا فاحشاً. وقال (ص): **"لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم "**[١٣][١٣]. وقال (ص): **" إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له، فانك إن فتشته لم تجده إلا لغية**[١٤][١٤] **أو شرك شيطان "**. وقال (ص): **" إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فانه ـ لغية أو شرك شيطان "**. وقال (ص): **" ان الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف "**. وقال (ص): **" إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه"**. وقال (ص): **" سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه "**. وقال (ص): **" سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة "**. وقال (ص): **" شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم "**. وقال (ص): **" المتسابان شيطانان متعاديان ومتهاتران "**. وقال الصادق

---

١٣ [13] وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب: (بينهم) بدل (منهم).

١٤ [14] قال في القاموس في مادة (غوى): " ولد غية ــ ويكسر ــ أي زنية ــ فيكون معنى (لغية) أي (لزنية).

(ع): **" من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه ان يكون فحاشاً لا يبالي ما**١٥[١٥] **قال ولا ما* قيل فيه "**. وقال (ع): **" البذاء من الجفاء، والجفاء في النار "**. وقال (ع): **" من خاف الناس لسانه فهو في النار "**، وقال: **" أن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه "**. وعن الكاظم (ع) في رجلين يتسابان: **" فقال: البادي منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد المظلوم "**١٦[١٦].

(تنبيه) اعلم ان حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة. ويجري أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز. قال بعض الصحابة: " ان الله حي كريم يعف ويكني، كني باللمس عن الجماع ". فالمس، واللمس، والدخول، والصحبة، كنايات عن الوقاع، وليست بفاحشة وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها. وليس هذا يختص بالوقاع، بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما، وكذا التعبير عن المرأة، فهذا أيضاً مما يخفى ويستحيي منه، فلا ينبغي ان تذكر ألفاظه الصريحة باللسان، بل يكنى عنها، فلا يقال: قالت زوجك أو امرأتك، بل يقال: قيل في الحجرة، أو قيل من وراء الستر، وقالت أم الاولاد، وأمثال ذلك، وكذلك من به عيوب يستحي منها، فلا ينبغي ان يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص، والقرح، والبطن، وامثال ذلك بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة، مثل العارض الذي عرض وما يجري مجراه، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش.

ثم ألفاظ الفحش لا ريب ـ حينئذ ـ في كونها محظورة باسرها مذمومة، وان كان بعضها أفحش من بعض، فيكون أثمه أشد، سواء استعمل في الشتم والايذاء أو لا يستعمل فيه، بل في المزاح والهزل

١٥[15]،(*) وفي بعض نسخ الكافي في باب البذاء (بما) في الموضعين.

١٦ [16] قد مضى في الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما في اصول الكافي في باب السفه. فصححناه هنا أيضاً.

وغيرهما. وحينئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض، وربما اختلف بعادة البلاد، فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً، فان من قال لغيره مزاحاً أو اعتياداً حاصلاً من مخالطة الفساق: (فرج امرأتك ضيق أم لا؟) لا ريب في كونه فحشاً محرماً مذموماً، مع أنه لم يستعمل في الشتم. وبالجملة: أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة.

وأما (اللعن) - فلا ريب في كونه مذموماً، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة. وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله (ص): **" المؤمن ليس بلعان "**. وعن الباقر (ع) قال: **" خطب رسول الله (ص) الناس، فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال: الذي يمنع رفده، ويضرب عبده، ويتردد وحده. فظنوا ان الله لم يخلق خلقا هو شر من ذلك، ثم قال: ألا اخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال. المتفحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه "**. وقال الباقر (ع): **" إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فان وجدت مساغاً والا رجعت إلى صاحبها "**.

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الابعاد من الله. (والاول) غيب لا يطلع عليه إلا الله. (والثاني) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه، فينبغي ألا يلعن احداً إلاّ من جوز صاحب الشرع لعنه، والمجوز من الشرع انما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين، كما ورد في القران ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الاعم. كقولك: لعنة الله على الكافرين. أو بوصف يخص بعض الاصناف. كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى.

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافة بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق. (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وابي جهل. لان كل شخص معين كان على احدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها، فيموت مسلماً أو تائباً، فيكون مقرباً عند الله لا مبعداً عنه (كلام ينبغي) أن يطوى ولايروي، إذا المستفاد من كلام الله تعالى وكلام رسوله (ص) وكلام

أئمتنا الراشدين: جواز نسبته إلى الشخص المعين، بل المستفاد منها ان اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات واقرب القربات، وقال الله سبحانه:

" اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"١٧[١٧]. وقال: **" أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون "**١٨[١٨].

وقال النبي (ص): **" لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً "**. وقال (ص) في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت. **"اللهم أني لا احسن الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف الف لعنة "**. وقد لعن أمير المؤمنين (ع) جماعة. وروى انه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وابي موسى الاشعري وابي اعور الاسلمي، مع أنه احلم الناس وأشدهم صفحاً عمن يسوء به، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات. وروى الشيخ الطوسي: " ان الصادق (ع) **كان ينصرف من الصلاة بلعن اربعة رجال "**. ومن نظر إلى ما وقع للحسن (ع) مع معاوية واصحابه وكيف لعنهم، وتتبع ما ورد من الائمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والادعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم يعلم ان ذلك من شعائر الدين، بحيث لا يعتريه شك ومرية. وما ورد من قوله (ع) **" لا تكونوا لعانين"**. ومثله. نهى عن اللعن على غير المستحقين، وما روى: ان أمير المؤمنين (ع) نهى لعن أهل الشام، فان صح، فلعله كان يرجو اسلامهم ورجوعهم إليه، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية.

وبالجملة: اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز، بل مستحب، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز، إلا ان يتيقن باتصافه باحدى الصفات الموجبة له. وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين، إذ لا يجوز ان يرم مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق،

---

١٧ [17] البقرة، الآية: ١٦١.

١٨ [18] البقرة، الآية: ١٥٩.

قال رسول الله (ص): **" لا يرم رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه ان لم يكن كذلك ".**

ثم اللعن على الأموات اشد وزراً واعظم اثماً، لقول النبي (ص): **" لا تسبوا الأموات، فانهم قد افضوا إلى ما قدموا "**. ولاينبغي ان يلعن الجماد والحيوان أيضاً. لماروى: **" انه ما لعن احد الارض إلا قالت: اللعن على اعصانا الله "**. وما ورى: **" ان النبي (ص) انكر على امراة لعنت ناقة، وعلى رجل لعن بعيراً "**. ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم، إلا إذا اضطر إليه لشره واضراره، وقد ورد ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة. وقال علي بن الحسين (ع): **" ان الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر اخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا: بئس الاخ انت لاخيك! كف ايها المستر على ذنوبه وعورته، واربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك"**[١٩][١٩]

ثم ضد ذلك ـ اعني الدعاء للاخ المسلم بما يحب لنفسه ـ من احب الطاعات واقرب القربات، وفوائده اكثر من ان تحصى، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك، قال رسول الله (ص): **" إذا دعا الرجل لاخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك "**. وقال (ص): **" يستجاب للرجل في اخيه مالا يستجاب له في نفسه "**. وقال علي بن الحسين (ع): **" ان الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير، قالوا: نعم الأخ انت لأخيك! تدعو له بالخير وهو غائب عنك، وتذكره بالخير. قد أعطاك الله ـ عز وجل ـ مثلي ما سألت له، واثنى عليك مثلي ما اثنيت عليه، ولك الفضل عليه "**. ومثله ورد عن الباقر (ع) أيضاً والأخبار في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصى، وأي كرامة اعظم لك من أن تصل منك إلى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية، وهل تدرى كيف تسر روحه منك بهذا العمل؟ فان اهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف، وانت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل، وقد قال رسول الله (ص): **" مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب، وانه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال، وهو للاموات بمنزلة**

---

١٩ [19] هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين (ع).

الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان فيفرح كما يفرح الحي بالهدية "٢٠[٢٠]

وأما (الطعن) ـ فهو أيضاًً من ذمائم الافعال، ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الاخرى. قال الباقر (ع): **" إياكم والطعن على المؤمنين "**. وقال (ع): **" ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلا مات شر ميتة، وكان قمناً ألا يرجع إلى خير "**.

واعلم ان هذه الامور ـ اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتى في موضعه: من الغيبة. والكذب، والبهتان، والاستهزاء، والمزاح، والخوض في الباطل، والتكلم بالفضول وما لا يعني: من آفات اللسان، ويأتى أن لجميع آفات اللسان ضداً عاماً هو الصمت، ويأتى بيان فضيلته وكثرة فوائده، ويأتى أيضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان ـ اعني ما ورد في ذم اللسان، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء ـ فانه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور.

ومنها ـ أي ومن رذائل القوة الغضبية ـ:

---

٢٠ [20] هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في احياء العلوم ج٢ ص١٦٤ ــ عن بعض السلف، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت (ع). روى منها في الوسائل في ابواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج).

العجب

ذم العجب

آفات العجب

علاج العجب اجمالا وتفصيلا

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا. وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا، وقيل " هو اعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم " وهو قريب مما ذكر، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة، وبذلك يمتاز عن الكبر، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزّية على غيره في صفة كمال، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فالكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به.

والعجب لايستدعى غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً، فانه قد يستعظم نفسه، ولكن يرى في غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، فهو معجب وليس متكبراً ولا يكفى أن يستحقر غيره، فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبراً، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة والغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره.

والحاصل: أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما إلى الله. فان لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكدرها أو سلبها بالمرة، أو كان فرحاً بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها إلى نفسه لم يكن معجباً، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها، بل يكون فرحاً بها مطمئناً إليها، فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه، لامن حيث انها عطية منسوبة إلى الله تعالى. ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب.

ثم لو انضاف إلى العجب ـ أي غلب على نفس المعجب ـ أن له عند الله حقاً، وانه منه بمكان، واستبعد ان يجري عليه مكروه، كان متوقعاً منه كرامة لعمله، سمى ذلك (ادلالاً) بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة فهو وراء العجب وفوقه إذ كل مدل معجب، ورب معجب لايكون مدلا، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الاضافة إلى الله من دون توقع جزاء على عمله، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه، فالادلال عجب مع شيء زائد.

وعلى هذا، فمن أعطى غيره شيئاً، فان استعظمه ومن عليه كان معجباً، وان استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وكما ان العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطىء فيه ويراه حسناً، كما قال سبحانه:

" أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً "١[١]

وقال أبو الحسن (ع): **" العجب درجات: ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً، فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً. ومنها ان يؤمن العبد بربه، فيمن على الله ـ عز وجل ـ ولله عليه فيه المن ".**

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة، قال رسول الله (ص): **" ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه "**. وقال (ص): **" إذ رايت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك نفسك "**. وقال (ص): **" لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو اكبر من ذلك: العجب العجب "**. وقال (ص): **" بينما موسى (ع)**

---

١ [1] الفاطر، الآية: ٨.

جالس٢[٢]، إذا اقبل عليه ابليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنى منه خلع البرنس، وقام إلى موسى (ع) فسلم عليه، فقال: من أنت؟ فقال انا ابليس، قال أنت: فلا قرب الله دارك، قال: إنى انما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى (ع): فما هذا البرنس قال: به اختطف قلوب بني آدم فقال موسى: فاخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه ". وقال (ص): " قال الله ـ عز وجل ـ يا داود! بشر المذنبين وانذر الصديقين، قال: كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين؟ قال: بشر المذنبين انى اقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا باعمالهم، فانه ليس عبد انصبه للحساب إلا هلك ".

وقال الباقر (ع): " دخل رجلان المسجد، احدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب ". وقال الصادق (ع): " إن الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداًً ". وقال (ع): " من دخله العجب هلك ". وقال (ع): " إن الرجل ليذنب فيندم عليه، ويعمل العمل فيسره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه ". وقال (ع): " اتى عالم عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال مثلى يسأل عن صلاته وانا اعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: ابكى حتى تجرى دموعي، فقال له العالم: فان ضحكك وانت خائف افضل من بكائك وانت مدل، ان المدل لايصعد من عمله شيء ". وقال (ع): " العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له، فمن اعجب بنفسه وفعله، فقد ضل عن نهج الرشاد وادعى ماليس له، والمدعي من غير حق كاذب وان اخفي دعواه وطال دهره. وان اول ما يفعل بالمعجب نزع ما اعجب به ليعلم انه عاجز حقير، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه أوكد، كما فعل بابليس. والعجب

---

٢ [2] وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا: (جالساً) ـــ بالنصب ـــ

نبات حبها الكفر، وارضها النفاق وماؤها البغى، واغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، ولابد ان يثمر "٣[٣] وقيل له (ع): الرجل يعمل العمل و هو خائف مشفق، ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به فقال: " هو في الحالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه ". وقال (ع) " ان عيس بن مريم (ع) كان من شرائعه السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من اصحابه قصير، وكان كثير اللزوم لعيسى، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله، بصحة يقين منه، فمشى على ظهر الماء. فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه بسم الله، يصحة يقين منه فمشى على الماء، ولحق بعيسى (ص)، فدخله العجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وانا أمشي على الماء فما فضله علي؟! قال: فرمس في الماء، فاستغاث بعيسى (ع)، فتناوله من الماء فاخرجه، ثم قال له: ماقلت يا قصير؟! قال قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وانا أمشي، فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله، فمقتك الله على ما قلت، فتب إلى الله ـ عز وجل ـ مما قلت، قال: فتاب الرجل، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها "٤[٤].

فصل

(آفات العجب)

---

٣ [3] صححنا هذه الرواية على ما في البحار ــ الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب ــ وقد نقلها عن مصباح الشريعة، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات.

٤ [4] صححنا أكثر هذه الأحاديث على الكافي في باب العجب والحسد.

العجب آفاته كثيرة: (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما يأتي ـ (ومنها) أنه يدعو إلى نسيان الذنوب واهمالها، فلا يتذكر شيئاً منها، وان تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها، بل يظن انها تغفر له. واما العبادات، فيستعظمها ويتبجج بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، وإذا اعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الاعمال ضل سعيه، إذ الاعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وانما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب، لانه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن انه عند الله بمكان، وان له عند الله حقاً باعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه، وربما يخرجه العجب إلى تزكية نفسه والثناء عليها. وان أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الاعلم، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتنى بخواطر غيره، فيصر عليه، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستحقار والاستجهال، فان كان رأيه الفاسد متعلقاً بأمر دنيوى أضره وفضحه، وان كان متعلقاً بأمر دينى ـ (لا) سيما في أصول العقائد ـ أضله وأهلكه. ولو اتهم نفسه لم يثق برأيه، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة، لكان خيراً له وأحسن، وموصلا له إلى الحق المتيقن. ومن آفاته انه يفتر في الجد والسعي، لظنه انه قد استغنى وفاز بما ينجيه، وهو الهلاك الصريح الذي لاشبهة فيه.

فصل

(علاج العجب اجمالاً وتفصيلاً)

إعلم ان للعجب علاجين: اجمالياً وتفصيلياً٥[٥]

---

٥ [5] وفي النسخ: (اجمالي وتفصيلي).

اما العلاج الاجمالي ـ فهو ان يعرف ربه، وانه لا تليق العظمة والعزة إلا به، وان يعرف نفسه حق المعرفة، ليعلم انه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، ولاتليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة، فما له والعجب واستعظام نفسه، فانه لاريب في كونه ممكناً، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشيء، كما ثبت في الحكمة المتعالية، ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعاً من الواجب الحق، فالعظمة والكبرياء انما تليق بمفيض وجوده وكمالاته، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس، فان شاء ان يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشيء. وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان.

وما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبنى نوعه، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة، وقد مرّ على ممر البول ثلاث مرات. وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة، وهي قوله:

" قتل الإنسان ما أكفره. من أيّ شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدّره. ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره. ثمّ إذا شاء أنشره "٦[٦].

فقد أشارت الآية إلى انه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي، ثم خلقه من أقذر الاشياء الذي هو نطفة مهينة، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة.

وأي شيء اخس وارذل ممن بدايته محض العدم، وخلقته من انتن الاشياء واقذرها، ونهايته الفناء وصيرورته جيفه خبيثة. وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل، لم يفوض إليه أمره، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا لغيره، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة، والاسقام العظيمة، والآفات المختلفة، والطبائع المتضادة، من المرة والدم والريح والبلغم، فيهدم بعض أجزائه بعضاً، شاء أم أبى، رضى أم سخط، فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً وضراً ولا خيراً وشراً. يريد ان يعلم الشيء فيجهله،

---

٦ [6] عبس الآية: ١٧ــ ٢٢.

ويريد ان يذكر الشيء فينساه، ويريد ان ينسى الشيء فلا ينساه، ويريد ان ينصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار. فلا يملك قلبه قلبه، ولا نفسه نفسه. يشتهى الشيء وفيه هلاكه ويكره الشيء وفيه حياته، يستلذ ما يهلكه ويرديه ويستبشع ما ينفعه وينجيه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره ان يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله، وتختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، وهو مضطر ذليل، ان ترك فنى، وان خلى ما بقى، عبد مملوك، لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره، فأي شيء أذل منه لوعرف نفسه؟ ,أنى يليق العجب به لولا جهله؟. وهذا وسط أحواله.

واما آخره، فهو الموت ـ كما عرفت ـ فيصير جيفة منتنة قذرة، ثم تضمحل صورته، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، وتتفتت أجزاؤه، فيصير رميماً رفاتاً، ثم يصير روثاً في أجواف الديدان، يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، واحسن أحواله ان يعود إلى ما كان، فيصير تراباً تعمل منها الكيزان، ويعمر منه البنيان، فما أحسنه لو ترك تراباً، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء، فيخرج من قبره بعد جميع اجزائه المتفرقة، ويساق إلى عرصات القيامة، فيرى سماء مشققة، وارضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، ونجوماً منكدرة، وشمساً منكسفة، وجحيماً مسعرة، وجنة مزينة، وموازين منصوبة، وصحائف منشورة، فإذا هو في معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد، فيعطى كتابه إما بيمينه اوشماله، فيرى فيه جميع اعماله وافعاله، قليل وكثير ونقير وقطمير. فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار، تمنى ان يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يلقى عقابا ولا عذاباً. ولا ريب في ان الكلب والخنزير احسن واطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار، إذ أولهما وآخرهما التراب، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته. ولو جدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة.

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه! وما اغفله من التدبر في احوال يومه وامسه! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به إلى النار فانما ذلك للعفو، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنباً، وكل من إذنب ذنباً استحق عقوبة، فلو لم يعاقب فانما ذلك للعفو. ولا ريب في ان العفو ليس يقيناً، بل هو مشكوك فيه، فمن استحق عقوبة ولايدري ايعفى عنها أم لا، يجب ان يكون أبداًً محزوناً خائفاً ذليلاً، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب، ألا ترى ان من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلاً، فأخذ وحبس في السجن. وهو منتظر ان يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدري ايعفى عنه أم لا، كيف يكون ذله في السجن؟ افترى انه مع هذه الحالة يكون معجباً بنفسه؟! ولا اظنك ان تظن ذلك. فما من عبد مذنب، ولو اذنب ذنباً واحداً، إلا وقد استحق عقوبة من الله، والدنيا سجنه، ولا يدري كيف يكون امره، فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة. فلا يجوز له ان يعجب ويستعظم نفسه.

هذا هو العلاج الاجمالي للعجب.

اما التفصيلي ـ فهو ان يقطع اسبابه ـ اعني ما به العجب ـ وهي العلم، والمعرفة، والعبادة، والطاعة، وغير ذلك من الكمالات النفسية، كالورع، والشجاعة، والسخاوة، والنسب، والحسب، والجمال، والمال، والقوة، والبطش، والجاه، والاقتدار، وكثرة الاعوان والانصار، والكياسة، والتفطن لدقائق الامور، والراي الخطأ.

اما (العجب بالعلم): فعلاجه ان يعلم ان العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة، وان من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله سبحانه، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات. وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة، والاعتراف بالقصور والتقصير في اداء حقوق الله، والشكر بازاء نعمه، ولذا قيل: " من ازداد علماً ازداد وجعاً ". فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب، اما ليس علماً حقيقياً، بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي ان تسمى صناعات لا علوماً، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردي الأخلاق لم يهذب نفسه اولاً ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في العبادة ربه،

فيبقى خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم وان كان علماً حقيقياً صادف من قلبه منزلا خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخبر اثره، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافياً، فإذا شربته الاشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة، كذلك العلم إذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة. والطيب الصافي طيباً وصفاء.

واذا علم ذلك، يعرف انه لا ينبغي العجب بالعلم، ويجب أيضاًً ان يعلم انه إذا اعجب بنفسه صار ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه، لما تقدم من الأخبار وقد احب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه. وقال بواسطة سفرائه: **" ان لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي "**٧[٧]. وقال: **" صغروا انفسكم ليعظم عندي محلكم "**. فلا بد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه، وان يعلم ان حجة الله على أهل العلم اوكد، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم، لأن العالم إذا زل بزلته كثير من الناس، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته افحش إذا لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال رسول الله (ص): **" يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق اقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار، فيقولون: مالك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه "**. وقد مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار٨[٨]، وبلعلم بن باعوراء بالكلب٩[٩]، لعدم عملهم بما علموه. وقال رسول الله (ص): **" يكون قوم يقرؤن**

---

٧ [7] هذا كلام بنصه مذكور في احياء العلوم ــ ج٣ ص٣١٢ــ ويظهر منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الأخبار، لا انه نص حديث، وكذا ما بعده وهو قوله: " صغروا...".

٨ [8] اشارة إلى قوله تعالى ــ في سورة الجمعة الآية ٥ ــ: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً ".

٩ [9] اشارة إلى قوله تعالى ــ في سورة الاعراف الآية ١٧٦ ــ: " فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ".

القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن اعلم منا " ثم التفت إلى اصحابه فقال: " اولئك منكم ايها الأمة، اولئك هم وقود النار ". وقال (ص): " ان أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه وان اشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فاطاع الله فادخله الله الجنة، وادخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل " وقال روح الله (ع): " ويل لعلماء السوء١٠[١٠] كيف تتلظى عليهم النار ". وقال الصادق (ع): " يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد ".

ولا ريب في ان كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها، وينهاهم عن العجب والكبر، وهو معجب متكبر، يكون من علماء السوء وممن لم يعمل بعلمه، فيكون داخلا تحت هذه الأخبار. واي عالم يتصور في امثال هذه الازمنه ان يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وامر به، ولم يضع شيئاً من اوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما امر به من التكاليف العامة والخاصة به؟ فخطره اعظم من خطر غيره، كيف وقد روى: " ان حذيفة صلى بقوم، فلما سلم قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلن وحدانا، فاني رأيت في نفسي انه ليس في القوم افضل مني ". فإذا كان مثله لا يسلم، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الامة، فما أعز على بسيط الارض في هذه الاعصار علماء الآخرة الذين اقبلوا على شأنهم، واستوحشوا من اوثق اخوانهم، وشغلهم عظيم الامر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها، ولا يشتهون من نعيم

---

١٠ [10] في النسخ المصححة للكافي ــ باب لزوم الحجة على العالم ــ هكذا: " للعلماء السوء بتعريف العلماء " ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فاثبتناه بلا تعريف قال صاحب مجمع البحرين ــ مادة (سوء) ــ: " تقول هذا رجل سوء بالاضافة ثم تدخل عليه الالف واللام، فتقول هذا رجل السوء. ولايقال الرجل السوء. كذا قاله الجوهري ".

الدنيا حاراً ولا بارداً، وصارت همومهم هماً واحداً، هيهات! فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم ارباب الاقبال واصحاب الدول، وقد انقرضوا في القرون الأول، بل يعز ان يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء، ولم يكن متكبراً على الفقراء، ومتواضعاً للاغنياء. فينبغي لكل عالم ان يتفكر في احواله واعماله وما اريد منه، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه.

واما (العجب بالعبادة والطاعة): فعلاجه ان يعلم ان الغرض من العبادة هو اظهار الذل والانكسار، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثيرة، فيمكن ان تدخلها بعض الآفات، أو تفقد عنها بعض الشرائط والأداب، فلا تكون مقبولة عند الله، ومع امكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الامور. على ان فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً، ومن جوز ان يكون عند الله شقياً، وقد سبق القضاء الآلهي بشقوته، فأي نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها؟ ولا ريب في انه لا يخلو عبد من هذا التجويز، فما لأحد إلى العجب والتكبر في حال من الاحوال سبيل.

واما (العجب بالورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والسخاوة، والشجاعة، وغيرها من الفضائل النفسية): فعلاجه ان يعلم ان هذه الفضائل انما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب، وإذا دخلها العجب ابطلها وافسدها، فما للعاقل ان يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل، وأنى له لايظهر الذله والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها، ويختم لأجلها الجميع بالخير، وتصير عاقبته محمودة، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة. وينبغي ان يعلم ان كل واحد من الفضائل التي يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال اعجابه بها. وقد نقل ان واحداً من مشاهير الشجعان إذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه، فقيل له: ما هذه

الحالة وانت اشجع الناس واقواهم؟ فقال إني لم امتحن خصمي، فلعله أشجع مني. وايضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة، فان الله عند المنكسرة قلوبهم.

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية: ان يقابل سببه بضده، إذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة له، فنقول:

الكمال الذي به يعجب إما ان يكون يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه، أو من حيث انه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته، فان كان (الأول)، فهو محض الجهل، لأن المحل مسخر، وانما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره، ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس له. وان كان (الثاني)، فينبغي ان يتأمل في قدرته وارادته واعضائه، وسائر الاسباب التي بها يتم كماله وعمله، انها من اين كانت له: فان كان علم ان جميع ذلك نعمة من الله إليه من غير حق سبق له، فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه مالا يستحقه، وأثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فان ظن انه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة، كحبه له تعالى أو مثله، فيقال له الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فليكن الاعجاب بجوده، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك.

فإذاً لا معنى لعجب العالم بعلمه، وعجب العابد بعبادته، وعجب الشجاع بشجاعته، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بماله، لأن كل ذلك من فضل الله، وانما هو محل لفيضان فضل الله وجوده، والمحل أيضاًً من فضله وجوده، فانه هو الذي خلقك، وخلق اعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم والارداة، ولو أردت ان تنفي شيئاً من ذلك لم تقدر عليه. ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاختراع، إلا انه خلقها على ترتيب، فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوة

وفي القلب ارادة، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الذي هو محله، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل اليك انك مستقل بايجاد عملك، وقد غلطت، فان تحريك البواعث، وصرف العوائق، وتهيئة الاسباب كلها من الله، ليس شيء منها اليك.

ومن العجائب ان تعجب بنفسك، ولا تعجب بمن إليه الامر كله، ولا تعجب بجوده وكرمه، وفضله في ايثاره إياك على الفساق من عباده، إذ مكنهم من اسباب الشهوات واللذات، وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك، حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك.

روي: " **ان أيوب (ع) قال: (إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء، وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي).** فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب! انى لك ذلك؟ قال: فاخذ رماداً فوضعه على رأسه، وقال منك يا رب! فرجع عن نسيانه، واضاف ذلك إلى الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى:

" ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً "١١[١١].

وقال النبي (ص): **" ما منكم من أحد ينجيه عمله "، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: " ولا انا إلاّ ان يتغمدني الله برحمته "**.

(فان قيل): ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعاً إلى الله تعالى، يؤدي إلى الجبر ونفى التكليف، وبطلان الثواب والعقاب، (قلنا): هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر، ولا يليق بيانها هنا١٢[١٢]، ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف ـ اعني أفعاله العرضية ـ بل نفينا استقلاله فيها. نعم، في غيرها من المحال

---

١١ [11] النور، الآية: ٢١.

١٢ [12] تقدم ذكر هذا الامر ص١٤١.

والاسباب والصفات اللازمة، والتوفيق، وتحريك البواعث، وصرف الموانع، لا قدرة له فيها أصلاً، ولا يلزم منه فساد.

واما (العجب بالحسب والنسب): فعلاجه يتم بمعرفة امور:

الأول ـ ان يعلم ان التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل، فانه لو كان خسيساً في صفات ذاته، فمن اين يجبر خسته كمال غيره، ولو كان أباه أوجده، بل كان الذي يعجب به بالانتساب حياً لكان له ان يقول: الفضل لي لا لك وانت دودة خلقت من فضلتي، أفترى ان الدودة التي خلقت من فضله الإنسان اشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار؟! هيهات! فانهما متساويان في الخسة، ان الشرف للانسان لا للدودة، ولذا قال أمير المؤمنين (ع):

انا ابن نفسي وكنيتي أدبي	من عجم كنت أو من العرب
إن الفتى مـن يقول هأنذا	ليس الفتى من يقول كان أبى

وقيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف	لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روي: **" ان ابا ذر قال بحضرة النبي (ص) لرجل: (يا ابن السوداء!)، فقال النبي (ص): (يا ابا ذر! طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل). فضطجع أبو ذر وقال للرجل: قم فطأ على خدي)**. وروي: **" ان بلالاً لما أذن يوم الفتح على الكعبة، قال جماعة: هذا العبد الاسود يؤذن! فنزل قوله تعالى:**

يأيّها النّأس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم "١٣[١٣].

وقال رسول الله (ص): **" إن الله قد إذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب "**. ونقل: ان احداً من رؤساء اليونان افتخر على غلام، فقال له: إن كان منشأ

---

١٣ [13] الحجرات، الآية: ١٣.

افتخارك آباءك فالتفوق لهم لا لك، وان كان لباسك فالشرافة له دونك، وان كان مركوب فالفضيلة له لا لك. فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة ولذا قال متمم مكارم الأخلاق (ص): **"لا تأتوني بأنسابكم وائتوني باعمالكم "**.

الثاني ـ ان يعرف نسبه الحقيقي، فان أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل. وقد عرفه الله نسبه فقال:

" وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين "١٤[١٤]

والاصل الذي يوطأ بالاقدام أو تغسل منه الاجسام أي رفعة يكون لفرعه!.

الثالث ـ ان يعلم ان من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه، ان كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية، فظاهر انه ما كان من اخلاقهم العجب، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فان اقتدى بهم في اخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز، وإلا كان طاعناً في نسبه بلسان حاله. وان لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية، كالسلاطين الظلمة واعوانهم، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم! إذ الانتساب إلى الكلاب والخنازير احسن من الانتساب اليهم، كيف وانهم ممقوتون عند الله معذبون في النار، بحيث لو نظر إلى صورهم في النار ومالحقهم فيها من النتن والقذارة، لا ستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم، ولذلك قال ـ (ص): **" ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم، أو ليكونن اهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر "** وروى: انه افتخر رجلان عند موسى (ع)، فقال احدهما: انا فلان بن فلان، حتى عد تسعة، فاوحى الله تعالى إلى موسى: **" قل للذي افتخر! بل التسعة من أهل النار وانت عاشرهم!"**.

---

١٤ [14] السجدة، الآية ٧ ــ ٨.

واما (العجب بالجمال): فعلاجه ان يعلم انه في معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والاسقام، وأي عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم أو قرحة أو جدري!

بر مال وجمال خويشتن غرّه مشو كآن رابشي براندو اين را به تبي١٥[١٥]

ولو لم يرتفع بها، فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومجيء الشيب وبالموت الذي لا بد ان تذوقه كل نفس؟ فانظر إلى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور، بحيث استقذرتها الطباع.

على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله، لرأى من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به، فانه وكلت اليه١٦[١٦] الاقذار في جميع اجزائه: (البصاق) في فمه، و(المخاط) في انفه، (والوسخ) في اذنه، (والنتن) تحت ابطه، (والصديد) تحت بشرته، (والفضلات) في معدته، (والرجيع) في امعائه، (والديدان) في احشائه، (والبول) في مثانته، (والصفراء) في مرارته، يتردد إلى الخلاء كل يوم مرتين، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين، يخرج من باطنه مالو رآه بعينه لا ستقذره فضلا ان يمسه أو يشمه. وفي اول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور: من النطفة ودم الحيض، وخرج من مجاري الاقذار، اعني الصلب والذكر والرحم والفرج. ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالغسل والتنظيف، لثارت منه الانتان والاقذار، وصار اقذر وانتن من الدواب المهملة. هذا اوله ووسطه، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار. فما للعاقل ان يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته.

---

١٥ [15] معنى البيت: (لا تغتر بمالك وجمالك، فان ذاك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة).

١٦ [16] وفي النسخ: " وكل به "، ورجحنا ما اثبتناه.

واما (العجب بالمال): فهو عجب بامر خارج عن ذات الإنسان، فهو اقبح انواع العجب. وعلاجه ان يتفكر في أفات المال، وكونه في معرض الفناء والزوال، من الغضب والنهب والحرق والغرق، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية، ويتذكر ان في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال. وافّ لشرف يسبقه اليهود والهندو! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلساً!! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه، كقوله (ص): **" بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه، إذ امر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة "**١٧[١٧]، اشار به إلى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وكيف يتصور المؤمن العاقل ان يعجب بالمال ويفرح به، من كثرة حقوقه وعظم غوائله، وايجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة، العقوبة والنكال ان كان حراماً، وانحطاط المرتبة والدرجة ان كان حلالا، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة من الخوف من تقصيره، في القيام بحقوقه، واخذه من حله، ووضعه في حقه.

وأما (العجب بالقوة وشدة البطش): فعلاجه ان يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض، وان حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها مالا ينجبر في مدة، وانه لو وجع عرق واحد من بدنه صار اعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وانه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه. وان بقة لو دخلت في انفه أو نملة دخلت في اذنه لقتلته، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته. ثم أقوى إنسان لا يكون اقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر، واي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهائم فيها، هذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه.

واما (العجب بالجاه، والمنصب، وولاية السلاطين، وكثرة الأتباع والانصار: من الاولاد والاقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان): فعلاجه أن يعلم ان كل ذلك في معرض

---

١٧ [17] هذا الحيث صححناه على ما في احياء العلوم ــ٣: ٣٢٢ــ.

الانقطاع، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة، اما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة، وانما هي خيالات تظن شيئاً وليست بشيئ، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلا مهيناً وحده، لا يرافقه أهل واولاد ولا أعوان وأتباع، فيسلمونه إلى البلاء والى العقارب والحيات والديدان، ولا يغنون عنه شيئاً، وهو في أحوج اوقاته اليهم، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد احواله! على انهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والاعطاء فلابد له من ايقاع نفسه في المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته، لتحصيل الاموال من الوجوه المحرمة وصرفها اليهم، ليستمروا على متابعته واعانته، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته، فضلا عن بقائهم على حمايته واطاعته. ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق.

واما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الامور): فعلاجه ان يعلم ان ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه، وربما زال عقله دفعة. مع انه ان كان في الواقع فطناً كيساً في الامور يلزم عليه ان يشكر الله تعالى على ذلك، ويستصغر١٨[١٨] عقله وفطانته، ليبقي الله تعالى عليه تلك النعمة ولا يسلبها لأجل عجبه.

واما (العجب بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله): فهو أقبح أنواع العجب، إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم، وبذلك هلكت الامم إذا افترقت فرقا، وكل معجب برأيه، و:

" كل حزبٍ بما لديهم فرحون "١٩[١٩].

---

١٨ [18] في النسخ: " يستغفر"، فرجحنا ما اثبتناه.

١٩ [19] المؤمنون، الآية: ٥٣.

فكل من استحسن ما يسوقه إليه الهوى والشبهة ـ مع ظن كونه حقاً ـ يكون له هذا العجب، وقد أخبر رسول الله (ص): **" ان ذلك يغلب على آخر هذه الأمة "**. وعلاجه اشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه، ولو عرفه لتركه. يعالج الداء الذي لا يعرف إذ العارف يقدر على ان يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إذا لم يكن معجباً برأيه وجهله، وإذا كان معجباً به يتهمه ولا يصغى إليه حتى يعالجه، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن انها نعمة. وكيف يطلب الهرب مما يعتقد انه سبب سعادته! وانما علاجه في الجملة ان يكون متهما لرأيه لا يغتر به، إلا ان يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتريه ريب وشبهة.

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت، وقريحة تامة مستقيمة، مع جد وتشمير في الطلب، وممارسة الكتاب والسنة، ومجالسة أهل العلم ومدارسة العلوم طول العمر، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط. فالصواب للكل ـ إلا من يده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم ـ ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي إليها، ويتبع أهل الوحى فيما جاؤا به من عند الله في الاصول والفروع.

انكسار النفس
الكبر
ذم الكبر
التكبر على الله وعلى الناس
درجات الكبر
علاج الكبر علما وعملا
اشكال وحل
العلاج العملي للكبر

فصل

(انكسار النفس)

ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة. وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، فكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه، إذ الأول مع اعتبار الثاني تكبر، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع، وهما ضدان.

ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فانما بلغ بهذه الصفة، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، وقال رسول الله (ص): **" ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة[١] [1] يمسكانها، فان هو رفع نفسه جبذاها[٢] [2] ثم فلا: اللهم ضعه، وان وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه "[٣] [3]**. وروي: **" انه اوحى الله تعالى إلى موسى (ع):**

---

[1] ١ الحكمة بالتحريك: ما اخاط بحنكي الفرس من لجامه.

[2] ٢ بمعنى جذ باها.

[3] ٣ صححنا الحديث على ما في احياء العلوم ــ ج٢ ص٣٢٩ ــ.

ان يا موسى! أتدري لم اصطفيك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب! ولم ذلك؟ فاوحى الله تبارك وتعالى إليه: اني قلبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد فيهم أحداً أذل نفساً لي منك، يا موسى! إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب ". وروي: **" انه لما أوحى الله تعالى إلى الجبال. أني واضع سفينة نوح عندي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودي، وهو جبل عندكم، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل، فقال نوح عند ذلك: (يا مارى اتقن) وهو بالسريانية: رب اصلح "**٤[٤]

ومنها:

الكبر

وقد عرفت: انه الركون إلى رؤية النفس فوق الغير، وبعبارة أوضح: هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه، فهو يستدعى متكبراً عليه. وبه ينفصل عن العجب، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه.

ثم الكبر ـ أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير ـ هو خلق الباطن يقتضي اعمالا في الظاهر هي ثمراته، وتسمى تلك الاعمال الظاهرة الصادرة منه تكبراً، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطناً فوق الغير، من دون صدور فعل على جوارحه، يقال له (كبر)، وإذا ظهرت الاعمال يقال له (تكبر) وهذه الاعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به، كالترفع عن مواكلته ومجالسته، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته، وابعاده عن نفسه، وابائه عن الجلوس بجنبه، وانتظاره ان يسلم عليه، وتوقعه ان يقوم ماثلا بين يديه، والاستنكاف من قبول وعظه، وتعنيفه في ارشاده ونصحه، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات، وعدم الالتفات إليه في المحاورات، وتوقع التقديم عليه في كل

---

٤ [4] هذا الحديث وما قلبه رواهما الكافي في باب التواضع. فصححناهما عليه.

ما يدل على التعظيم عرفاً. وبالجملة: الاعمال الصادرة عن الكبر كثيرة، ولاحاجة إلى احصائها، لكونها مشهورة معروفة، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب، إذ فاعلهما يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقارهم، فهما يقتضيان متكبراً عليه، فيكونان من انواع التكبر، وما ورد في ذمهما يدل أيضاً على ذمه، كما يأتي. وهذه الافعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء، وان لم تكن في النفس عزة وتعظم.

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفة عظيمة وغائبته هائلة، وبه هلك خواص الانام فضلا عن غيرهم من العوام، وهو الحجاب الاعظم للوصول إلى أخلاق المؤمنين، إذ فيه عز يمنع عن التواضع، وكظم الغيظ، وقبول النصح، والدوام على الصدق، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس، وغير ذلك. فما من خلق مذموم إلا صاحب الكبر مضطر اليه، ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه. خوفاً من فوات عزه. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والاخبار، قال الله سبحانه:

" وكذلك يطبع الله على كل قلبٍ متكبر جبار "٥[٥]. وقال: **" سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون "**٦[٦]. وقال: **" والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم... إلى قوله: وكنتم عن آياته تستكبرون "**٧[٧]. وقال: **" ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**

---

٥ [5] غافر، الآية: ٣٥.

٦ [6] الاعراف، الآية: ١٤٦.

٧ [7] الانعام، الآية: ٩٣.

"٨[٨]. وقال: " فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرةٌ وهم مستكبرون "٩[٩]. وقال: " إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين"١٠[١٠]. وقال: " إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه "١١[١١].

وقال رسول الله (ص): "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر "١٢[١٢]، وقال: " من تعظم في نفسه واختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان ". وقال (ص): " لا ينظر الله إلى رجل يجر ازاره بطراً ". وقال (ص): " قال الله. الكبرياء ردائي والعظمة ازارى، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم ". وقال (ص): " لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب ". وقال (ص): " يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق، يقول وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ". وقال (ص): " لا يدخل الجنة جبار، ولا بخيل، ولا سيء الملكة ". وقال (ص): " ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك جبار، ومقل مختال ". وقال (ص): " بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى، بئس العبد عبد تبختر

---

٨ [8] الزمر، الآية: ٧٢.

٩ [9] النحل، الآية: ٢٣.

١٠ [10] غافر، الآية: ٦٠.

١١ [11] غافر، الآية: ٥٦.

١٢ [12] روى الحديث في الكافي عن أحد الصادقين ــ عليهما السلام ــ في باب الكبر، وجاء فيه هكذا: " الكبر" بتعريف كبر.

واختال ونسى الكبير المتعال، وبئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى ". وقال (ص): "ألا اخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ جعظرى متكبر "١٣[١٣]. وقال (ص): " ان أبغضكم الينا وابعدكم منا في الاخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون " أي المتكبرون. وقال (ص): " يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر، تطأهم الناس ذراً في مثل صور الرجال، يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (يولس)، تعلوهم نار شر أنيار١٤[١٤]، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار ". وقال (ص): " يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى "، وقال: " ان في جهنم وادياً يقال له (هبهب)، حق على الله ان يسكنه كل جبار "، وقال: " ان في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم "، وقال: " إذا مشت امتى المطيطاء وخدمتهم (فارس) و(الروم) سلط الله بعضهم على بعض "، والمطيطاء: مشية فيها اختيال. وقال عيسى بن مريم: " كما ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر، ألا ترون انه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن يطأطىء أظله وأكنه ". ولما حضرت نوحا الوفاة، دعا ابنيه فقال: " إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده". وقال سليمان بن داود يوماً للطير والجن والانس والبهائم: " اخرجوا، فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتى الف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في

---

١٣ [13] صححنا الحديث على كنز العمال ــ ج٢ ص١٠٧ ـــ. والجواظ: المتكبر الجافي، والجعظري: الفظ الغليظ.

١٤ [14] كذا في النسخ. وفي نسخة احياء العلوم ــ ج٢ ص٢٩٠ ــ: (نار الانيار)، ولم نعثر على جمع نار على انيار، وانما من جملة جموعها (نيار).

السماوات، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر، فسمع صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته.

وقال الباقر (ع): " الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه ". وقال: " العز رداء الله والكبر ازاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم " وقال الصادق (ع): " إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى إلى الله شدة حره وسأله ان يأذن له ان يتنفس، فتنفس فاحرق جهنم ". وقال (ع): " ان المتكبرين يجعلون في صور الذر، يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب ". وقال (ع): " مامن رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه "، وقال (ع): " ان في السماء ملائكة موكلين بالعباد، فمن تواضع رفعاه، ومن تكبر وضعاه ". وقال (ع): " الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق "، قال الراوي: اما الحق فلا أجهله، والغمض لا أدري ماهو قال: " من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار ". وقال (ع): " ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها، فإذا تكبر قال له: اتضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس، وإذا تواضع رفعها الله ـ عز وجل ـ ثم قال له: انتعش نعشك الله، فلا يزال اصغر الناس في نفسه وارفع الناس في أعين الناس ".

فصل

(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله، كما كان لنمرود وفرعون، وسببه الطغيان ومحض الجهل، وهو أفحش انواع الكبر، إذ هو اعظم افراد الكفر، ولذا تكررت في ذمه الآيات، كقوله تعالى:

" أن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين "١٥[١٥]. وقوله: " ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعاً "١٦[١٦]. وقوله تعالى: " ثم لننزعنّ

---

١٥ [15] غافر، الآية: ٦٠.

من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً "١٧[١٧]. وقوله: **" فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون"**١٨[١٨].

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم، كما كان لمن يقول:

" أهؤلاء من الله عليهم من بيننا "١٩[١٩]. ولمن يقول: **" أنؤمن لبشرين مثلنا "**٢٠[٢٠]. **" إن أنتم إلا بشر مثلنا "**٢١[٢١]. **" ولئن اطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون "**٢٢[٢٢]. ولمن قال: **" لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً "**٢٣[٢٣].

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله، وان كان دونه.

---

١٦ [16] النساء، الآية: ١٧٢.

١٧ [17] مريم، الآية: ٦٩.

١٨ [18] النحل، الآية: ٢٣.

١٩ [19] الانعام، الآية: ٥٣.

٢٠ [20] المؤمنون، الآية: ٤٧

٢١ [21] إبراهيم، الآية: ١٠.

٢٢ [22] المؤمنون، الآية: ٣٤.

٢٣ [23] الفرقان، الآية: ٢١.

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم، وهذا وان كان دون الاولين، إلا أنه من المهلكات العظيمة، من حيث انه يؤدي إلى مخالفة الله سبحانه، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده، ومن حيث ان العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلي الأعلى، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته، ولذا قال الله سبحانه: **" العظمة ازاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته ".**

فصل

(درجات الكبر)

للكبر درجات ثلاث:

(الاول) ان يكون مستقراً في قلبه، يرى نفسه خيراً من غيره، ويظهره في أفعاله: بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وان يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، ويعبس وجهه، ويقطب جبينه. وفي أقواله: باظهار الانكار على من يقصر فيما يتوقعه، من التعظيم، وابداء الدعوى، والمفاخرة والمباهاة وتزكيه النفس، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل، وهذه الدرجة اقبح الدرجات واشدها، إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت اغصانها وفروعها، بحيث احاطت على جميع جوارحه.

(الثانية) كالأولى، إلا في إظهاره على اللسان، وهي دون الأولى، لكونها أقل اغصاناً منها.

(الثالثة) ان يكون مستقراً في قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد في التواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه. وهذا وان رسخت في قلبه شجرة الكبر، إلا انه قطع اغصانها بالكلية، فان كان مع ذلك منكراً على نفسه فيما رسخ فيها، ومغضباً عليها ومتشمراً لازالتها إلا انه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة، وتميل النفس إلى ما تشتهيه في بعض الاحيان بدون اختيار، ولكنه كان في مقام المجاهدة، فلعله لم يكن عليه كثير إثم، ومثله يوفقه الله للوصول إلى ما يطلبه بمقتضى وعده.

فصل

(علاج الكبر علماً وعملا)

الكبر كالعجب في كيفية العلاج اجمالا وتفصيلا، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب ـ أي استعظام النفس ـ وكان العجب منشأ له، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضاًً. ولكن ما به الكبر ـ اعنى بواعثه ـ هي بواعث العجب بعينها، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما.

ومن المعالجات المختصة بالكبر: ان يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات والاخبار المذكورة وغيرها، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده ـ اعني التواضع كما يأتي. ولكون الكبر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير، فينبغي ان يعلم ان الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة، فلعل في الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيه، وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه. وكيف يجتريء صاحب البصيرة ان يرجح نفسه على الغير، مع ابهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب إلى الله تعالى، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له، فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالباطن لا يرى لنفسه مزية على غيره، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده، لا ينظر إلى احد بنظر السوء والعداوة، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة.

اشكال وحل

(فان قيل): كيف يحسن ان يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيرا من نفسه، مع ظهور جهله وفسقه، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما؟ وكيف يجوز له ان يحب فاسقاً أو كافراً أو مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه، مع انه مبغوض عند الله، فيكون مأموراً ببغضه، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين؟

(أجبنا) عن (الاول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التى يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الاموال المحرمة وغير ذلك، إذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه ان يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامي غير عالم بها. لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الامرية إنما هو بالتقرب إلى الله والوصول إلى السعادة الدائمية، ولاشك في ان ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة، بل المناط فيه حسن الخاتمة، وهو أمر مبهم، إذ العواقب مطوية عن العباد، فيمكن ان يسلم الكافر ويختم له بالايمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر، فعلى كل عبد ان رأى من هو شراً منه ظاهراً ان يقول: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا يراه شراً من نفسه في الواقع خائفاً من العاقبة ويقول: لعل بر هذا باطن، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، وبرى ظاهر لا آمن ان تدخله الآفات فتحبطه. وبالجملة: ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الاعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد.

وعن (الثاني) إن الحب ينبغي ان يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق. واي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد، وبين عدم الكبر والاذلال؟ إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر إلى نفسك، بألا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكا في حال غضبك عليه لأمر الله، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه، وترى قدرك فوق قدره.

ومثال ذلك. ان يكون لملك غلام وولد، وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به، فان كان الغلام مطيعاً محباً لمولاه يغضب عيه إذا ساء أدبه امتثالا لأمر مولاه، ومع ذلك يحبه لانتسابه إلى مولاه بالولاده، ولايتكبر عليه ويتواضع له، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لامحالة من الغلام.

تذنيب

(العلاج العملي للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمي، اما (العلاج العملي) فهو ان يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق، ويواظب على اخلاق المتواضعين، ويكلف نفسه على ذلك إلى ان تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها، ويصير التواضع ملكة له. وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها، فلا بد ان يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها:

(الأول) ان يناظر مع أقرانه في بعض المسائل، فإذا ظهر شيء من الحق على لسانهم، فان اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ماغفل عنه فهو علامة التواضع، وان ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانه فهو دليل بقاء الكبر بعد. فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها، من حيث ان قبول الحق يثقل عليها، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالثناء والشكر، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور، ويقول: ما أحسن فطانتك! لقد ارشدتني إلى الحق، فجزاك الله خيراً، فإذا واظب على ذلك مراتب متوالية، صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، وان لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ، فليس فيه كبر، بل فيه رياء، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء.

(الثاني) ان يقدم الاقران والامثال على نفسه في المحافل، ويمشي خلفهم في الطرق، فان لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع، وإلا فمتكبر، فليقدمهم بالتلكف، ويجلس تحتهم، ويظهر السرور والارتياح بذلك، حتى يسقط عنه ثقله. قال ابو عبد الله الصادق (ع): **" إن من التواضع ان يجلس الرجل دون شرفه "**. وقال (ع): **" من التواضع ان ترضى بالمجلس دون المجلس، وان تسلم على من تلقى، وان تترك المراء وان كنت محقاً، ولا تحب ان تحمد على التقوى "**. ومن المتكبرين من إذا لم يجد مكاناً في الصدر يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الاقران بعض الاراذل ولايجلس تحتهم، وغرضهم من ذلك استحقار الاقران أو إيهام ان تركهم للصدر انما هو بالتفضل، فهو أشد أنواع التكبر.

(الثالث) ان يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب، ويحعل حاجتهم وحاجة نفسه منه إلى البيت، فان لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء وان ثقل عليه مشاهده الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر. قال أمير المؤمنين (ع): **" لاينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله "**. وروي: **" انه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقال له بعضهم احمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا! ابو العيال أحق ان يحمل "**. وروي: **" ان الصادق (ع): نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال له ابو عبد الله (ع): اشتريته لعيالك وحملته اليهم اما والله لو لا أهل المدينه لأحببت ان اشترى لعيالى الشيء ثم أحمله اليهم "**.

(الرابع) ان يلبس ثياباً بذلة، فان لم يثقل عليه ذلك أصلا فليس فيه كبر ورياء، وإلا كان متكبراً أو مرائياً، قال رسول الله (ص): **" من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر"**. وقال (ص): **" انما انا عبد آكل في الارض، وألبس الصوف، وأعقل البعير، وألعق أصابعي، واجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس مني "** وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: **إنما انا عبد، فإذا اعتقت يوماً لبست جديداً "**: اشار به إلى العتق في

الآخرة. وقال رسول الله (ص): **" البذاذة - أي الدون من اللباس - من الإيمان "**. وعوتب أمير المؤمنين (ع): في ازار مرقوع، فقال: **" يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب "**.

(الخامس) ان يأكل مع خدامه وغلمانه، فان لم يثقل عليه فهو متواضع وإلا فمتكبر. **وروي رجل من أهل بلخ، قال: كنت مع الرضا (ع): في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك! لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال (ع): ان الرب تعالى واحد، والدين واحد والأم واحدة، والاب واحد، والجزاء بالأعمال ".**

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر، بل هي كثيرة:

كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، قال أمير المؤمنين (ع): **" من اراد ان ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام "**. وقال بعض الصحابة: **" لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك "**

وان يحب ان يمشي خلفه غيره، وقد روي **" انه لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه "**. وكان رسول الله (ص): في بعض الأوقات يمشي مع بعض الاصحاب، فيأمرهم بالتقدم ويمشى في غمارهم.

وألا يزور غيره، وان كان في زيارته فائدة دينية. وان يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى. **روي انه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر، وعنده ناس من اصحابه يأكلون، فما جلس عند احد إلا قام من جنبه. فاجلسه النبي (ص): إلى جنبه. وكان (ص): في نفر من اصحابه يأكلون في بيته، إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له: " اطعم "، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكرّه، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها.** ومر سيد الساجدين (ع):

على المجذومين٢٤[٢٤] وهو راكب حماره، وهم يتغدون، فدعوه إلى الغذاء، فقال: **" اما انى لولا اني صائم لفعلت "، فلما صار إلى منزله امر بطعام فصنع، وامر ان يتنوقوا فيه، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم....** وقس على هذه غيرها من الامتحانات.

ولقد كانت سيرة رسول الله (ص) جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الافعال والحركات، فينبغي لكل مؤمن ان يقتدي بـه. وقد روى ابو سعيد الخدري: **" انه (ص) كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيى، ويشري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء ان يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى اهله. يصافح الغني والفقير والصغير والكبير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير اسود أو احمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه، لا يستحيي من ان يجيب إذا دعي، وان كان اشعث اغبر، ولا يحقر مادعي إليه وان لم يجد إلا حشف الرّقل**٢٥[٢٥]**، لا يدفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء. هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك محزوناً من غير عبوس، شديداً في غير عنف. متواضعاً في غير مذلة، جواداً من غير سرف، رحيماً لكل ذي قربى، قريباً من كل ذمي ومسلم، رقيق القلب، دائم الاطراق، لم يبسم قط من شبع، ولا يمد يده إلى طمع "**. هذا وقال ابو الحسن (ع): **" التواضع: ان تعطي الناس ما تحب ان تعطاه "**. وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً، فقال: **" التواضع درجات: منها ان يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب ان يأتي إلى احد إلا مثل ما يؤتى اليه، ان رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس، والله يحب المحسنين "**.

---

٢٤ [24] وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا: " المجذمين ".

٢٥ [25] في احياء العلوم ــ ج٣ ص٣٠٦ ــ هكذا: (الدقل)، وكل من النسختين يصح به المعنى.

التواضع ومدحه

الذلة

الافتخار

البغي

تزكية النفس

العصبية

كتمان الحق

الانصاف والاستقامة على الحق

القساوة

فصل

(التواضع ومدحه)

قد اشير إلى ان ضد الكبر (التواضع)، وهو انكسار للنفس يمنعها من ان يرى لذاتها مزية على الغير، وتلزمه افعال واقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه، والمواظبة عليها اقوى معالجة لازالة الكبر. ولا بد من الاشارة إلى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده، تحريكا للطالبين إلى السعي في تحصيله الموجب لازالة ضده، وهذه الأخبار كثيرة خارجة عن حد الاحصاء، فنكتفي بايراد بعض منها:

قال رسول الله (ص): **" ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله "**. وقال (ص): **" طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وانفق مالاً جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة "**. وروى: **" ان الله سبحانه اوحى إلى موسى: إنما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من اجلى "**.

وقال رسول الله (ص) لاصحابه: **" مالي لا ارى عليكم حلاوة العبادة! قالوا: وما حلاوة العبادة؟**

قال: التواضع ". وقال (ص): " إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة". وقال (ص): " إذا هدى الله عبداً الاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً، فذلك من صفوة الله ". وقال (ص): " اربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا ". وقال (ص): " ليعجبني ان يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ". وقال (ص): " من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن اكثر ذكر الموت احبه الله، ومن اكثر ذكر الله اظله الله في جنته ". وروي: " انه أتى رسول الله (ص) ملك، فقال: ان الله تعالى يخيرك ان تكون عبداً رسولا متواضعاً أو ملكا رسولا. فنظر إلى جبرئيل (ع) وأومى بيده ان تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولا، فقال الرسول - يعني الملك -: مع انه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً ". وقال عيسى بن مريم (ع): " طوبى للمتواضعين في الدنيا! هم اصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة: طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة ". وقال (ص): " إن التواضع لايزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله ". واوحى الله تعالى إلى داود (ع): " ياداود! كما ان اقرب الناس إلى الله المتواضعون كذلك ابعد الناس من الله المتكبرون ". وروي: " ان سليمان بن داود إذا اصبح تصفح وجوه الاعنياء والاشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم، ويقول مسكين مع المساكين ". وروي: " انه ورد على أمير المؤمنين (ع) اخوان له مؤمنان، أب وابن، فقام اليهما واكرمهما واجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين ايديهما، ثم امر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل، وجاء ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الابريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب، وقال يا أمير المؤمنين! الله يراني وانت تصب على يدي! قال: اقعد واغسل، فان الله - عز وجل - يراك واخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا. فقعد الرجل. وقال له علي (ع): أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الابريق محمد بن الحنفية، وقال: يا بني! لو كان هذا لابن حضرني دون ابيه لصببت

على يده ولكن الله ـ عز وجل ـ يأبى ان يسوى بين ابن وابيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صب الاب على الاب فليصب الابن على الابن، فصب محمد بن الحنفية على الابن"١[١].

وقال الصادق (ع): " التواضع اصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب. والتواضع ما يكون لله وفي الله، وما سواه فكبر. ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده. ولاهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة واهل الارض من العارفين. قال الله عز وجل،

" وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم "٢[٢].

واصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته. وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع. ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته، قال الله عز وجل:

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً "٣[٣].

وقد امر الله ـ عز وجل ـ اعز خلقه وسيد بريته محمداً (ص) بالتواضع، فقال عز وجل:

" واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين "٤[٤].

---

١ [1] روي هذا الحديث في البحار ــ في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص١٤٩ باب التواضع ــ عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع).

٢ [2] الاعراف، الآية: ٤٦.

٣ [3] الفرقان، الآية: ٦٣.

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للمتواضع في ذات الله تعالى٥[٥]. وقال الإمام ابو محمد الحسن بن علي العسكري (ع): **" اعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة على بن أبى طالب (ع) حقاً "**٦[٦].

تتميم

(الذلة)

لما عرفت ان كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان، فأحد طرفي التواضع (الكبر) ـ كما عرفت ـ وهو من طرف الافراط، وآخرهما (الذلة) والتخاسس وهو من طرف التفريط. فكما ان الكبر مذموم، فكذلك المذلة والتخاسس أيضاًً مذموم، إذ كلا طرفي الامور ذميم، والمحمود: هو التواضع من دون الخروج إلى شيء من الطرفين، إذ أحب الامور إلى الله اوسطها، وهو ان يعطي كل ذي حق حقه، وهو العدل، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن ان يذل نفسه، فالعالم إذا دخل عليه اسكاف فخلى له مجلسه واجلسه فيه، وترك تعليمه وافادته، وإذا قام عدا إلى الباب خلفه، فقد تخاسس وتذلل، وهو غير محمود، بل هو رذيلة في طرف التفريط. فاللازم إذا وقع فيه

---

٤ [4] الشعراء، الآية: ٢١٥.

٥ [5] روى هذا الحديث في البحار أيضاً في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة.

٦ [6] هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام.

ان يرفع نفسه إلى ان يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم فان العدل ان يتواضع بمثل ماذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته. فاما تواضعه للسوقي، فبالبشر في الكلام، والرفق في السؤال، واجابة دعوته، والسعي في حاجته، وامثال ذلك، وألا يرى نفسه خيراً منه، نظراً إلى خطر الخاتمة.

ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين، إذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذله المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر، وتقريره على تكبره، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر، إذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس، ولذا قال رسول الله (ص): **" إذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فان ذلك لهم مذلة وصغار"**.

ومنها:

الافتخار

أي المباهاة باللسان بما توهمه كمالا، والغالب كون المباهاة بالامور الخارجة عن ذاته، وهو بعض اصناف التكبر ـ كما اشير إليه ـ فكل ما ورد في ذمه يدل على ذمه، والاسباب الباعثة عليه هي اسباب التكبر. وقد تقدم ان شيئاً منها لا يصلح لان يكون منشأ للافتخار، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة. قال سيد الساجدين (ع): **" عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالامس نطفة ثم (هو)٧[٧] غداً جيفة "**. وقال الباقر (ع): **" عجباً للمختال الفخور، وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به "**. وقال (ع): **" صعد رسول الله (ص): المنبر يوم فتح مكة، فقال: ايها الناس! ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم وآدم من طين، ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه "**. وقال له (ع) عقبة بن بشير الاسدي: انا في الحسب الضخم عزيز في قومي، فقال له: **" تمن علينا بحسبك! إن الله تعالى رفع بالايمان من كان**

---

٧ [7] في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو).

الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً. فليس لأحد فضل على احد إلا بتقوى الله ". وقال الصادق (ع): " قال رسول الله (ص) آفة الحسب الافتخار والعجب " وقال (ع): " اتى رسول الله (ص) رجل فقال يا رسول الله! انا فلان بن فلان... حتى عد تسعة، فقال رسول الله: اما انك عاشرهم في النار! ". ونقل: ان قريشاً تفاخروا عند سلمان، فقال: " لكني خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم إلى الميزان، فان ثقل فانا كريم وان خف فأنا لئيم ". ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول.

ومنها:

البغي

ويسمى البذخ ايصا، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب ان ينقاد (له)، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد (له)، أو في ضمن احد أفعال الكبر، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير. وعلى أي تقدير هو افحش انواع الكبر إذ عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد (له) - كالانبياء وأوصيائهم - يؤدي إلى الكفر الموجب للهلاك الابدي. ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم. وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة، ولذا ورد في ذمه ما ورد، قال رسول الله (ص): " ان أعجل الشر عقوبة البغي ". وقال (ص): " حق على الله عز وجل ألا يبغي شيء على شيء إلا أذله الله، ولو ان جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغي منهما ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ايها الناس! ان البغي يقود اصحابه إلى النار. وان اول من بغى على الله عناق بنت آدم، واول قتيل قتله الله عناق، وكان مجلسها جريبا في جريب، وكان لها عشرون اصبعاً في كل اصبع ظفران مثل المنجلين، فسلط الله عليها اسداً كالفيل، وذئباً كالبعير، ونسراً كالبغل، فقتلنها. وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل احوالهم وآمن ما كانوا ". وقال الصادق (ع): " يقول ابليس لجنوده: القوا بينهم الحسد والبغي فانهما يعدلان عند الله الشرك ". وكتب (ع) إلى بعض اصحابه: " انظر ألا تكلمن بكلمة بغي أبداًّ، وان اعجبتك نفسك وعشيرتك ".

وعلاجه: ان يتذكر ـ اولا ـ هذه الأخبار الواردة في ذمه، و ـ ثانياً ـ ماورد في مدح ضده ـ اعني التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته ـ كقولهم (ع): **" شيعتنا المسلمون "**. والآيات والاخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي (ص) واولي الامر، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الائمة في زمن الغيبة. وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع، ويتخضع له قولاً وفعلا، حتى يصير ذلك له ملكة.

ومنها:

تزكية النفس

أي نفي النقائص عنها، واثبات الكمالات لها. وهو من نتائج العجب. وقبحه اظهر من ان يخفى. إذ من عرف حقيقة الامكان، ثم اطلع على خلق الإنسان، يعلم انه عين القصور والنقصان، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان. على انه يتضمن بخصوصه قبحاً يشهد به الذوق والوجدان، ولذا قال أمير المؤمنين (ع): **" تزكية المرء لنفسه قبيحة "**. وقد تقدم مايكفيك لمعرفة حقارة الإنسان وخساسته.

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها واثبات النقائص لها، فإذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية، يصير معتاداً له، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه.

ومنها:

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله إليه نسبة: من الدين، والاقارب، والعشائر، واهل البلد، قولا أو فعلا: فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في مالا يجوز شرعاً، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب ـ كما مر ـ وان كان مما يلزم حمايته، أو كانت حمايته بالباطل، بأن يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً، فهو التعصب المذموم، وهو من رداءة قوة الغضب. والى ذلك

يشير كلام سيد الساجدين (ع) حيث سئل عن العصبية، فقال: **" العصبية التي يأثم عليها صاحبها: ان يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية ان يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية ان يعين قومه على الظلم "**.

والغالب اطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم، لذا ورد بها الذم، كقول النبي (ص): **" من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه "**. وقوله (ص): **" من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع اعراب الجاهلية "**. وقال السجاد (ع): **" لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم عصباً للنبي (ص) في حديث السلى الذي ألقي على النبي (ص) "**. وقال الصادق (ع): **" ان الملائكة كانوا يحسبون ان ابليس منهم، وكان في علم الله انه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب، فقال:**

" خلقتني من نار وخلقته من طين "٨**[٨]**

ومنها:

كتمان الحق

والانحراف عنه. وباعثه إما العصبية أو الجبن، فهو من نتائج واحدة منهما، فعلى (الاول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط، وربما كان الباعث في بعض افراده الطمع المالي، إلا ان الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب، كما في نفس الغضب وغيره، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق. ويندرج تحته الميل في الحكم، وكتمان الشهادة، وشهادة الزور، ووتصديق المبطل، وتكذيب المحق، وغير ذلك.

---

٨ [8] الاعراف، الآية: ١٢. ص، الآية: ٧٦.

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً، وعلى كل واحد من الاصناف المندرجة تحته كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها لا شتهارها. وعلاج العصبية وكتمان الحق: أن يتذكر ـ أولاً ـ ايجابهما لسخط الله ومقته، وربما تأديا إلى الكفر، وـ ثانياً ـ فوائد ضدهما، أعني الانصاف والاستقامة على الحق. وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به، ولو بالمشقة الشديدة، إلى ان يصير ذلك عادة له، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق.

فصل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الانصاف والاستقامة على الحق، فلنشر إلى بعض ماورد في مدحهما تحريكا للطالبين إلى الاخذ بهما، قال رسول (ص): **" لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الانفاق من الاقتار، والانصاف من نفسه، وبذل السلام "**. وكان (ص) يقول في آخر خطبته: **" طوبى لمن طاب خلقه، وطهرت سجيته، وصلحت سريرته، وحسنت علانيته، وانفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من قوله، وانصف الناس من نفسه "**. وقال (ص): **" سيد الاعمال انصاف الناس من نفسك... "** إلى آخره. وقال (ص): **من واسى الفقير من ماله وانصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقاً "**. وقال (ص): **" ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله: رجل اعطى الناس عن نفسه ماهو سائلهم... "** الحديث. وقال أمير المؤمنين (ع) في كلام له: **" ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله إلا عزاً "**. وقال الصادق (ع): **" من يضمن لي أربعة باربعة ابيات في الجنة: انفق ولا تخف فقراً، وافش السلام في العالم، واترك المراء وان كنت محقاً، وانصف الناس من نفسك "**. وقال (ع): **" ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه؟ "**. فذكر ثلاثة اشياء أولها: " إنصاف الناس من نفسك ". وقال (ع): **" من انصف الناس من نفسه رضى به حكماً لغيره "**. وقال (ع): **" ما تدارى اثنان في امر قط فاعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه "**. وقال (ع): **" ثلاث هم أقرب الخلق إلى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على ان يحيف على من**

تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع احدهما على الآخر بعشيرة، ورجل قال بالحق فيما له وعليه ". وقال (ع): **" ان لله جنة لا يدخلها إلا ثلاثة،احدهم من حكم في نفسه بالحق "**[٩] **[٩]**.

ومنها:

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم أبناء النوع. ولاريب في كونه ناشئا من غلبة السبعية، واكثر ذمائم الصفات: من الظلم والايذاء، وعدم اغاثة المظلومين، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه. وضده الرحمة والرقة، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه، ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر. وقد ورد به المدح والترغيب في الأخبار الكثيرة، كقول النبي (ص): **" يقول الله تعالى: اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم، فاني جعلت فيهم رحمتي. ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فاني جعلت فيهم سخطى"**. وكقول الصادق (ع): **" اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين... الخ "**. وقوله (ع): **" تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما امركم الله "**. وقوله (ع): **" يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل: رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله (ص) "**. وقد ورد: ان من ترحم على العباد يرحمه الله. الأخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته: من اعانة المحتاج، واغاثة المظلوم، ومواساة الفقير، والاغتمام بمصائب المؤمنين، وأمثال ذلك، اكثر من ان تحصى.

---

[٩] [9] هذا الحديث رواه في الكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر (ع).

ثم ان ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الاشكال، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة، فطريق العلاج ان يترك لوازمها وآثارها من الافعال الظاهرة، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية.

انتهى الجزء الاول